روايات



عالم جديد شجاع

ألدوس هكسلي

ترجمة: مروة سامي

عالم الأدب
للترجمة والنشر

روايات

عالم جديد شجاع

ألدوس هكسلي

ترجمة: مروة سامي

عالم الأدب
للترجمة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتــاب: عــالم جديــد شجــاع
المؤلــف: الــدوس هكسـلي
المترجـم: مـروة سـامي

عدد الصفحات: ٣٥٢ صفحة
سنة الطباعــة: ٢٠١٦م
بلــد الطباعــة: بيروت/ لبنان
الطبعـــــــة: الأولى

عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع
مؤسسة عربية تعتني بنشر النصوص المترجمة والعربية
في مجالات الثقافة العامة والأدب والعلوم الإنسانية

عالم الأدب
للترجمة والنشر

هاتف: 00201099938159
بريد إلكتروني: info@aalamaladab.com
القاهرة - جمهورية مصر العربية

Title: Brave New World
Editor: Aldous Huxley
Translator: Marwa Samy

Pages: 352
Year: 2016
Printed in: Beirut, Lebanon
Edition: 1

الفهرسة أثناء النشر - إعداد إدارة الشئون الفنية / دار الكتب المصرية

هكسلي/ الدوس
عالم جديد شجاع/ تأليف، الدوس هكسلي، ترجمة، مروة سامي
القاهرة، عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع، ٢٠١٥
٣٥٢ ص، ١٤,٥×٢١,٥ سم
١- القصص الإنجليزية أ- سامي، مروة (مترجم) ب- العنوان
رقم الإيداع، ٢٠١٥/١٩٤٧٤

ISBN: 978-977-6539-10-5

عالم الأدب
للترجمة والنشر

الفهرس

الفَصْلُ الأوّل

بناية رمادية منخفضة، لا تزيد عن أربعة وثلاثين طابقًا فقط، كُتبت علىٰ مدخلها الرئيسي عبارة: **(مركز وسط لندن للتفريخ والتكييف)**، وكُتب علىٰ درعٍ شعار الدولة العالمية: **(المجتمع، والهُوية، والاستقرار)**.

تُواجه قاعة الطابق الأرضي الفسيحة جهة الشمال، ممَّا يجعلها باردة طوال الصيف، وراء ألواح النوافذ الزجاجية، علىٰ النقيض من جو الغرفة الاستوائي، واخترق شعاع رفيع ثاقب النافذة يبحث بنهم عن جسد متدثر ملقىٰ، أو جسم شاحب هزيل يتحبب جلده مقشعرًا من لسعة البرد، فلم يجد إلَّا معادن الزجاج والنيكل، والأسطح الخزفية اللامعة الكئيبة، التي يتكوَّن منها المعمل. وتجاوبت البرودة مع البرودة؛ فارتدىٰ العُمَّال زيًّا أبيض، ودثَّروا أيديهم بقفازات مطاطية بلون الجثث الشاحبة. كانت الإضاءة متجمدة لا حياة فيها كالشبح، فقط الإضاءة القادمة من اسطوانات المجاهر هي التي تعج بالحيوية والثراء، فتتبع الأنابيب المصقولة كالزبدة في طابور من الشرائح الشهية علىٰ طول طاولات العمل.

قال المدير، وهو يدفع الباب: «وهذه هي غرفة التخصيب».

كان المخصبون المنهمكون في العمل، والذي يبلغ عددهم الثلاثمائة منكبين علىٰ أدواتهم حينما دلف مدير مركز التفريخ والتكييف إلىٰ الحجرة التي يغلفها صمتٌ لا تكاد تسمع فيه صوت الأنفاس، ولا يقطعه إلَّا غمغمة أو همهمة لا واعية ناتجة عن الاستغراق في التركيز. تبع المدير مهرولين في عقبه في قلق وتذلل قطيعٌ من الطلبة القادمين حديثًا، صغار السن، متوردي الوجوه، أغرار، سذج.

كان كلٌّ منهم يحمل دفترًا، متىٰ فتح الرجل العظيم فاه سارعوا بالنقل عنه، حريصين علىٰ ألَّا يُفوِّتُوا كلمة قالها؛ ليسجلوها بسندٍ عالٍ، فقد كان هذا شرفًا نادرًا. وكان مدير مركز لندن للتفريخ والتكييف حريصًا علىٰ أن يقوم بنفسه بإعطاء طلابه الجدد جولة التعريف الأولىٰ بالأقسام المختلفة، مبررًا: «فقط لأعطيكم فكرة عامة»، وذلك - بالطبع - لأنَّه لا مناص من أن يحصلوا علىٰ فكرة عامة إذا كان لهم أن يُؤدُّوا عملهم بإدراك . . . إدراك يسير، علىٰ قدر الحاجة، ذلك إذا أرادوا أن يصبحوا أعضاء جيدين وسعداء في المجتمع؛ لأنَّ التفاصيل - كما يعلم الجميع - تؤدِّي إلىٰ الفضيلة والسعادة، أمَّا العموميات؛ فهي شرور فكرية، لا مناص منها في أضيق الحدود الممكنة، فجامعو الطوابع وصانعو الزخارف هم العمود الفقري للمجتمع، وليس الفلاسفة.

وأخبرَهم متبسمًا بسمة لطيفة تحمل في طياتها تهديدًا: «سوف تبدؤون العمل الشاق غدًا، ولن يكون لديكم وقت للعموميات حينها».

كان هذا امتيازًا؛ من فم الحصان إلىٰ الدفتر مباشرةً، والفتية يكتبون علىٰ عجلٍ، كأنما أصابهم مسٌّ.

تقدم المدير داخل الغرفة وهو رجل طويل القامة، ممشوق القوام، له ذقنٌ مدببة، وأسنان كبيرة بارزة، تنطبق عليها بالكاد شفتاه الممتلئتان المتوردتان المقوستان عندما لا يتحدَّث.

هل كان شابًا؟ كهلًا؟ في الثلاثين؟ في الخمسين؟ في الخامسة والخمسين؟

يصعب القول. وعلىٰ أي حال؛ لم يدُر بخلد أحد أن يطرح هذا السؤال، في عام الاستقرار هذا عام ٦٣٢ ب. ف. (بعد فورد).

قال مدير المركز: «سوف أبدأ من البداية».

سجل الطلاب الأكثر حماسة نيّته: «البدأ من البداية».

أشار بيده قائلًا: «هذه هي الحاضنات»، ثم فتح بابًا عازلًا، وأشار إلىٰ أرفف متراصة، تحمل أنابيب اختبار مرقمة، وأخذ يشرح ما يرونه أمامهم: «يُحفظ مخزون الأسبوع من البويضات في درجة حرارة الدم». ثم فتح بابًا آخر قائلًا: «أمَّا الأمشاج الذكورية، فتحفظ في درجة حرارة (٣٥) بدلًا من (٣٧)؛ فدرجة حرارة الدم الكاملة تسبب لها العقم. «فلو غلفت الكباش بغشاء يرفع درجة حرارتها لن تستطيع أن تنجب الحملان».

وبينما لا زال منحنيًا علىٰ الحاضنات، والأقلام تكتب مسرعة بخط غير مقروء، أعطاهم وصفًا مختصرًا لسير عملية الإخصاب

الحديثة، وتحدث -أوَّلًا بالطبع- عن (المقدمة الجراحية): «أُجريت العملية علىٰ متطوعين لمصلحة المجتمع، هذا دون ذكر المكافأة التي تبلغ مرتب ستة أشهر»، واستكمل شرحه بالإلمام ببعض التقنيات عن حفظ المبيض المستأصل في حالة حيوية، ونمو نشط، ثم انتقل إلىٰ النظر في درجة الحرارة المُثلىٰ، ونسبة الملوحة واللزوجة، وأشار إلىٰ السائل الذي تحفظ فيه البويضات الناضجة بعد انتزاعها، ثم قاد طلبته إلىٰ طاولات العمل، وأراهم فعلًا كيف يُستخلص هذا السائل من أنابيب الاختبار، ثم يخلىٰ قطرة قطرة إلىٰ شرائح المجاهر الزجاجية المدفأة خصيصًا، وكيف تُفحص البويضات المعروضة علىٰ الشرائح للبحث عن أي شيء غير اعتيادي، ثم كيف تُعد وتُنقل إلىٰ وعاء مسامي، ثم صحبهم لمشاهدة تلك العملية مُعرِّفًا إيَّاهم كيف يُغمر هذا الوعاء في حساء يحتوي علىٰ حيوانات منوية سابحة بنسبة تركيز لا تقلُّ عن مائة ألف في السنتيمتر المكعب، وقد أصرَّ إصرارًا شديدًا بعد عشر دقائق علىٰ رفع الحاوية من السائل، وإعادة فحص محتوياتها، وأخبرهم أنَّه لو بقيت أيٌّ من البويضات غير مخصبة فسيُعاد غمرها في السائل مرة أخرىٰ، وثالثة لو تطلب الأمر، وشرح كيف تُعاد البويضة المخصبة إلىٰ الحاوية، حيث تمكُث الألفا والبيتا، حتىٰ تتم تعبئتها، بينما يُؤتىٰ بسلالات (الجاما)، و(الدلتا)، و(الإبسيلون)، مرة أخرىٰ بعد ست وثلاثين ساعة فقط؛ ليمروا بـ(عملية بوكانوفيسكي).

(**عملية بوكانوفيسكي**)، كررها المدير ليُسرع الطلبة بالخط تحت الكلمة في دفاترهم الصغيرة.

البويضة الواحدة تعني: جنينًا واحدًا، وحياة ناضجة واحدة، ولكن البويضة التي تتعرَّض لـ(**عملية بوكانوفيسكي**) تنمو وتتكاثر وتنقسم، من ثمانية إلىٰ ستة وتسعين برعمًا، كل برعم منهم ينمو؛ ليصبح جنينًا مكتملًا، والذي سينمو بدوره إلىٰ شخص بالغٍ مكتمل.

وهكذا: يكون التقدُّم، ننتج ستة وتسعين إنسانًا من بويضة واحدة بدلًا من إنسان واحد فقط في السابق.

واختتم المدير حديثه قائلًا: «تتكون (**عملية بوكانوفيسكي**) في الأساس من سلسلة من مكابح النمو، فنحن نكبح النمو الطبيعي، فتستجيب البويضة استجابة عكسية بالنمو في مفارقة واضحة».

استمرت الأقلام في انشغالها بالتسجيل: «استجابة عكسية بالنمو . .» . .

ثم أشار إلىٰ شريط متحرك حركة بطيئة، حيث يدخل رفٌّ مليءٌ بأنابيب الاختبار صندوقًا معدنيًا كبيرًا، بينما يخرج رفٌّ آخر ممتلئ، وفي الخلفية يسمع صوت منخفض لأزيز الماكينات، وأخبرهم المدير أنَّ رحلة الأنابيب تستغرق ثماني دقائق للعبور، ثماني دقائق من التعرض للأشعة السينية القوية، وهي أقصىٰ مدة يمكن أن تتحملها البويضة. وتموت بعض البويضات في هذه المرحلة، أمَّا ما يتبقَّىٰ من البويضات؛ فتنقسم الأقل قابلية للتأثر منها إلىٰ اثنتين، بينما تنقسم غالبيتها إلىٰ أربعة براعم، وبعضها إلىٰ

ثمانية، بعد ذلك تُعاد جميعها إلىٰ الحاضنات، حيث تبدأ البراعم في النمو؛ لتتعرض بعد يومين لصدمة تبريد مفاجئة، ثم تفحص تلك التي انقسمت إلىٰ اثنتين أو أربعة أو ثمانية والتي يكون كل منها قد نما بدوره؛ وبعد أن تبدأ بالنمو تُغرق في الكحول، حتىٰ تقترب من الموت، ثم تترك لإعطائها فرصة النمو؛ فتزهر ثانيةً، ثم يكرر ذلك بعد أن تبدأ في النمو، مرة بعد أخرىٰ حتىٰ إذا أصبح أي كبح أخر لها مميتًا تترك كي تنمو في سلام. في ذلك الوقت تكون البويضة الأصلية في طريقها إلىٰ أن تصبح من ثمانية إلىٰ ستة وتسعين جنينًا، ألا تتفق معي أنَّ هذا تحسن معجز للطبيعة؟

توائم متماثلة! ولكن ليس بأرقام تافهة كالاثنين والثلاثة، كما كان يحدث في أيام الحمل والولادة القديمة، حينما كان يمكن للبويضة أن تنقسم بالمصادفة، ولكن بالعشرات، في المرة الواحدة.

(العشرات . . .)، كرَّرها المدير فاتحًا ذراعيه، كأنَّما ينثر عليهم ذهبًا (العشرات . . .)، كان أحد الطلبة من الحُمق بمكان أن رفع يده متسائلًا عن مكمن المنفعة في ذلك، فالتفت إليه المدير بحدة قائلًا: «يا ولدي العزيز، ألا ترىٰ؟ ألا ترىٰ؟»، ورفع يده بينما ارتسم علىٰ وجهه تعبيرٌ وقورٌ: «إن (عملية بوكانوفيسكي) هي إحدىٰ أعظم وسائل تحقيق الاستقرار الاجتماعي».

نعم؛ إنَّها وسيلة رئيسة لتحقيق الاستقرار الاجتماعي؛ بإنتاج رجال ونساء معياريين في مجموعات موحدة، وحيث يُمكن لبويضة

واحدة مرَّت بـ(**عملية بوكانوفسكي**) أن تزود مصنعًا صغيرًا بالعمال.

«**ستة وتسعون من التوائم المتماثلة يشغلون ستًّا وتسعين ماكينة متماثلة!**». قالها وصوته يكاد يرتجف حماسَّة! «إنَّكم وللمرة الأولىٰ في التاريخ تعرفون وضعكم بالضبط». ثم ردد عليهم الشعار العالمي: (**المجتمع، والهُوية، والاستقرار**). كلمات عظيمة!

«ولو كان بالإمكان تنفيذ إجراء (**بوكانوفيسكي**) إلىٰ ما لا نهاية لحلت المشكلة كلها». لحُلَّت المشكلة بإنتاج معياري لسلالة (**جاما**)، وسلالة غير متغيرة من (**الدلتا**)، وسلالة موحدة من (**الإبسيلون**).

ملايين من التوائم المتماثلة، حيث يطبق أخيرًا مبدأ الإنتاج الضخم علىٰ علم الأحياء.

ثم هز رأسه آسفًا: «ولكن للأسف، لا يمكننا تنفيذ إجراء (**بوكانوفيسكي**) إلىٰ ما لا نهاية». ويبدو أنَّ رقم ستة وتسعين هو الحد الأقصىٰ، واثنين وسبعين هو المتوسط. وكان أفضل ما أمكنهم إنجازه هو صنع أكبر عدد ممكن من دفعات التوائم المتماثلة من نفس المبيض، ومن أمشاج تنتمي لنفس الذكر، (وإن لم يكن هذا هو المأمول)، ولكن حتىٰ هذا كان إنجازه صعبًا.

وذلك **لأنَّه** في الطبيعي يستغرق إنضاج مائتي بويضة ثلاثين عامًا، ولكن واجبنا هو تحقيق استقرار السكان الآن وهنا، فما الفائدة من تقطير التوائم علىٰ مدار ما يزيد عن ربع القرن؟ من الجليِّ أنَّه لا توجد أيُّ فائدة في هذا الأمر. ولكن (**تكنيك**

بودسناب) قد سرع كثيرًا من سير عملية الإنضاج؛ حيث يُمكنهم ضمان مائة وخمسين بويضة ناضجة علىٰ الأقل خلال عامين؛ إذن لو قمت بالإخصاب وتطبيق (عملية بوكانوفيسكي)، والضرب في اثنين وسبعين، فستحصل علىٰ متوسط حوالي: (أحد عشر ألفًا من الإخوة والأخوات)، في مائة وخمسين دفعة من التوائم المتماثلة، كلهم في حدود نفس الفئة العمرية التي لا تتجاوز السنتين.

«وفي الحالات الاستثنائية: يُمكننا أن نحمل مبيض واحد علىٰ إنتاج خمسة عشر ألفًا من الأفراد البالغين».

ثم أومأ إلىٰ شاب أشقر متورد البشرة، تصادف مروره في تلك اللحظة، هاتفًا: «سيد فوستر!».

اقترب الشاب متورد اللون، فقال له: «هل يمكنك أن تخبرنا الرقم القياسي الذي أنتجه مبيض من المبايض يا سيد فوستر؟».

أجاب فوستر بلا تردد: «ستة عشر ألفًا واثنا عشر في هذا المركز».

كان يتحدث بسرعة كبيرة، وعيناه الزرقاوان تلمعان بالحيوية، وبدا واضحًا استمتاعه بسرد الإحصائيات: «ستة عشر ألفًا، واثنتا عشرة في المائة، وتسعًا وثمانين دفعة من التوائم المتماثلة. ولكن هناك بالطبع من قدَّموا نتائج أفضل».

ثم استطرد مندفعًا: «في بعض المراكز الاستوائية كثيرًا ما أنتجت سنغافورة ستة عشر ألفًا وخمسمائة، بينما بلغت ممباسا

إنجاز السبعة عشر ألفًا، ولكن ذلك لأنَّ لديهم مميزات غير عادلة؛ وما عليك إلَّا أن ترىٰ كيف يستجيب مبيض زنجي للغدة النخامية! وهو أمر مدهش خاصَّةً عندما تكون مُعتادًا علىٰ العمل مع المواد الخام الأوروبية».

ثم ضحك قائلًا: «ومع ذلك؛ فإنَّنا نسعىٰ للتغلب عليهم لو أمكننا ذلك».

كان بريق المواجهة يلمع في عينيه، ولمحة التحدي واضحة في إيماءة ذقنه المرفوعة رغم ضحكه.

«إنَّني أعمل الآن علىٰ مبيض (**دلتا سالب**)، يبلغ عمره ثمانية عشر شهرًا فقط. وهناك ما يفوق اثني عشر ألفًا، وسبعمائة طفل بالفعل، إمَّا تم تفريغهم، أو بلغوا مرحلة الجنين، ولا يزالون يشتدون. ولسوف نتغلب عليهم».

هتف المدير، وهو يخبط علىٰ كتف السيد فوستر: «هذه هي الروح التي تعجبني، امضِ معنا، وأفد هؤلاء الفتية من خبرتك المعرفية».

ابتسم السيد فوستر متواضعًا، مجيبًا: «بكل سرور». وانطلق معهم.

في غرفة التعبئة كان كل شيء يدور في سرعة وثابة متناغمة، ونشاط منظم، وارتفعت في مصاعد صغيرة لوحات عليها أغشية بريتونية طازجة آتية من أنثىٰ الخنزير، مقطعة مسبقًا وفقًا للمقاس،

وقد أُتيَ بها من متجر الأعضاء الذي يقع في الطابق أسفل القبو؛ ليصدر صوت أزيز تتبعه تكة، ثم تنفتح أبواب المصعد؛ فلا يكون علىٰ من يرص الزجاجات سوىٰ أن يمد يده ليأخذ اللوحات، يدخلها، ثم يسويها، وقبل أن تبتعد تلك الزجاجات في مسارها عبر الشريط الذي لا يُرىٰ نهايته يُسمع صوت أزيز آخر، وتكة أخرىٰ، ثم تندفع لوحات أخرىٰ من الأغشية البريتونية من الأعماق، جاهزة لتنزلق داخل زجاجة أخرىٰ؛ لتأخذ مكانها علىٰ الشريط المتحرك في ذلك الموكب البطيء الذي لا ينتهي.

وقف العاملون في غرفة التعبئة بجوار شريط الرصِّ، وتقدَّمت المسيرة، وواحدة بعد الأخرىٰ نقلت البويضات من أنابيب الاختبار إلىٰ الحاويات الضخمة، وبخفة شُقت البطانة البريتونية، ووضعت التوتِّية (خلايا كروية صلبة، تنتج عن تقسيم بويضة مخصبة في مراحل نموها الأولىٰ) في مكانها، وصب المحلول الملحي، ومرَّت الزجاجات بالفعل، وجاء الدور علىٰ لاصقي البطاقات المميِّزة، ونقلت التفاصيل عن الوراثة، وتاريخ الإخصاب، والعضوية في (مجموعة بوكانوفيسكي) من أنبوبة الاختبار إلىٰ الزجاجة، فلم تعُد مجهولة، ولكن أصبح لها اسم وهُوية، وتمضي المسيرة بطيئة، من خلال فتحة في الجدار تمضي، وتستمر ببطءٍ إلىٰ غرفة تحديد الأقدار الاجتماعية.

قال السيد فوستر بحبور عند دخولهم: «هاكم ثمانية وثمانين مترًا مكعبًا من البطاقات المفهرسة». أضاف المدير: «تحتوي

علىٰ كل المعلومات المتعلقة بالموضوع».

«والتي تُحدَّث يوميًا».

«وتنسق في نهاية اليوم».

«وعلىٰ أساس ذلك يقوم بالحسابات».

أكمل السيد فوستر: «أفراد كثيرون يملكون كفاءات عالية».

«موزعون بأعداد معينة».

«**ولذلك**: لدينا المعدل المثالي للتفريغ (إخراج الأطفال من الزجاجات) في كل الأوقات».

«كما يعوض الفاقد غير المتوقع علىٰ الفور».

كرر السيد فوستر: «علىٰ الفور».

ثم أضاف ضاحكًا، وهو يهز رأسه بمرح: «لو علمتم مقدار الوقت الإضافي الذي اضطررت لإنفاقه بعد الزلزال الأخير في اليابان!».

«يرسل معينو الأقدار[١] بأرقامهم إلىٰ المخصبين».

«والذين يعطونهم الأجنة التي يطلبونها».

«وتأتي الزجاجات هنا؛ لتُعيِّن أقدارها بالتفصيل».

---

(١) هم الذين يحددون أي الأجنة ستكون (ألفا)، أو (بيتا)، أو سواهم من باقي السلالات الخمس، وأيضًا يحددون طبيعة العمل المستقبلي للجنين؛ ليبدأ التكييف من وجودهم في الزجاجة وقبل تفريغهم.

«بعد ذلك ترسل إلىٰ مخزن الأجنة في الأسفل».

«وهو حيث نذهب الآن».

ثم فتح السيد فوستر بابًا قادنا عبره إلىٰ سلالم، هبطنا منها إلىٰ القبو. ظلَّت درجة الحرارة استوائية، حيث هبطوا إلىٰ غبش يزداد كثافة كُلَّما تقدَّموا، وقد حميٰ بابان وممرٌ ذو اتجاهين القبوَ من أيٍّ ضوء مُتسلِّلٍ من النهار.

قال السيد فوستر، مداعبًا وهو يفتح بابًا آخر: «إنَّ الأجنة مثلها مثل الفيلم الفوتوغرافي، لا يمكنها أن تتحمل ضوءًا إلَّا الأحمر».

وفعلًا كان الجو المظلم الحار الرطب الذي دلف إليه الطلاب متبعين السيد فوستر مصبوغًا باللون القِرمزي، مثل الدغش الذي تراه العين مغمضة الجفن في شمس ظهيرة يوم صيفي، وقد لمعت الصفوف منتفخة الجوانب وراء بعضها بعضًا، وكذلك الطبقات المتراصة من الزجاجات بألوان ياقوت لا يُحصىٰ عدده، وبين ذلك الياقوت تتحرك أشباح حمراء خافتة لرجال ونساء عيونهم أرجوانية اللون، وتبدو عليهم كل أعراض مرض الذئبة الجلدي، وكان هدير الآلات واهتزازها يحرك الهواء قليلًا.

قال المدير الذي سأم من الكلام: «أعطهم بعض الأرقام يا سيد فوستر . . .».

وكان ممَّا يثير سعادة السيد فوستر أن يذكر لهم بعض الإحصائيات.

أشار إلىٰ الأعلىٰ فارتفعت عيون الطلبة إلىٰ السقف البعيد لاوين أعناقهم كالدجاج عندما يحتسي الماء، «لدينا مائتان وعشرون مترًا طولًا، ومائتان عرضًا، وعشرة أمتار ارتفاعًا، علىٰ ثلاثة مستويات من الرفوف: مستوىٰ الدور الأرضي، والقاعة الأولىٰ، والقاعة الثانية».

وقد تلاشىٰ في الظلام امتداد الشبكة المعدنية عنكبوتية الشكل التي كونتها الصالات التي تعلو بعضها بعضًا في جميع الاتجاهات، وبجانب هذه الشبكة انشغلت ثلاثة أشباح حمراء اللون في تفريغ زجاجات منتفخة ضيقة العنق، كالقماقم من علىٰ سُلَّم متحرك، وهو السُّلَّم الدوار القادم من غرفة تحديد الأقدار الاجتماعية.

وأيٌّ من الزجاجات يُمكن وضعها علىٰ إحدىٰ الرفوف من خمسة عشر رفًّا، وتلك الأرفف والتي لا يمكنك أن تراها هي عبارة عن ناقلات تتحرك بسرعة ثلاثة وثلاثين سنتيمترًا وثلث السنتيمتر في الساعة، وذلك علىٰ مدار مائتين وسبعة وستين يومًا تتحرك فيهم ثمانية أمتار يوميًا؛ أي: تتحرك ألفًا ومائة وستة وثلاثين مترًا في الكلية، وتنقسم تلك الحركة إلىٰ دورة للقبو علىٰ المستوىٰ الأرضي، وأخرىٰ في القاعة الأولىٰ، ونصف دورة في القاعة الثانية، أمَّا في غرفة التفريغ (حيث يفرَّغ الأطفال من الزجاجات) التي يطلع عليها ضوء النهار مائتين وسبعًا وستين مرة، فلها وجودٌ مستقل.

واختتم السيد فوستر حديثه ضاحكًا: «ولكنَّنا استطعنا إنجاز جزء ضخم جدًّا من العمل في فترة الاستراحة». كانت ضحكته ضحكة العارف المنتصر.

كرر المدير: «هذه هي الروح التي تعجبني ... دعنا نتجول ولتخبرهم عن كل شيء يا سيد فوستر».

وهكذا: أخبرهم علىٰ نحوٍ وافٍ عن الجنين النامي علىٰ مهد بريتوني، وجعلهم يتذوقون السائل بديل الدم الغني بالعناصر الذي يتغذون عليه، وشرح لهم لماذا يجب أن تحفز **بالبلاستين** (خلاصة مشيمة البقرة)، **وهرمون الثيروكسين**، وأخبرهم عن مستخرج الجسم الأصفر، كما أراهم الخراطيم المغروسة علىٰ مسافات متساوية كل اثني عشر مترًا، وذلك من السطح وحتىٰ ارتفاع ألفين وأربعين مترًا، كما تحدث عن الجرعات المتزايدة تدريجيًّا من الغدة النخامية، والتي تحقن خلال آخر ستة وتسعين مترًا في المسار، كما شرح لهم دورة الأمومة الصناعية المركبة في كل زجاجة علىٰ ارتفاع مائة واثني عشر مترًا، وأشار إلىٰ مخزون بديل الدم، ومضخة الطرد المركزي، والذي يعمل علىٰ استمرار حركة السائل عبر المشيمة، ودفعه خلال الرئة الصناعية، وعبر مرشح الفضلات. وأشار كذلك إلىٰ ميل الأجنة المزعج للإصابة بفقر الدم، والجرعات الضخمة من مستخرجات معدة الخنازير، وكبد أجنة الأحصنة التي يجب توفيرها بالتبعية.

كذلك لفت انتباههم إلىٰ الآلية البسيطة التي بواسطتها ترج كل

الأجنة بشكل متزامن في آخر مترين من كل مرحلة، والتي تتكون كل منها من ثمانية أمتار؛ وذلك ليعتادوا علىٰ الحركة، حيث ألمح إلىٰ خطورة ما يطلق عليه (**صدمة التفريغ**)، وعدد الاحتياطات المتخذة لتقليل هذه الصدمة الحرجة، بتدريب الجنين المعبأ في الزجاجة بالاهتزاز المدروس. وأخبرهم كذلك عن اختبار الجنس، والذي ينفذ في مستوىٰ ارتفاع مائتي مترٍ. وشرح لهم نظام التصنيف، حيث توضع **علامة** (T)؛ لتمييز الذكور، **وعلامة الدائرة**؛ لتمييز الإناث، أمَّا الإناث اللاتي تقرر أن تنتزع مبايضهن فتحمل زجاجاتهن **علامة الاستفهام** بلون أسود علىٰ خلفية بيضاء.

قال السيد فوستر: «وذلك بالطبع لأنَّه في الغالبية العظمىٰ من الحالات تكون الخصوبة مجرد مصدر للإزعاج، فيكفي لأغراضنا مبيض واحد فقط من كل ألف واثني عشر مبيضًا، ولكنَّنا نريد أن نحظىٰ باختيارات جيِّدةٍ، كما ينبغي بالطبع أن يكون لدينا هامش أمان كبير؛ **لذلك**: فإنَّنا نسمح لنسبة تبلغ (٣٠ %) من أجنة الإناث أن تنمو طبيعيًّا، وتُعطىٰ الأخريات جرعة من هرمون الذكورة كل (٢٤ مترًا) حتىٰ نهاية المسار؛ **والنتيجة**: **أنَّهم** يُخرجون من الزجاجات إناثًا دون مبايض، طبيعيات في هيكلهن -ولكنَّه اضطر للاعتراف باستثناء- فيما عدا ميل طفيف لديهنَّ لإنبات اللحىٰ. ولكنَّنا نضمن أنَّهُنَّ يكُنَّ عقيمات تمامًا، وهذا ينقلنا أخيرًا من المحاكاة الصاغرة للطبيعة إلىٰ رحاب عالم الإبداع الإنساني الأكثر إثارة».

وفرك يديه متحمسًا: «إنَّهم لم يكتفوا بالطبع بتفريخ الأجنة، فهذا عمل يمكن أن تقوم به أي بقرة! إنَّنا نحدد أقدار الأجنة ونكيفهم، نحن نفرغ أطفالنا؛ ليصبحوا أناسًا اجتماعيين، أو ليصبحوا من سلالة (الألفا) أو (الإبسيلون)، كي يصبحوا في المستقبل عمال صرف أو ... (كان سيقول أو يصبحوا حكام العالم المستقبليين، ولكنه استدرك قائلًا:)، أو يصبحوا مديري المفارخ».

قابل مدير مركز التفريخ مجاملته بابتسامة.

مرُّوا علىٰ ارتفاع الثلاثمائة وعشرين مترًا، عند الرف الحادي عشر، وكان هناك ميكانيكي شاب من سلالة (بيتا سالب) مشغولًا باستخدام مفك كهربائي، ومفتاح للصواميل علىٰ مضخة السائل المغذي بديل الدم الذي تحمله زجاجة مارة، ازداد هدير المحرك الكهربي قليلًا عندما لف الصواميل التي تتحرك إلىٰ أسفل مع كل لفة، لفها لفة أخيرة ضاغطًا عليها، ثم ألقىٰ نظرة علىٰ عداد الدوران إيذانًا بانتهاء عمله، نزل بعدها خطوتين؛ ليكرر نفس الإجراء مع المضخة التي تليها.

فسر لهم السيد فوستر ما يقوم به العامل قائلًا: «نقوم بتقليل عدد الدورات التي تحدث في الدقيقة، فيدور السائل المغذي بشكل أبطأ، وبذلك يستغرق فترة أطول للمرور عبر الرئة، وهكذا ينقص إمداد الجنين من الأكسجين، فلا يوجد شيء أكثر فعالية من نقص الأكسجين لإبقاء الجنين عليلًا». وفرك يديه مجددًا.

سأل طالب ساذج: «ولماذا ترغبون في إبقاء الجنين عليلًا؟».

صاح المدير قاطعًا برهة الصمت التي أعقبت السؤال: «حمار! ألم يخطر ببالك أنَّ جنين (سلالة الإبسيلون) يجب أن يحظىٰ ببيئة (الإبسيلون) مثلما يحظىٰ بصفات (الإبسيلون) الوراثية؟».

من الواضح أنَّ هذا لم يخطر له فعلًا، فقد غطاه الارتباك.

قال السيد فوستر: «كُلَّما انخفضت طبقة السلالة؛ قل الأكسجين. وأول ما يتأثَّر بنقص الأكسجين من الأعضاء هو المخ، ثم الهيكل العظمي، وينتج إمداد الجنين بـ(٧٠%) فقط من احتياجه الطبيعي من الأكسجين أقزامًا، أمَّا إنقاص النسبة عن ذلك، فيخرج لنا مسوخًا بلا عيون. وهؤلاء لا فائدة فيهم علىٰ الإطلاق».

ثم اتخذ صوته نبرة من يأتمن مستمعيه علىٰ سر قائلًا بلهفة: «ولو أنَّهم تمكَّنُوا من اكتشاف تقنية تقصر من الوقت الذي تستغرقه دورة النضج، فسوف يكون ذلك انتصارًا عظيمًا، ونعمة كبرىٰ نقدمها للمجتمع».

«تأملوا في حيوان كالحصان». فأطاعوه متأملين.

«إنَّه يبلغ في سنِّ السادسة، ويبلغ الفيل في العاشرة، بينما لا ينضج الإنسان جنسيًّا حتىٰ سن الثالثة عشر، بل لا يتمُّ بلوغه قبل العشرين، وهنا بالطبع نجد أنَّ الذكاء البشري هو ثمرة هذا التأخر في البلوغ».

وتابع السيد فوستر بإنصاف شديد: «ولكن (سلالة الإبسيلون) لا تحتاج للذكاء البشري».

هم لم يحتاجوه، ولم يحصلوا عليه: «ولكن رغم أنَّ عقل (الإبسيلون) ينضج في العاشرة؛ إلَّا أنَّ جسده لا يكون صالحًا للعمل قبل سنِّ الثامنة عشر ... سنوات طويلة مهدرة من عدم النضج غير مجدية، فلو أمكن التسريع من عملية النمو حتىٰ تكون في سرعة نمو الأبقار مثلًا، فسيكون هذا مكسبًا هائلًا للمجتمع».

غمغم الطلبة مرددين وراءه: «هائل!». وقد انتقلت عدوىٰ حماسته إليهم.

ثم تطرق لأمور تقنية؛ فتحدَّث عن اختلال تنظيم الغدد الصماء، والتي تجعل الذكور ينمون ببطء شديد، وافترض فرضية ترجع سبب ذلك إلىٰ وجود طفرة جرثومية، وتساءل هل يُمكن إبطال تأثير هذه الطفرة الجرثومية؟ وهل يُمكن إعادة جنين (الإبسيلون) إلىٰ الحالة الطبيعية للأبقار والكلاب بتقنية مناسبة؟

كانت تلك هي المشكلة، ولكنَّها كانت في طريقها للحل.

«كان (بيلكنتون) في (ممباسا) قد أنتج أفرادًا يبلغون جنسيًّا في سن الرابعة، وينضجون تمامًا في السادسة والنصف، وهذا انتصار علمي كبير، ولكنَّه بلا فائدة اجتماعية، فالرجال والنساء البالغون في عمر السادسة أكثر غباءً من أن يقوموا بعمل (الإبسيلون) علىٰ الأقل. وكانت العملية لا تدرج فيها، إمَّا كل شيء، أو لا شيء، أي: إنَّك إمَّا أن تفشل في التعديل تمامًا، أو تذهب بالتعديل إلىٰ

منتهاه، ولازالوا يحاولون إيجاد الحلِّ الوسط بين البلوغ في سن العشرين، والبلوغ في سن السادسة بلا نجاح حتىٰ الآن». قالها السيد فوستر مُتنهِّدًا، وهو يهزُّ رأسه.

مضىٰ بهم تجوالهم في ذلك الغسق القِرمزي إلىٰ منطقة ارتفاع المائة وسبعين مترًا عند الرف التاسع، ومنذ تلك النقطة فصاعدًا تحول الصف لِمَا يُشبه النفق، وتابعت الزجاجات رحلتها فيه تقطعها من حين لآخر فتحات يبلغ اتساعها مترين أو ثلاثة أمتار.

أشار السيد فوستر إلىٰ أنفاق حارة تتبادل الأماكن مع أنفاق باردة قائلًا: «تكييف الحرارة».

هنا يقترن بالبرودة إحساس المشقة في عملية تكييف الأجنة، ونحن نقوم بذلك بواسطة أشعة سينية قوية؛ بذلك وبحلول الوقت الذي تخرج فيه الأجنة من الزجاجات: يكون قد غرس فيهم الخوف من البرودة، وهؤلاء هم الذين قدر لهم الهجرة إلىٰ الأماكن الاستوائية، ليعملوا في المناجم ومغازل الحرير، فيما بعد سيدربون علىٰ أن تقر عقولهم حكم أجسادهم، «نحن نكيفهم علىٰ الانتعاش في الحرارة، وسيدربهم زملاؤنا بالطابق الأعلىٰ علىٰ أن يحبوا ذلك».

وهنا تدخل المدير واعظًا: «وهذا هو سر السعادة والفضيلة: أن تحب ما يجب عليك عمله. وهذا هو ما نهدف إليه بكل ما نقوم به من تكييف: أن نجعل الناس يحبونَ قدرهم الاجتماعي المقهورين عليه».

وقفت ممرضة في فجوة بين نفقين تغرس بلطف محقنًا طويلًا ورفيعًا في المحتويات الهلامية التي تحويها زجاجة من الزجاجات المارة، بينما وقف الطلبة ومرشدوهم يراقبونها لبرهة صامتين.

قال السيد فوستر للممرضة بعدما سحبت المحقن واعتدلت واقفة: «حسنًا يا لينينا».

جفلت الفتاة، والتفتت نحو مُحدِّثها، كان يُمكن للمرء أن يرىٰ أنَّها مازالت مليحة بشكل ملفت رغم إصابتها بالذئبة، ورغم لون عينيها الأرجوانيتين.

«هنري!». ابتسمت، فومضت أسنانها مرجانية اللون.

تمتم المدير: «بديع . . . بديع». وربت علىٰ كتفها، فأجابته بابتسامة مقدرة لمكانته.

سأل السيد فوستر في نبرة حرص علىٰ أن تكون مهنيةً تمامًا: «ما الذي أعطيتيهم إياه؟».

أجابت: «أعطيتهم التيفود، ومرض النوم المعتادَيْن».

قال السيد فوستر للطلبة موضحًا: «يبدأ تطعيم عمال المناطق الاستوائية عند المتر مائة وخمسين والأجنة مازالت تحتفظ بخياشيمها؛ فنحن نقوي مناعة الجنين وهو ما زال بعد في المرحلة السمكية من الأمراض البشرية، التي قد يتعرض لها مستقبلًا».

ثم التفت مرة أخرىٰ إلىٰ لينينا، وقال لها: «الخامسة إلَّا

الربع! هذا العصر، علىٰ السطح كالمعتاد».

مرة أخرىٰ قال المدير: «بديع». مربتًا عليها للمرة الأخيرة قبل أن يمضي ليلحق بالآخرين.

علىٰ الرف العاشر تراصت صفوف تحمل الجيل القادم من العمال الكيميائيين، يمرنون علىٰ تحمل الرصاص والصودا الكاوية والقار والكلور. كانت الدفعة الأولىٰ من ضمن دفعتين تتكوَّن كل منهما من مائتين وخمسين جنينًا معدلين جينيًا؛ ليصبحوا مهندسي صواريخ طائرات تعبر حاجز الألف ومائة متر متراصين علىٰ الصف الثالث، وقد حافظت آلية معينة علىٰ حاوياتهم في حالة دوران مستمرة، وذلك (لتحسين حس التوازن لديهم). كما فسر السيد فوستر.

«إنَّ إجراء إصلاحات خارج صاروخ في الهواء عملية حساسة، ونحن نرخي من سرعة الدورة عندما يكونون في الطريق لأعلىٰ، فيصبحوا شبه محرومين من السائل المغذي، ونضاعفها عندما يكونون مقلوبين رأسًا علىٰ عقب، فيتعلمون الربط بين حال الانقلاب والشعور بالرفاه؛ بل إنَّهم لا يكونون سعداء حقًّا في الواقع إلَّا عندما يقفون علىٰ رؤوسهم».

واستطرد السيد فوستر: «والآن! أودُّ أن أعرض عليكم تكييفًا مثيرًا للاهتمام لسلالة (الألفا) موجب المتفوقة ذهنيًّا، لدينا دفعة ضخمة منهم في الصف الخامس، علىٰ مستوىٰ القاعة الأولىٰ».

ثم نادىٰ علىٰ فتيين كانا قد بدءَا الهبوط إلىٰ الطابق الأرضي،

وفسر للحاضرين: «إنَّهم علىٰ مستوىٰ ارتفاع التسعمائة متر، ولا يُمكنك أن تقوم بأي تكييف ذهني حقيقي قبل أن تفقد الأجنة ذيولها. والآن اتبعوني».

لكن المدير ألقىٰ نظرة علىٰ ساعته وقال: «الثالثة إلَّا عشر دقائق، لا وقت لدينا لمشاهدة الأجنة المقدرة للأعمال الذهنية للأسف؛ يجب أن نذهب إلىٰ الحضَّانات قبل أن ينهض الأطفال من قيلولتهم».

ثبط هذا السيد فوستر، ولكنَّه سألهم ملتمسًا: «علىٰ الأقل ألقوا نظرة علىٰ غرفة التفريغ».

ابتسم المدير برحابة صدر قائلًا: «حسنًا إذن، ولكن نظرة واحدة فقط».

الفصل الثاني

تخلَّف السيد فوستر في غرفة التفريخ، بينما استقلَّ مدير المركز وطلبته أقرب مصعد ليرتفع بهم إلىٰ الطابق الخامس، إلىٰ قاعة كتب علىٰ لوحة مدخلها:

حضانات الأطفال الرضع، غرف التكييف البافلوفي الجديد.

فتح المدير بابًا؛ ليجدوا أنفسهم في قاعة واسعة خالية، مشمسة، شديد الإضاءة، فقد كان الحائط الجنوبي للقاعة عبارة عن نافذة ضخمة، كانت الممرضات المرتديات زِيًّا مُوحَّدًا أبيض اللون يتكوَّن من سُترة وبنطال، من نسيج هو مزيج من الكتان والفسكوز، واللَّائي اختفت شعورهنَّ تحت قبعات بيضاء لأغراض التعقيم، مشغولات بوضع آنية الورود في صف طويل علىٰ الأرض، كانت آنية كبيرة تزاحمت فيها الورود، آلاف من أوراق الورد المتفتحة الناعمة كالحرير، كخدود الملائكة الصغار، ولم تقتصر ألوانها علىٰ اللون الوردي المميز لهذه الكائنات البديعة، بل كانت تحت هذا الضوء الساطع تماثل جمعًا من خدود الآريين المتوردة، والصينيين الوضيئة، وكذلك المكسيكيين، وكانت هناك الخدود التي تعلوها الحمرة الناتجة عن النفخ في أبواق سماوية، وكانت

هناك أيضًا الوجنات الشاحبة، كالموت أو كلون تمثال الرخام الذي يخلد صاحبه بعد الموت.

وقفت الممرضات منتبهات عند دخول المدير.

أمرهم المدير بحِدَّة: «رُصُّوا الكتب».

فأطعنه في الحال صامتاتٍ، وتراصَّت الكتب بانتظام بين آنية الورد، كتب للأطفال في سِنِّ الحضانة، مفتوحة بإغراء عمدًا علىٰ صفحات تحمل صورًا زاهيةً ملفتة لحيوانات أو أسماك أو طيور.

«والآن أحضروا الأطفال».

هرعْنَ خارج الغرفة، وعُدنَ بعد دقيقة أو نحوها، وكُلٌّ منهُنَّ تدفع عربةً تشبه عربة النادل، يحمل كُلَّ رفٍّ من رفوفها الأربعة أطفالا في عمر الثمانية شهور متطابقين تمامًا، كان بيِّنًا أنَّهم مجموعة من (**مجموعات بوكانوفيسكي**)، وكانوا يرتدون جميعًا اللون الكاكي، بما أنَّهم كانوا من (**سلالة دلتا**).

«ضعوهم علىٰ الأرض».

فأُخليَ الأطفال من أماكنهم، وأنزلوا إلىٰ الأرض.

«والآن: أديروهم؛ ليروا الزهور والكتب».

سكن الأطفال آنَ أداروهم، ثم بدأوا يحْبُون نحو تلك المجموعات من الألوان اللامعة، تلك الأشكال شديدة البهجة والتألق الجاثمة علىٰ الصفحات البيضاء، ومع اقترابهم كسفت الشمس كسوفًا عابرًا وراء سحابة مارة، فإذا بالورود تكاد تشتعل

كأنَّما بجيشان داخلي، واكتسبت صفحات الكتاب اللَّامعة أهميةً جديدة وعميقة، وكأنَّما عدسة مصور قد وضعتها في بؤرة الاهتمام مقربًا إيَّاها للمشاهد، ومُسلِّطًا عليها الضوء، فتعالت من صف الأطفال صيحات الإثارة والغرغرة والزقزقة، وكل تلك الأصوات السعيدة التي يطلقها الرضع تعبيرًا عن حبورهم وحماستهم، وهم يحبون نحو الكتب.

فلمَّا رأىٰ المدير ذلك؛ فرك كفيه، وقال: «عظيم! لم يكن الأمر ليبدو أفضل ممَّا هو عليه الآن لو كنا خططنا له!».

وصل أسرع الرُّضَّع حبْوًا إلىٰ أهدافهم، وامتدت أكف صغيرة مهتزة تلتقط الورود التي زاد جمالها بجمال الإضاءة تفرك أوراقها، وتغضن صفحات الكتب اللامعة. انتظر المدير ريثما وصل جميع الأطفال وانشغلوا سعداء بالغنائم التي بأيديهم، ثم قال: «راقبوا بدقة». ورفع يده معطيًا الإشارة.

ضغطت رئيسة الممرضات التي كانت تقف منتظرة بجانب لوحة مفاتيح كهربية في آخر القاعة علىٰ مقبض صغير، وإذا بانفجار عنيف يحدث، وارتفع صوت سرينة مزعجة بشكل تصاعدي آخذ في الازدياد، وعلت أصوات صافرات الإنذار بشكل جنوني.

جفل الأطفال وبدأوا في الصراخ، والتوت قسماتهم بتعبير الرعب.

وصاحَ المدير بأعلىٰ صوته؛ فقد كانت الضوضاء مرتفعة

لدرجة الصمم: «والآن: ننتقل لمرحلة تثبيت الدرس في عقولهم بصدمة كهربية خفيفة».

وأشار بيده مرة أخرىٰ؛ فضغطت رئيسة الممرضات علىٰ مقبض آخر، وفي الحال تغيرت نبرة صراخ الأطفال، كان هناك شيئًا يائسًا يكاد يكون فاقدًا للعقل في الصراخ المتشنج المتقطع الصادر منهم، وقد انتفضت أجسادهم الصغيرة وتصلبت، وأخذت أطرافهم تنقبض وتتقلص، وكأنَّما شُدت إلىٰ أسلاك غير منظورة تتجاذبها.

صاح المدير: «يُمكننا أن نكهرب هذا الجزء من الأرضية كله، ولكن هذا يكفي». ثم أومأ إلىٰ الممرضة.

توقفت أصوات الانفجارات وصليل الأجراس، وخفتت صافرات الإنذار تدريجيًا؛ وبدأت الأجساد المنتفضة المتشنجة في الاسترخاء، وخفت النشيج والشهيق الهستيري؛ ليعود لصوت الصراخ الطبيعي لطفل مرعوب.

«والآن اعرضْنَ عليهم الورد، والكتب مرة أخرىٰ».

أطعنه علىٰ الفور، ولكن هذه المرة عند اقتراب الورود، وبمجرد النظر إلىٰ تلك الصور الزاهية للقطة بوسي، والديك الصياح، وبا با الخروف الأسود، الشخصية الكرتونية الشهيرة، انكمش الأطفال في رعب، وازداد صوت بكائهم.

هتف المدير منتصرًا: «ارصدوا ... ارصدوا».

لقد أصبحت الكتب والضوضاء العالية، والورود والصدمات الكهربية ثنائيات مترافقة في عقل الطفل، وبعد إعادة هذا الدرس لمائتي مرة، أو دروس أخرىٰ مشابهة تصبح تلك الثنائيات متشابكة تشابكًا لا فكاك منه في عقول أولئك الصغار. وما جمعه الإنسان لا تفرقه الطبيعة.

«ولسوف يكبرون بما اصطلح علماء النفس علىٰ تسميته: (كره غريزي) للكتب والورود، في انعكاسات شرطية لا يمكن تغييرها، ولسوف يكونون آمنين بمعزل عن الكتب والنباتات طيلة عمرهم».

ثم التفت إلىٰ الممرضات وأمرهن: «أعيدوهم لأماكنهم».

شُحن الأطفال المرتدون للزي الكاكي، وهم لازالوا يصيحون في عرباتهم التي تشبه عربات التقديم التي يجرها السقاة في المطاعم، تاركين وراءهم رائحة اللبن المختمر، والصمت المحمود.

هنا **رفع أحد الطلبة يده متسائلًا**: فرغم أنَّه يرىٰ الحكمة وراء عدم إضاعة وقت المجتمع في غرس حب القراءة في الطبقات الدنيا، وحكمة عدم المخاطرة بإطلاعهم علىٰ شيء غير مرغوب يمكن أن يفصل الاشتراط الحادث بين بعض الانعكاسات المغروسة فيهم؛ إلَّا أنَّه لم يستطع أن يتفهم الجزئية المتعلقة بالورود، ففيم تجشم كل هذا العناء لضمان استحالة حب أحد أفراد **(سلالة دلتا)** للزهور؟

بصبر شرح له المدير أنَّ هناك سياسة اقتصادية عُليا وراء جعل

الأطفال يصرخون عند رؤية الورود، وأخبره أنَّه لم يكد يمضي قرابة القرن منذ كانت سلالات **(الجاما والدلتا)**، وحتىٰ **(الإبسيلون)** تدرب علىٰ حب الزهور خاصةً، والطبيعة البرية عامةً، كانت الفكرة في جعلهم يحبون التنزه في الريف عند كل فرصة ممكنة، وبذلك يضطرونهم لاستهلاك وسائل النقل.

فسأل الطالب: «ألم يستهلكوا وسائل النقل إذن؟».

أجابه مدير المركز: «نعم؛ استهلكوا الكثير من وسائل النقل، ولكنَّهم لم يفعلوا أي شيء آخر».

إنَّ زهور الربيع والمناظر الطبيعية لها عيب واحد خطير: أنَّها مجانية، وحب الطبيعة لا يسهم في تشغيل المصانع، وهكذا تقرَّر محو حب الطبيعة من الطبقات الدنيا علىٰ الأقل، محو حب الطبيعة دون محو الميل نحو استهلاك وسائل النقل، وذلك -بالطبع- لضرورة استمرارهم في الذهاب إلىٰ الريف رغم كراهيتهم له؛ لتصبح المشكلة هي إيجاد سببٍ أصوب من ناحية الحس الاقتصادي لاستهلاك وسائل النقل بدلًا من مجرد حب زهور الربيع والمناظر الطبيعية، وقد وجد السبب الذي يحل المشكلة علىٰ نحو وافٍ.

واختتم المدير حديثه قائلًا: «نحن نُهيِّئ الجموع لأمرين متزامنين: كراهية الريف، ومحبة كل الرياضات الريفية، وفي نفس الوقت نعمل علىٰ أنَّ تتضمن ممارسة تلك الرياضات الريفية استخدام أجهزة معقدة، فنضمن بذلك استهلاكهم لمواد مصنعة إلىٰ

جانب استهلاك المواصلات، ولذلك نستخدم هذه الصدمات الكهربية.

«فهمتُ!». قالها الطالب، ثم سكت مُتأمِّلًا مُعجَبًا.

بعد هنيهة سكون تنحنح المدير قائلًا: «في يوم من الأيام، عندما كان فورد لا يزال علىٰ الأرض؛ كان هناك صبي اسمه روبين رابينوفيتش، ابنٌ لأبوين يتحدثان البولندية ....

ثم قاطع المدير نفسه سائلًا إيَّاهم: «تعلمون ما هي اللغة البولندية! أليس كذلك؟».

فردُّوا: «لغة ميتة».

وأضاف طالبٌ، متطفلًا مستعرضًا معلوماته: «مثل: الفرنسية، والألمانية».

فسأل المدير مُقرِّرًا إيَّاهم: «ومثل كلمة الوالد؟».

فساد صمت غير مريح، واحمرَّ وجه بعض الطلاب خجلًا، فهم لم يتعلموا بعد التفريق بين الحد الفاصل بين الخيال الشعبي والعلم النقي، وهو حد دقيق، وإن كان عظيم الفارق.

واستجمع أحدهم شجاعته أخيرًا ورفع يده: «كان البشر قديمًا ...».

(تردد واحمر وجهه ...).

ثم اندفع قائلًا: «كانوا يولدون وكان لهم والدين».

أومأ المدير موافقًا: «هذا صحيحٌ تمامًا».

«وعندما كانت الأطفال تُفرَّغ . . .».

فصحح له المدير المصطلح: «تُولد . . .».

استطرد الطالب: «حسنًا! عندها يكونان هما الوالدين، أعني: ليس الأطفال بالطبع، ولكن الآخرون هم من يكونون الوالدين». كان الفتىٰ المسكين غارقًا في الحيرة والخلط.

لخَّص المدير الأمر قائلًا: «باختصار: كان الوالدان هما الأب والأم».

وهكذا صُدم الطلبة، فيما ظنُّوه خيالًا شعبيًا رخيصًا فإذا به علم حقيقي؛ فأطرقوا صامتين.

كرر عاليًا مثبتًا ومنتصرًا للعلم: «الأم». ثم قال بوقار وهو يتراجع علىٰ كرسيه متكئًا: «هذه حقائق مزعجة، أعلم ذلك، ولكن هكذا هي الحقائق التاريخية -غالبًا- ما تكون مزعجة».

ثم عاد إلىٰ سيرة روبين الصغير الذي ترك أباه وأمه -يا للصدمتين!- المذياع مفتوحٌ في غرفته ليلةً ما بمحض الصدفة، ويجب أن تعلموا أنَّه في تلك الأيام البدائية التي كان يولد فيها الأطفال من والدين كان أولئك الآباء هم من يُنشِّئونهم أيضًا، وليست مراكز الدولة للتكييف، وبينما كان الطفل نائمًا؛ ظهر بث لبرنامج من لندن، وفي اليوم التالي ولدهشة (الصدمتين)، (عند سماع ذلك الوصف التهكمي تبادل بعض الطلاب الأكثر جرأة الابتسام الساخر)، استيقظ روبين الصغير مرددًا لهم محاضرة طويلة لذلك الكاتب

القديم العجيب (**جورج برنارد شو**) كلمة بكلمة، وهو أحد الكتاب القلائل الذين سمح لأعمالهم أن تصل إلينا، كان (**جورج برنارد شو**) يتحدَّث في هذه المحاضرة عن عبقريته، كما ورد إلينا عبر تراث موثق بدقة.

كانت تلك المحاضرة بالنسبة لكذا وكيت (والدا روبين الصغير) غير مفهومة مطلقًا بالطبع، وظنًّا منهم أنَّ طفلهم قد جُنَّ فجأةً أرسلوا في استدعاء طبيب، والذي كان يفهم الإنجليزية لحُسن الحظ، وميَّز الخطاب الذي أذاعه شو الليلة الفائتة، ومدركًا لأهمية الأمر أرسل الطبيب خطابًا للدوريات الطبية يخبرهم فيه عما حدث.

«لقد اكتشِف مبدأ التعليم أثناء النوم «ثم صمت المدير لحظة ليسمح للطلبة أن يستوعبوا الكلام كاملًا ويقدروا أهميته»، (اكتشف المبدأ، ولكن مرَّت سنوات طوال قبل أن يطبق بشكل مفيد).

«لقد وقعت حادثة روبين الصغير بعد ثلاثة وعشرين عامًا من نزول نموذج (T) الأول لفورد إلىٰ السوق»، وأشار المدير بيده بعلامة حرف (T)[١] علىٰ بطنه، فاتبعه كل الطلبة مقلدين إشارته في توقير.

---

(١) حرف (T) هو اختصار لنموذج السيارة (T) التي صنعها هنري فورد؛ للاستهلاك علىٰ نطاق واسع للمرة الأولىٰ في أول خط إنتاج، وتجميع ضخم لا يعتمد علىٰ العمل اليدوي.

«ومع ذلك». كتب الطلبة وراءه بحماس قوي: «استخدم التعليم أثناء النوم رسميًا للمرة الأولىٰ في (عام: ٢١٤ بعد فورد)، أمَّا لماذا لم يحدث ذلك في تاريخ أقرب؛ **فيعود لسببين:**

أولًا: كانت التجارب الأولىٰ تسير في مسار خاطئ، فقد كانوا يظنون أنَّ التعليم أثناء النوم يصلح كأداة للتعليم الذهني (طفل صغير ينام علىٰ شِقِّه الأيمن، حيث ذراعه الأيمن ممدد، ويده اليمنىٰ متدلية من علىٰ حافة الفراش، ومن خلال صندوق يخرج صوت خفيض يتحدث بنعومة: «النيل هو أطول أنهار أفريقيا، وثاني أطول أنهار العالم، ورغم كونه أقصر من نهر المسيسيبي؛ إلَّا أنَّه يحتل المكانة الأولىٰ في طول حوضه الذي يقع علىٰ درجة (٣٥) من خطوط العرض».

ثم يأتي الصباح؛ ليسأل شخص ما: «تومي هل تعلم ما هي أطول أنهار أفريقيا؟».

فيُجيبه تومي بهزة من رأسه نافيًا، فيُعاود سؤاله: «ولكن ألا تتذكر شيئًا يبدأ هكذا: النيل هو . . .».

فيتلو تومي سريعًا: «النيل هو أطول أنهار أفريقيا، وثاني أطول أنهار العالم، ورغم كونه أقصر من . . .».

فيقول الشخص: «حسنًا، فما هي أطول أنهار أفريقيا إذن؟».

فتستقبل سؤاله عينان خاويتان وإجابة: «لا أعلم».

فيعاود الشخص: «ولكن ماذا عن النيل يا تومي؟».

فيجيب تومي: «النيل هو أطول أنهار أفريقيا، وثاني . . .».

«إذن؛ أي الأنهار هي الأطول يا تومي؟».

فينفجر تومي في البكاء منتحبًا: «لا أدري!».

أظهر المدير رأيه: «واضحٌ أنَّ هذا الانتحاب هو ما أقعد المحققين الأوائل عن إجراء المزيد من التجارب حول الموضوع، ولم تُجرَ محاولات أخرىٰ لتعليم الأطفال طول نهر النيل أثناء نومهم، وهذا صواب؛ فلا يمكنك أن تتعلم عِلمًا ما وأنت لا تعرف ما الذي يتحدث عنه هذا العلم في المقام الأول».

ثم قال المدير وهو يقود الطريق إلىٰ الباب وخلفه الطلبة يكتبون بحماس ملتهب في طريقهم إلىٰ المصعد: «بينما لو أنَّهم بدأوا من التربية الأخلاقية، تلك التربية التي لا يجب أن تكون أبدًا تحت أي ظرف عقلانية . . .».

«الصمت .... الصمت!». انبعث صوت هامس من مكبر للصوت عندما خطوا إلىٰ الطابق الرابع عشر، فكررت أفواه الأبواق المبثوثة علىٰ مسافات عند رأس كل ممر دون كلل: «الصمت .... الصمت». فانبعث الطلبة، بل والمدير نفسه يمشون علىٰ أطراف أصابعهم دون وعي. كانوا من (الألفا) بالطبع، لكن حتىٰ (سلالة الألفا) تم تكييفها جيدًا. «الصمت ... الصمت».

وقد حمل الهواء نفسه بالطابق الرابع عشر إحساسًا بالتأهب والترقب الصريح. حملتهم خمسون ياردة من المشي المحترز علىٰ

أطراف الأصابع إلىٰ بابٍ فتحه المدير بحذر، عبروه إلىٰ الغسق المخيم علىٰ مهجع مغلق، حيث تراص ثمانين مهدًا بجانب الحائط، كان يتردد في المكان صوت أنفاس خفيفة منتظمة، وغمغمة مستمرة كأنَّما هناك أصوات خفيضة تهمس من بعيد بلا توقف.

وقفت ممرضة عند دخولهم، متخذة وضع الانتباه العسكري أمام المدير، الذي سألها: «ما الدرس اليوم؟».

أجابته: «لقد درسنا الجنس لمرحلة التعليم الأساسي لأول أربعين دقيقة، وانتقلنا الآن إلىٰ موضوع الوعي للمرحلة الأساسية أيضًا».

سار المدير متباطئًا لآخر صف المهود، حيث رقد ثمانون من الصبيان والبنات متوردي الوجوه بتأثير النوم، يتنفسون بنعومة مسترخين، ومن أسفل كل وسادة كان يعلو صوت همسات، توقف المدير، وانحنىٰ علىٰ أحد المهود منصتًا بإمعان.

«هل قلتِ الوعي للمرحلة الأساسية؟ دعينا نعيد سماعه بنبرة أعلىٰ من خلال البوق إذن».

ومن أقصىٰ القاعة، حيث يخرج من الحائط مكبرًا للصوت توجه المدير وضغط علىٰ مفتاح، فانبعث صوتٌ ناعم، لكن نبراته شديدة الوضوح يقول: «... الكل يرتدي الأخضر ويرتدي الأطفال من سلالة **(دلتا)** اللون الكاكي، آه ... كلا ... أنا لا أريد أن ألعب مع أطفال **(دلتا)**، أما **(الإبسيلون)** فهم الأكثر

سوءًا، وهم أغبىٰ من أن يستطيعوا القراءة والكتابة، إلىٰ جانب أنَّهم يرتدون اللون الأسود، وهو لون فظيع، إنَّني سعيد جدًّا؛ لأنَّني (بيتا)».

كانت هناك سكتة، ثم بدأ الصوت مرة أخرىٰ.

«يرتدي أطفال (الألفا) اللون الرمادي، وهم يعملون بجد أكثر ممَّا نفعل؛ وذلك لأنَّهم غاية في البراعة، وأنا سعيد جدًّا لكوني (بيتا)؛ لأنَّني لا أبذل جهدًا مماثلًا، ومع هذا: فنحن أفضل كثيرًا من سلالات (الجاما) و(الدلتا)، فـ(الجاما) أغبياء، وكلهم يرتدون اللون الأخضر، بينما يرتدي أطفال (دلتا) اللون الكاكي، آه ... كلا ... أنا لا أريد أن ألعب مع أطفال (دلتا)، أما (الإبسيلون) فهم أكثر سوءًا، وهم أغبىٰ من أن يستطيعوا ...».

أعاد المدير المفتاح إلىٰ مكانه؛ فسكت الصوت، إلَّا من شبحه الخافت الذي استمر في التمتمة من تحت الثمانين وسادة.

«سوف يكرر لهم هذا الكلام أربعين أو خمسين مرة أخرىٰ قبل استيقاظهم، ثم مرة ثانية يوم الخميس، وأخرىٰ يوم السبت، وهكذا مائة وعشرون مرة ثلاثة أيام في الأسبوع لمدة ثلاثة شهور، ينتقلون بعدها إلىٰ دروس أكثر تقدمًا».

إنَّ مزيجًا متضافرًا من الورود والصدمات الكهربائية، واللون الكاكي المميز لسلالة (دلتا)، ونفحة من صمغ نبات الكلخ كريه الطعم والرائحة هو منهجية تعليم لا بأس بها قبل أن يبدأ الطفل في الكلام، لكن التكييف غير الكلامي فظ وإجمالي، ولا يمكنه أن

يغرس الفروق الدقيقة، ولا يطبع في الذهن الاتجاهات السلوكية المعقدة، فهذا لا يتم دون استخدام الكلام، ولكنَّه لا بُدَّ أن يكون كلام دون منطق، أي: باختصار عن طريق التعليم أثناء النوم.

«تلك هي أعظم قوة أخلاقية واجتماعية علىٰ مدار التاريخ».

تلقف الطلبة الكلام من فم الحصان مباشرةً إلىٰ دفاترهم.

مرة أخرىٰ لمس المدير المفتاح؛ فانبعث الصوت الناعم المؤثر الذي لا يكل يقول: «... غاية في البراعة، وأنا سعيد للغاية لكوني بيتا؛ لأنَّني ...». هي ليست كقطرات الماء، رغم أنَّ قطرات الماء المتتابعة يمكنها أن تثقب أكثر الأحجار صلابة، ولكنَّها كقطرات ختم الشمع، فهي قطرات تلحم وتغلف بطبقة صلبة وتدمج نفسها بما تقع عليه، حتىٰ تصير الصخرة في النهاية كتلة حمراء لزجة.

«حتىٰ يصبح عقل الطفل في النهاية مُكَوِّنًا من هذه الإيعازات، وتصبح محصلة هذه الإيعازات هي عقل الطفل، ليس عقل الطفل فقط، ولكن عقله كبالغ أيضًا طوال عمره، هذا العقل الذي يحكم ويقرر ويرغب مصنوع من هذه الإيعازات، وهذه الإيعازات هي صنيعتنا». انفعل المدير في غمرة شعوره بالانتصار، حتىٰ علا صوته بما يشبه الصياح: «صنيعة الدولة». وضرب بقبضته سطح أقرب طاولة، «ويترتب علىٰ ذلك ...». قاطعه صوت ما جعله يلتفت هاتفًا بنبرة مغايرة: «بحق فورد! لقد أيقظت الأطفال!».

الفصل الثالث

كان ذلك أوان اللعب في الخارج في الحديقة، وتحت أشعة شمس يونيه الدافئة أخذ يركض ستمائة أو سبعمائة من الأولاد العرايا صارخين بصخب في المروج أو لاعبين بالكرة، أو جاثمين بين شجيرات الورد في مجموعات صغيرة هادئة من اثنين أو ثلاثة، كانت الورود متفتحة، بينما تناجىٰ كروانان علىٰ أجمة قريبة، وتعالىٰ صوت غير متناغم لوقواق من بين أشجار الليمون، كان الجو في مجمله خاملًا نعسانًا بطنين النحل وهدير الطائرات المروحية.

ووقف المدير وتلامذته لفترة قصيرة يشاهدون لعبة الطرد المركزي للجرو الطنان (وهي من ألعاب الكرة التي تتخذ طريقًا في مسارات كالمتاهة حتىٰ يلتقطها أحد اللاعبين)، وقد التف عشرون طفلًا حول برج من فولاذ الكروم، وفي الأعلىٰ قذفت كرة لتهبط علىٰ منصة بقمة البرج، ثم تدحرجت هابطة إلىٰ الداخل، لتقع علىٰ قرص دوار يلف بسرعة، قبل أن تتقاذفها الفجوات والفتحات المتعددة المحفورة في غلاف أسطواني، منتظرة من يلتقطها.

قال المدير متأملًا بينما يلتفتون مبتعدين: «من العجيب أنَّه في

هذا الزمن من سنة (المبجل فورد) تُقام الألعاب بأدوات ليست أكثر تعقيّدا ولا تقدمًا من كرة أو اثنتين وبعض العصي، وربما بعض الشِباك، تخيلوا مدىٰ الحماقة في السماح للناس بإقامة ألعاب معقدة لا تقوم بأي دور في زيادة الاستهلاك. هذا جنون. لذلك: لا يوافق المراقبون هذه الأيام علىٰ أي لعبة جديدة ما لم تكن تتطلب أجهزة توازي علىٰ الأقل تلك الموجودة في أكثر الألعاب الحالية تعقيدًا».

ثم قاطع حديثه لِيُعلِّق علىٰ مشهد أمامه قائلًا: «هذه مجموعة صغيرة لطيفة».

فعلىٰ ممر عشبي صغير يقع بين أجمتين عاليتين من الخلنج جلس طفلان يلعبان، ولد في حوالي السابعة، وبنت ربما تكبره بعام، كانت هيئتهما جديةً تمامًا، وكانا مستغرقين بكل التركيز والانتباه الذي يمكن أن يظهره العلماء في استكشافاتهم العلمية منشغلين بلعبة جنسية بدائية.

«بديع . . . بديع!». رددها مدير المركز متأثرًا.

فأعاد الفتية كلمته مؤيدين تأدبًا، ولكن ابتساماتهم كانت ابتسام المتفوق المستهزئ قليلًا، فلم يمر عليهم وقت طويل كفاية منذ توقفوا أنفسهم عن مثل هذه التسالي الطفولية؛ ليتمكنوا من مشاهدتهما الآن دون الشعور بشيء من الازدراء، بديع؟ وما البديع في الأمر؟ إنَّهما مجرد طفلين يلهوان، هذا كل شيء، مجرد طفلين.

واستطرد المدير بنفس النبرة المتأثرة: «إنَّني دائمًا ما أفكر في . . .». قبل أن يقاطعه صوت بكاء صارخ عالي النبرة، ثم تظهر ممرضة من وراء أجمة قريبة تقتاد طفلًا صغيرًا من يده لا يزال يولول باكيًا، بينما هرولت خلفها فتاة صغيرة يبدو عليها القلق.

سأل المدير: «ما الخطب؟».

هزت الممرضة كتفيها: «لا أمر يهم، فقط تردد هذا الصبي الصغير عن المشاركة في اللعبة الشهوانية المعتادة، وقد لاحظت هذا الإحجام مرة أو مرتين في السابق، ولاحظته اليوم مجددًا. وقد بدأ في الصراخ الآن فقط».

هنا تدخَّلت الفتاة الصغيرة قائلة بقلق: «صدقًا لم أقصد إيلامه أو أذيته، صدقًا لم أفعل».

طمأنتها الممرضة قائلة: «بالطبع لم تفعلي يا عزيزتي».

ثم التفتت إلىٰ المدير قائلة: «لذلك؛ فإنَّني سأذهب به إلىٰ مساعد المشرف العام لشئون الطب النفسي، فقط ليرىٰ إن كان هناك أي خلل».

قال المدير: «تصرف سليم، خذيه إليه»، ثم أضاف بعدما تحركت الممرضة بالطفل الموكولة برعايته وهو مازال ينتحب: «وأنتِ أيتها الفتاة الصغيرة امكثي هنا. ما اسمك؟».

«بولي تروتسكي».

«هذا اسمٌ حسنٌ جدًا، اركضي الآن، وابحثي عن صبي آخر

لتلعبي معه». فركضت الفتاة إلىٰ ما وراء الأجمة بعيدًا عن العيون.

قال المدير موجهًا ناظريه حيث اختفت الفتاة: «كائن صغير جميل».

ثم التفت إلىٰ طلابه قائلًا: «ما سوف أخبركم به الآن سيبدو عسير التصديق، ولكن عندما يكون المرء غير مطلع علىٰ التاريخ؛ فإنَّ كل الحقائق التاريخية تصبح عسرة التصديق».

ثم أطلعهم علىٰ الحقيقة المذهلة: «فلمدة زمنية طويلة قبل زمن (المبجل فورد)، بل ولعدة أجيال بعده: كان ينظر إلىٰ الألعاب الجنسية بين الأطفال كشيء شاذ»، انطلقت عاصفة من الضحك إثر حديثه!

لكنَّه أكمل قائلًا: «ليس هذا وحسب، ولكنَّها كانت تعتبر أمرًا غير أخلاقي كذلك».

فانطلقت صيحات التعجب هذه المرة: «ولذلك: فقد قمعت بصرامة».

ظهرت ملامح الذهول وعدم التصديق علىٰ وجوه طلابه: «غير معقول! ألَا يُسمح للصبية المساكين بتسلية أنفسهم؟ لم يستطيعوا تصديق ذلك».

قال مدير المركز: «وذلك كان ينطبق حتىٰ علىٰ أندادكم من المراهقين».

«غير معقول!».

«فيما عدا بعض الممارسات الذاتية والمثلية في الخفاء لم يكن مسموحًا بأي نشاط جنسي علىٰ الإطلاق».

«علىٰ الإطلاق؟!».

«نعم؛ وحتىٰ يتجاوزوا العشرين في معظم الحالات».

ردد الطلبة في صيحة جماعية مستهجنة: «العشرون؟!».

أكد المدير: «نعم؛ حتىٰ العشرين، لقد أخبرتكم أنَّكم ستجدون الأمر عسيرًا علىٰ التصديق».

سألوا: «ولكن ما الذي حدث؟ ماذا كانت النتيجة؟».

تدخل في المحادثة علىٰ نحو مفاجئ صوت عميق رنان: «كانت النتيجة مروعة!».

التفتوا؛ ليجدوا رجلًا غريبًا يقف علىٰ طرف المجموعة الصغيرة، كان الغريب متوسط القامة، أسود الشعر، له أنف معقوف، وشفاه غليظة متوردة، أمَّا عيناه؛ فكانتا داكنة اللون، نافذة النظرات، كرر الغريب: «مروعة!».

كان المدير جالسًا علىٰ إحدىٰ المقاعد المكونة من الصلب والمطاط، والمتناثرة في الحدائق لراحة الزائرين، ولكنَّه هب واقفًا فور رؤية الغريب، وتقدم منه مادًّا يده ومبتسمًا ابتسامة واسعة، بدت منها نواجذه مُرحِّبًا بالرجل بشكل مفرط: «السيد المراقب! يا لها من مفاجأة سارَّة! يا فتية ماذا دهاكم؟! رحِّبُوا بالسيد المراقب المبجل باسم فورد، السيد مصطفىٰ موند».

وفي الأربع آلاف غرفة في المركز دقت الأربع آلاف ساعة إلكترونية تزامنيًّا؛ معلنة تمام الساعة الرابعة، بينما انطلقت أصوات آلية عبر مكبرات الصوت: «فريق عمل اليوم الأساسي خارج الدوام، وليأخذ مكانه فريق العمل الثاني. أكرر: انتهىٰ دوام فريق العمل الأساسي».

وفي المصعد في طريقهم لغرف تغيير الملابس؛ أشاح كل من هنري فوستر ومساعد المدير لتعيين الأقدار عن برنارد ماركس من مكتب الصحة النفسية عامدين؛ نائين بأنفسهما عن صاحب تلك السمعة غير الحميدة.

وفي متجر الأجنة: ظلَّ طنين الآلات واهتزازها الخفيف يذبذب الهواء المصطبغ باللون القِرمزي. فقد تتغير الدوامات، وتتعاقب الوجوه المعلمة بلون مرض الذئبة؛ لكن تظل الناقلات دائمًا وأبدًا تتهادىٰ للأمام بمهابة بحمولتها من رجال ونساء المستقبل.

وسارت لينينا كروان نحو الباب بخطوة سريعة.

المبجل باسم فورد مصطفىٰ موند! كادت أعين الطلاب المحيين له أن تخرج من محاجرها؛ مصطفىٰ موند المراقب المقيم بأوروبا الغربية؟! وواحد من عشرة مراقبين في العالم كله، واحد من عشرة! وإذا به يجلس علىٰ المقعد بجانب مدير المركز.

نعم؛ إنه سيجلس معهم، سيجلس معهم ويحادثهم بالفعل، من فم الحصان مباشرةً، بل من فم فورد نفسه!

برز من بين شجيرات قريبة طفلان لوحتهما الشمس، حتىٰ أصبحا بلون القريدس حدقا فيهم بعيون واسعة مندهشة؛ ليعودا بعدها إلىٰ لعبهما بين أوراق الشجر.

قال المراقب بصوته العميق القوي: «تتذكرون جميعًا علىٰ ما أظنُّ المقولة المُلهِمة الجميلة للمبجل فورد: «التاريخ هراء!».

كرر الجملة ببطء: «التاريخ هراء!».

ولوَّح بيده، فكأنَّما أزاح بمضرب خفي من الريش بعض الأتربة القليلة وخيوط العنكبوت، وكانت هذه الأتربة والخيوط تُمثِّلُ الأماكن الأثرية التاريخية، فكأنَّه محا بإشارته المستهينة قرية هارابا، ومدن أور، وطيبة، وبابيلون، وكنوسوس، ومايسينيه، خفقتان بالمضرب أُزيح بهما تاريخ حضارات كاملة، وأين ذهب أديسيوس بطل حرب طروادة؟ أين ذهب أيوب النبي؟ وجوبيتر الإله الإغريقي؟ وجوتاما بوذا؟ والمسيح ابن مريم؟ خفقة أخرىٰ وإذا ببعض ذرات التراب الأثرية المسماة بأثينا وروما والقدس والدولة الفرعونية الوسطىٰ تختفي في لمح البصر، خفقة وتختفي إيطاليا، خفقة وتختفي الكاتدرائيات، خفقة أخرىٰ ويختفي الملك لير، وأفكار باسكال، خفقة وتختفي العواطف المتقدة، خفقة ويختفي القداس الجنائزي، خفقة وتختفي السيمفونيات.

تساءل مساعد معين الأقدار: «هل ستذهب إلىٰ السينما الحسية هذا المساء يا هنري؟ لقد سمعت أنَّ الفيلم المعروض في سينما قصر الحمراء ممتاز، وهناك مشهد حب يقع علىٰ بساط من

فراء الدببة! يقولون: إنَّه رائع! حيث يمكنك أن تشعر بكل شعرة يتكون منها الفراء ذو الملمس المذهل!».

كان المراقب يقول: «لهذا السبب لم يُدرَّس لكم التاريخ، لكن الآن حان الوقت لذلك».

نظر إليه مدير المركز قلقًا، كانت هناك إشاعات غريبة متداولة عن كتب قديمة ممنوعة محفوظة في خزينة مكتب المراقب؛ أناجيل وشعر وفورد وحده يعلم ماذا أيضًا.

ضبط مصطفىٰ موند نظرة المدير القلقة، فارتفع جانبَا شفتيه الحمراوين بابتسامة ساخرة، وقال بلهجة شابها بعض التهكم: «لا بأس أيها المدير؛ إنَّني لن أفسدهم».

فغرق المدير في الارتباك.

إنَّ أولئك الذين يشعرون باحتقار الآخرين لهم يعلمون جيِّدًا كيف يُظهرون الازدراء بدورهم؛ كانت الابتسامة علىٰ وجه برنارد ماركس مليئة بالاستهزاء. كل شعرة يتكوَّن منها الفراء! فعلًا!

قال هنري فوستر: «سأحرص علىٰ الذهاب».

مال مصطفىٰ موند إلىٰ الأمام، ولوح بإصبعه قائلًا: «فقط حاولوا أن تدركوا الأمر».

أرسل صوته رعشة غريبة فيهم، سرت حتىٰ حجابهم الحاجز!

«حاولوا أن تتخيَّلوا كيف كان الحال عندما كان للفتىٰ

أمٌّ تلده». آهٍ، تلك الكلمة البذيئة مرة أخرىٰ، لكن هذه المرة لم يجرؤ أحدهم علىٰ الابتسام.

«حاوِلوا تخيُّل ما الذي يعنيه العيش في أسرة». حاوَلوا مجتهدين لكن دون نجاح فيما يبدو.

«وهل تعلمون ما الذي كانت تعنيه كلمة بيت؟».

فأجابوه بهزة رأس أنْ لا !

من السرداب المصطبغ بضوء قِرمزي باهت اندفعت لينينا كراون سبعة عشر طابقًا، ثم اتجهت يمينًا عند خروجها من المصعد؛ لتقطع ممرًا طويلًا، وتفتح بابًا في نهايته علقت عليه لوحة تقول: (غرفة تبديل ملابس الفتيات)؛ لتجد نفسها مغمورة في فوضىٰ عارمة من الأذرع والصدور والملابس المتطايرة، وسيول من المياه الساخنة تتدفق من وإلىٰ المئات من أحواض الاستحمام، وتعالىٰ هدير وفحيح ثمانين آلة تدليك هوائية اهتزازية، تدلك في نفس الوقت الأجسام البضة الملوحة بالشمس لثمانين من الفتيات الفاتنات، اللاتي كُنَّ يتحدثن بأعلىٰ أصواتهن، بينما ينطلق من صندوق موسيقي عزفًا منفردًا لآلة البوق.

حيت لينينا الفتاة التي تجاور خزانة ملابسها خزانتها: «مرحبًا فاني!».

كانت فاني تعمل في غرفة التعبئة، وكان اسمها الأوسط كراون أيضًا، ولٰكن بما أنَّ الألفي مليون من سكان الكوكب

يحملون عشرة آلاف اسم فيما بينهم لا غير لم تكن تلك مصادفة ذات بال.

جذبت لينينا بيدها سحاب سترتها لأسفل، فسحابي البنطال بكلتا يديها؛ لتواصل يدها رحلتها نازلةً، فتفك سحاب ثيابها الداخلية، في ثلاث سحبات سريعة متتابعة، ثم سارت نحو الحمامات مرتدية حذاءها وجواربها فقط.

وما البيت؟ البيت هو مجموعة حجرات صغيرة، ملآنة حتىٰ الاختناق برجل وامرأة تحمل دوريًا، وطغمة من الأولاد والبنات من مختلف الأعمار، بدون هواء، ولا مساحة كافية لأي منهم، إنَّه سجن ناقص التعقيم؛ كله ظلام وأمراض وروائح خبيثة.

كان استحضار المراقب للماضي في غاية الحيوية، حتىٰ إنَّ أحد الطلبة الأشد حساسية من زملائه شحب وجهه من الوصف وكاد أن يصاب بالغثيان.

أنهتْ لينينا استحمامها، وجففت الماء عن جسدها بالمنشفة، ثم أمسكت بأنبوب طويل مرن موصول بالحائط ووجهته نحو صدرها كمن يقصد الانتحار بآلة مميتة، ثم ضغطت علىٰ الزناد، لتنطلق دفقة من الهواء الدافئ محملة بأفضل أنواع مسحوق التلك المعطر، وكان هناك أعلىٰ حوض الاغتسال صنابير صغيرة تحتوي علىٰ ثمانية روائح عطرية مختلفة، فأدارت الثالث من اليسار، وعطرت نفسها برائحة الليمون، ثم خرجت حاملة حذاءها وجواربها في يدها لترىٰ ما إذا كانت إحدىٰ آلات التدليك شاغرة.

كان البيت مكانًا حقيرًا بائسًا نفسيًّا بقدر ما كان كذلك ماديًّا، لقد كان جحرًا للأرانب، كومة قاذورات، حارًّا بالاحتكاكات الناتجة عن حياة مزدحمة ومحاصرة من جميع الاتجاهات، تطفح منه العواطف كالروائح الكريهة. يا لها من حميمية تبعث على الاختناق! ويا لها من علاقات خطرة مجنونة بذيئة تلك التي كانت تربط بين أفراد العائلة! فالأم المهووسة تكون حاضنة لأطفالها (أطفالها!)، تمامًا كما تفعل القطة مع أطفالها، ولكنَّها قطة تستطيع الحديث، ويمكنها أن تقول: «طفلي ... طفلي!». تكررها المرة تلو الأخرىٰ: «طفلي ... آهٍ يا طفلي ... تعالَ لأضمك إلىٰ صدري لتتغذىٰ منه، يا ليديك الصغيرتين، يا للجوع، ويا لهذه اللذة الأليمة! ثم ينام طفلي أخيرًا، ينام بفقاعة من اللبن الأبيض علىٰ جانب شفته، طفلي الصغير ينام».

وأومأ مصطفىٰ موند برأسه وهو يشاهد تأثير كلماته عليهم قائلًا: «نعم؛ يحق لكم الارتجاف فرقًا».

سألت لينينا بعدما عادت من التدليك بجسم وضيء كلؤلؤة تلمع بلون وردي كامن: «برفقة من ستخرجين الليلة؟».

«لا أحد».

رفعت لينينا حاجبيها متعجبة.

فأوضحت لها فاني: «أشعر أنِّي لست علىٰ ما يرام مؤخرًا، وقد نصحني الطبيب ويلز ببديل الحمل».

«ولكنك يا عزيزتي في التاسعة عشرة فقط من العمر، وبديل الحمل لا يكون إجباريًّا قبل الواحدة والعشرين!».

«أعلم يا عزيزتي! ولكن من الأفضل للبعض البدء مبكرًا، لقد أخبرني الطبيب ويلز أنَّ السمراوات ممَّن يملكن حوضًا واسعًا يجب أن يحصلن علىٰ بديل الحمل من سن السابعة عشرة؛ لذا: فأنا في الحقيقة متأخرة سنتين، وليس العكس».

ثم فتحت باب خزانتها وأشارت إلىٰ صف من الصناديق والقوارير المصنفة علىٰ الرف العلوي.

بدأت لينينا تقرأ الأسماء الملصقة بصوت مسموع: «شراب الجسم الأصفر، وأوفارين مضمون النقاء: لا يستخدم بعد الأول من أغسطس لـ(عام: ٦٣٢ بعد فورد)، مستخلص الغدة الثديية: يتناول ثلاث مرات يوميًّا قبل الوجبات بجرعة ماء، بلاسنتين (٥ سنتيمتر مكعب) يحقن وريديًّا كل ثلاثة أيام».

«أف!». سرت في جسد لينينا القشعريرة ... «كم أكره الحقن الوريدية، ألا تفعلين؟».

«نعم؛ ولكن لا بُدَّ من قبولها عندما تكون مفيدة». كانت فاني فتاة عاقلة.

إنَّ مولانا فورد، أو فرويد كما كان يدعو نفسه لسبب مبهم عند حديثه في مجال علم النفس، كان مولانا فرويد هو أول من كشف عن الأخطار المروعة للحياة العائلية، كان العالم وقتها مليئًا

بالآباء؛ وبالتالي: كان مليئًا بالشقاء، وبالأمهات؛ ولذا: كان حافلًا بكل أنواع الانحرافات؛ من السادية حتىٰ العفة، مزدحم بالأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات، محتشد بالجنون والانتحار.

ومع ذلك: فمن بين بدائيي ساموا، في بعض الجزر القريبة من ساحل غينيا الجديدة، حيث تمسد أشعة الشمس الاستوائية الأجساد العارية للأطفال المتمرغين باستمتاع بين أزهار الكركديه، كأنَّما تمسحهم بالعسل الدافئ، وحيث كان البيت بالنسبة لهؤلاء الأطفال هو إحدىٰ تلك المنازل العشرين المجدولة من سعف النخيل، كان يعزي أهالي جزر تروبرياند في بابو غينيا الجديدة الحمل إلىٰ كونه من فعل أشباح الأجداد، وليس ناتجًا عن اتصال بين رجل وامرأة، فلم يعرف أحدهم مفهوم الأب قط.

قال المراقب: «قدر لأقاصي الأطراف أن تكون علىٰ الحواف لتتلاقىٰ».

«أخبرني الطبيب ويلز أنَّ فترة علاج ثلاثة أشهر يستخدم فيها بديل الحمل سوف تفيدني صحيًا أيما إفادة، ويستمر أثرها لثلاث أو أربع سنوات قادمة».

قالت لينينا: «أرجو أن يكون مُحقًّا، لكن يا فاني هل تعنين أنَّك ولثلاثة شهور قادمة ستمتنعين عن . . .».

«لا يا عزيزتي! فقط لأسبوع أو أسبوعين علىٰ الأكثر. أمَّا الآن؛ فسأذهب لأقضي الأمسية في النادي ألعب لعبة البريدج

الموسيقي، وأنت ستخرجين علىٰ ما أظن؟».

فأومأت لينينا برأسها موافقة.

«مع من؟».

«مع هنري فوستر».

ارتسم علىٰ ملامح فاني تعبيرًا مليئًا بالدهشة والاستنكار المتألم! بدا غريبًا عن وجهها الطيب المستدير كالقمر: «مرة أخرىٰ؟! هل تعنين أنك مازلت تواعدين هنري فوستر؟!».

نعم؛ كان هناك أمهات وآباء وأخوة وأخوات، وكان هناك أيضًا أزواج وعُشَّاق، بل كان هناك زواجًا أحاديًّا، وعلاقات عاطفية.

ثم تساءل مصطفىٰ موند: «أتصور أنكم قد لا تعلمون من يكون هؤلاء، ولا ما طبيعة تلك العلاقات».

فهزوا رؤوسهم أن لا .

الأسرة، الزواج الأحادي، الأمور العاطفية، في كل مكان تجد الاقتصار علىٰ شريك واحد، وهذا تضييق علىٰ العفوية والحيوية.

و ختم المراقب الحديث بأن تلا عليهم الحكمة التي تعلموها أثناء النوم: «إنَّ الجميع ينتمي للجميع».

أومأ الطلاب برؤوسهم مؤمِّنين علىٰ العبارة التي ترددت علىٰ مسامعهم لاثنين وستين ألفًا من المرات في الظلام ممَّا جعلهم

يقبلونها ليس فقط كحقيقة، بل كبدهية مسلم بها لا تقبل الجدال بأي شكل من الأشكال.

اعترضت لينينا: «لكن لم تكد تمضي أربعة أشهر منذ صاحبت هنري».

«فقط أربعة أشهر! ما أجمل ذلك! لكن الأفدح من هذا -لوَّحت إليها بأصبعها متهمة- إنَّه لم يكن هناك أحد آخر سوىٰ هنري طوال ذلك الوقت، أليس كذلك؟».

اصطبغ وجه لينينا بلون أحمرٍ قانٍ خجلًا، لكن نظرة عينيها ونبرة صوتها استمرت متحدية، وأجابت بلهجة لاذعة: «لا، لم يكن هناك أحدٌ آخر، ولا أرىٰ سببًا لوجوب وجود أحد آخر».

«إنَّها لا ترىٰ سببًا لوجوب وجود أحد آخر». ردَّدت فاني. وكأنَّما تخاطب مستمعًا خفيًّا خلف كتف لينينا الأيسر، ثم قالت فجأة بنبرة مختلفة: «ولكن جديًّا: أرىٰ أنَّه يجب عليك الحذر، فذلك منحىٰ سيئ جدًّا أن تستمري في مواعدة رجل واحد، ربما لا يكون الأمر بذلك السوء في الأربعين أو الخامسة والثلاثين، ولكن في عمرك يا لينينا! لا هذا غير مقبول، وإنَّك لتعلمين كيف يعترض مدير المركز علىٰ أي تعمق في العلاقات أو استمرارها علىٰ المدىٰ الطويل. أربعة شهور تواعدين هنري فوستر وحده! لسوف يثور غضبًا لو علم بهذا».

«أريدكم أن تتخيلوا ماءً يتعرض لضغط شديد داخل أنبوب». فأعملوا خيالهم!

واستطرد المراقب: «ثم آتي أنا لأثقبه ثقبًا واحدًا ينتج عنه انبثاق مهول، ولكن ماذا لو أنَّني ثقبته عشرين ثقبًا بدلًا من ثقب واحد؟ وقتها سيصبح لدينا عشرون نافورة ضئيلة تافهة».

«طفلي ... طفلي!».

«أماه». إن الجنون مُعدٍ.

«حبيبي، حبيبي الوحيد، للأبد، أيها العزيز الغالي!».

أُمٌّ، علاقات أحادية، علاقات عاطفية؛ تلك نافورات شديدة الانبثاق، والاندفاع الجامح للماء فيها عنيف ومزبد، فالتوق والغريزة المحركة لهما ليس أمامهما إلَّا متنفس واحد؛ حبي، طفلي، لا عجب أنَّ أولئك البشر المساكين كانوا مجانين وأشقياء وتعساء قبل الحداثة؛ فإنَّ عالمهم لم يكن يسمح لهم بأن يعيشوا حياة سهلة، أو أن يكونوا عقلاء وفضلاء وسعداء، فما بين الأمهات والأحبة والممنوعات التي لم يغرس فيهم الانقياد لها بدلًا من الإحجام عنها، والشعور بالوحدة، والندم، والأمراض المختلفة، والألم الممض الممتد الذي يعزل صاحبه عما حوله، وعمن حوله، وعدم اليقين، والفقر، لم يكن لهم مناص من تدفق الشعور، وبذلك الشعور المتدفق الذي يحاصر الشخص في عزلته اليائسة ووحدته الدائمة أنَّىٰ يكون له الاستقرار والتوازن النفسي؟!

«بالطبع؛ ليست هناك ضرورة للتخلي عنه، فقط واعدي شخصًا آخر من فترة لأخرىٰ، فهو له صاحبات أخريات أليس كذلك؟».

اعترفت لها لينينا بصحة ذلك.

«بالطبع لديه، هذا شيء مضمون أن يكون هنري فوستر سيِّدًا مهذبًا يتحرَّىٰ الصواب دائمًا، كما أنَّه يجب مراعاة رأي المدير، أنت تعلمين كيف يمكن أن يكون متزمتًا ومماحكًا».

أومأت لينينا برأسها: «لقد ربت علىٰ مؤخرتي هذا العصر».

هتفت فاني ظافرة: «هاك! أرأيت، هذا يوضح كيف هو وما هي قيمه التي يتمسك بها: المحافظة والتقليدية الصارمة».

قال المراقب: «الاستقرار، الاستقرار. لا تقوم حضارة دون استقرار اجتماعي، ولا استقرار اجتماعي دون استقرار فردي». كان صوته مدويًّا كالبوق، كُلَّما استمعوا له شعروا بالدفء والاتساع.

لقد دارت الآلة، وعليها أن تظلَّ دائرة، فتوقفها يعني الموت، لقد ساح ألف مليون من البشر في الأرض يقلِّبون قشرتها، فدارت الآلة، وفي مائة وخمسين سنة تضاعف السكان؛ ليصبح هناك ألفا مليون من البشر. لكن أوقفوا كل العجلات، وستجدون في خلال مائة وخمسين يومًا فقط هذه المرة أنَّ العدد قد انخفض إلىٰ النصف؛ وذلك لأنَّ ألف مليون من الرجال والنساء قضوا نحبهم جوعًا.

فعلىٰ العجلات أن تدور باستمرار وثبات، ولكن لا يمكنها أن تدور دون رعاية، دون رجال يتعهَّدُونها، رجال في ثبات تلك

العجلات التي تتحرك علىٰ محاورها، عقلاء، مطيعون، مستقرون نفسيًّا.

أمَّا ذاك الذي يبكي: طفلي، أمي، حبي الوحيد، ويئنُّ: ذنوبي، إلهي الرهيب؛ ذلك الذي يصرخ من الألم، يهذي محمومًا، يرثي شبابه المنقضي ويندب فقره، فأنَّىٰ لهؤلاء أن يرعوا الآلات؟ وهم إن لم يفعلوا ستواجهنا مشكلة صعبة في التخلص من جثة ألف مليون رجل وامرأة بالدفن أو الحرق.

قالت فاني متلطفة: «علىٰ كل حال ليس هناك ما يؤلم أو يُسيء في الحصول علىٰ رجل أو اثنين بجانب هنري، وبما أنَّني أرىٰ أنَّه عليك أن تكوني أكثر إباحية . . .».

كرر المراقب بإصرار: «الاستقرار . . . الاستقرار؛ ذلك هو الاحتياج الرئيس، والغاية: الاستقرار؛ ولذلك: فعلنا كل ما فعلنا».

قالها وهو يلوح بيده، فاردًا ذراعه مشيرًا إلىٰ الحدائق والمبنىٰ الضخم لمركز التكييف والأطفال العراة اللَّاهون بالتخفي بين الشجيرات أو بالركض في المروج.

هزَّت لينينا رأسها، وقالت مُتأمِّلةً: «لسبب أو لآخر، لم أجد لدي رغبة في العلاقات الجنسية المتعددة مؤخرًا، وقد يمر المرء بحالة لا يجد لديه فيها القبول لذلك الأمر، ألم تمري بهذا الشعور يا فاني؟».

أومأت فاني براسها متفهمة ومتعاطفة، وإن وعظتها ناصحة: «لكن علىٰ المرء أن يبذل جهده، وأن يلعب اللعبة، فالجميع ينتمي للجميع».

تنهدت لينينا، ورددت ببطء: «نعم؛ الجميع ينتمي للجميع».

ثم صمتت هنيهة، التقطت بعدها يد فاني وضغطت عليها برفق: «أنت محقة تمامًا يا فاني كالعادة، سوف أبذل وسعي».

لقد كبحت العفوية في معالجة المثيرات والدوافع من انفلات فيضان الشعور؛ وهذا الفيضان الناشئ عن المشاعر والعاطفة، وحتىٰ الجنون يعتمد علىٰ شدة التيار وعلىٰ قوة وعلو الحاجز؛ فإنَّ المجرىٰ الذي لا يعترضه عارض يتدفق سلسًا خلال قنواته المرسومة في وجود هادئ يَسِر.

وإليكم مثال: يكون الجنين جائعًا؛ فيضخ بديل الدم في حركته المعتادة البالغة ثمانمائة دورة في الدقيقة، يومًا بعد يوم. الطفل بعد تفريغه من الزجاجة يصرخ جائعًا؛ وفي الحال تظهر ممرضة بزجاجة تحمل تغذية خارجية. أمَّا الشعور؛ فيكمن في تلك الفترة المنقضية بين الرغبة وإشباعها. قصِّر من هذه الفترة وسيمكنك أن تكسر كل تلك الحواجز القديمة غير الضرورية.

وقال المراقب: «يا لكم من فتية محظوظين! إنَّنا لم نأل جهدًا لجعل حياتكم ميسرة عاطفيًا خالية من الألم، وذلك للحفاظ عليكم، كما سعينا قدر الاستطاعة؛ لتجنيبكم مطلق العواطف والانفعالات».

فتمتم مدير المركز: «فورد في سيارته العتيقة في عليائه، وكل شيء علىٰ ما يرام في العالم».

قال هنري فوستر مرددًا سؤال مساعد معين الأقدار، وهو يستكمل ارتداء ثيابه: «لينينا كراون؟ آه؛ إنَّها فتاة رائعة، جميلة القد، يدهشني أنَّك لم تحصل عليها بعد».

قال مساعد معين الأقدار: «لا يمكنني التفكير في سبب فعلًا، ولكنني سأفعل في أقرب فرصة».

سمع برنارد ماركس من مكانه علىٰ الجانب المقابل من الممر، في غرفة تغيير الملابس ما قالوه، فشحب وجهه.

قالت لينينا، وهي ترتدي جوربها الأيسر: «لأصارحك بالحقيقة؛ فإنَّني قد بدأت أشعر بشيء من الملل من صحبتي لهنري وحده كل يوم». ثم سألت في نبرة بدا واضحًا فيها تكلفها اللامبالاة: «أتعرفين برنارد ماركس؟».

بدت الدهشة علىٰ فاني: «إنَّك لا تعنين أن تقولي . . . ؟».

«ولِمَ لا ؟! إنَّ برنارد من طبقة (**الألفا موجب**)، إلىٰ جانب أنَّه دعاني لزيارة إحدىٰ المحميات البرية معه، ولطالما وددتُّ رؤية محمية برية».

«ولكن سُمعته!».

«وما الذي يعنيني من سمعته؟».

«يقولون: إنَّه لا يحب رياضة جولف الحواجز».

قالت لينينا ساخرة: «إنَّهم يقولون؛ دعيهم يقولون».

فقالت فاني، وفي صوتها نبرة من الفَرِق: «هذا غير أنَّه يقضي معظم وقته وحيدًا».

«حسنًا! إنَّه لن يكون وحيدًا وهو معي، أليس كذلك؟ وعلىٰ أيه حال: لماذا الناس بغيضة معه لهذه الدرجة؟! أنا أراه رجلًا لطيفًا». وابتسمت لنفسها، وهي تتذكر كم بدا خجولًا بشكل مضحك، وخائفًا كما لو كانت هي أحد مراقبي العالم وهو مجرد فرد (جاما سالب) يمتهن تشغيل الآلات.

قال مصطفىٰ موند: «تفكروا في حياتكم نفسها؛ هل صادف أحدكم عقبة كئود لا حل لها يومًا ما؟».

أجابه صمتٌ نافٍ.

فأَتْبَعَهُ بسؤالٍ آخر: «هل اضطر أحدكم إلىٰ العيش فترة عوز طويلة بعد شعوره برغبة ما إلىٰ أن تحققت؟».

«حسنًا . . . !». بدأ أحد الطلاب، ثم تردد!

فاستحثه مدير المركز: «أفصح، ولا تدع المبجل باسم فورد ينتظر!».

«لقد اضطررت مرة للانتظار أربعة أسابيع كاملة قبل أن تسمح لي فتاة رغِبْتُها أن أنالها».

«وقد شعرت بمشاعر قوية نتيجةً لذلك؟».

«شعرت شعورًا فظيعًا».

قال المراقب: «شعور فظيع؛ بالضبط، لقد كان أسلافنا غايةً في الغباء، وقِصر النظر، حتىٰ إنَّه لما جاء المصلحون الأوائل وعرضوا عليهم تخليصهم من هذه المشاعر الفظيعة لم يقبلوا منهم».

صرف برنارد بأسنانه: «إنَّه يتحدَّث عنها كما لو كانت قطعة لحم، يعرضها لهذا وذاك، كأنَّها قطعة من لحم الضأن، إنَّه يهينها ويحقر من شأنها، لكنَّها قالت: إنَّها ستفكر في الأمر، واستمهلتني عدة أيام تفكر فيها قبل أن تجيبني، آه يا فورد! يا فورد! يا فورد!». كم تمنىٰ لحظتها لو ذهب إليهما ولكمهما في وجهيهما بقوة، عدة مرات.

كان هنري فوستر ما زال يقول: «نعم؛ إنَّني أنصحك أن تجربها».

«خذوا عندكم مثلًا: نمو الجنين خارج الرحم، كان كل من فيتسنر وكاواجوتشي قد اكتشفا تقنية صالحة تمامًا لإجراء هذه العملية، ولكن هل استمعت الحكومات لهما؟ كلَّا؛ فقد كان هناك شيء يدعىٰ المسيحية، وكان علىٰ النساء أن يكابدن الحمل والولادة».

قالت فاني: «إنَّه قبيح للغاية».

«ولكن شكله يعجبني».

لوت فاني شفتيها امتعاضًا: «كما أنَّه ضئيل جدًّا». كانت

الضآلة سمة بغيضة، مرتبطة بالانتماء للطبقات الدنيا.

قالت لينينا: «اعتقد أنَّ هذا شيء لطيف، إنَّه يُثير في المرء الشعور بالرغبة في التربيت عليه وملاطفته، كما قد تفعلين مع قطة».

قالت فاني مصدومة: «يقولون إنَّ أحدهم ارتكب خطأ عندما كان في الزجاجة، ظنَّه (جاما) فوضع كحولًا في السائل المغذي له، ولهذا توقف نموه قبل الآوان».

هتفت لينينا حانقة: «يا له من هراء!».

«كان التعليم أثناء النوم ممنوعًا في بريطانيا، فقد كان هناك ما يدعىٰ الليبرالية، وقد مرَّر البرلمان -لو كنتم تعلمون ما هو- قانونًا بمنعه، وحُفظت السجلات المتعلقة بهذا الأمر، وفيها خطب تتحدث دفاعًا عن حرية الشخص ... حريته في أن يكون عديم الكفاءة بائسًا، حريته في أن يكون سدادة دائرية تشغل فتحة مربعة».

«أنت علىٰ الرحب أيها الصديق العزيز، أؤكد لك أنَّك علىٰ الرحب».

ربت هنري فوستر علىٰ كتف مساعد معين الأقدار الاجتماعية واستطرد: «فعلىٰ كل حال: الجميع ينتمي للجميع، أليس كذلك؟».

فكر برنارد ماركس الذي كان خبيرًا في التعليم أثناء النوم: مائة تكرار لثلاثة أيام في الأسبوع لمدة أربع سنوات، إن تكرار

جملة اثنين وستين ألفًا وأربعمائة مرة تؤدي لحقيقة واحدة: خلق أناس بلهاء.

«أو النظام الطبقي، الذي طُرح مرارًا، وفي كل مرة يرفض، بسبب ما يدعىٰ الديموقراطية، كما لو أنَّ الرجال يتساوون في ما هو أكثر من تساويهم الفيزيوكيميائي!».

«حسنٌ، كل ما استطيع قوله هو أنَّني سأقبل هذه الدعوة».

كان برنارد يبغضهم بشدة، لكنَّهما كانا اثنين مقابل واحد، وكانا ضخمين وقويين.

«بدأت حرب السنوات التسع في (سنة ١٤١ بعد فورد)».

«حتىٰ لو كان الكلام عن الكحول في بديل الدم صحيحًا».

«الفوسجين والكلوروبكرين وإيثيل أيودواسيتيت وتراي كلورو ميثيل والكلوروفورم وثنائي كلورو إيثيل الكبريت (الخردل)، وهذا دون ذكر حمض الهيدروسيانيك».

ختمت لينينا حديثها: «وهو ما لا أصدقه . . .».

«دنت ضوضاء أربع عشرة ألف طائرة تتقدم علىٰ مسافات بينية واسعة. أمَّا أصوات انفجار قنابل الجمرة الخبيثة في مدينة كورفورستيندام الألمانية والدائرة الثامنة في باريس، فكانت لا تكاد تتجاوز صوت فرقعة كيس ورقي».

«وذلك؛ لأنَّني أريد أن أشاهد محمية برية».

Ch3C6H2 (NO2)3 + Hg (CNO)2 = ...

ماذا تساوي؟ حفرة عظيمة في الأرض؟ كومة أنقاض؟ بعض الأشلاء المتطايرة؟ قدم لا زالت في حذائها تطير في الهواء لتقع بعيدًا عن باقي جسدها وسط زهور الغرنوق القرمزية؟ يا له من عرض عظيم ذاك الذي حدث ذلك الصيف!

«أنت ميئوس منك يا لينينا، إنَّني أَسْتَسْلِمُ وأدعك لشأنك».

«لقد كان ذلك التكنيك الروسي المتعلق بتسميم مصادر المياه بارعًا للغاية».

مديرتين ظهريهما إحداهنَّ للأخرىٰ أكملت كل من فاني ولينينا ارتداء ثيابيهما في صمت.

«حرب السنوات التسع، الانهيار الاقتصادي الكبير، لقد كان هناك خيار ما بين السيطرة علىٰ العالم أو تدميره، ما بين الاستقرار و . . .».

قال مساعد معين الأقدار: «وفاني كراون أيضًا فتاة لطيفة».

كان درس المرحلة الابتدائية عن الوعي قد انتهىٰ في الحضانات، حيث كانت الأصوات المُلقِّنة تُعدِّل من الطلبات المستقبلية لسوق الاستهلاك هامسة: «أُحب الطيران، أحب اقتناء الملابس الجديدة، أحب . . .».

«وبالطبع ماتت الليبرالية بالجمرة الخبيثة، ولكن رغم كل ذلك النجاح لن تبلغك القوة حيث تريد».

«وهي طبعًا ليست ريانة العود مثل لينينا».

وفي الحضانات استمرت الهمسات الملحة التي لا تكل:

«الثياب القديمة قبيحة للغاية، ونحن نلقي ثيابنا القديمة دائمًا. إهلاكها أفضل من إصلاحها، إهلاكها أفضل من إصلاحها، إهلاكها أفضل من . . .».

«إنَّ شأن الحكومة هو أن تضع القواعد، لا أن تضرب بيد من حديد، إنَّك تحكم باستخدام العقل، وباستخدام رغبات الناس للسيطرة عليهم، وليس باستخدام قبضتك، فعلىٰ سبيل المثال: هناك سخرة الاستهلاك».

«هأنذا جاهزة». قالتها لينينا، لكن فاني ظلَّت صامتة مشيحة بوجهها، فألحت عليها بلطف: «هيا يا فاني الحبيبة دعينا نتصالح».

«علىٰ كل رجل وامرأة وطفل أن يستهلكوا قدرًا معينًا سنويًّا، من أجل ازدهار الصناعة، والنتيجة الوحيدة . . .».

«إهلاكها أفضل من إصلاحها، كلما زاد الترقيع زادت الفاقة؛ زاد الترقيع . . .».

قالت فاني مؤكدة بكآبة: «في يوم من الأيام سوف تقعين في مشكلة كبيرة».

«اعتراض من ضمير يقظ واسع المدىٰ. أي شيء لا يتم استهلاكه. العودة للطبيعة».

«كم أحب الطيران. كم أحب الطيران».

«عودةً إلىٰ الثقافة. نعم؛ العودة الحقة إلىٰ الثقافة؛ فلا يمكنك

أن تستهلك الكثير بجلوسك بلا حراك وقراءة الكتب».

سألت لينينا: «هل يبدو مظهري حسن؟». كانت ترتدي سترة خضراء قاتمة، من قماش صناعي من مركبات عضوية محلاة بقطع من الفراء المقلد علىٰ الياقة والأكمام.

«قد حصدت حيوات ثمانمائة من المحكوم عليهم بالمؤبد بالرشاشات في جولدرز جرين».

«إهلاكها أفضل من إصلاحها. إهلاكها أفضل من إصلاحها».

وسروال أخضر قصير من القطن المضلع، وجوارب صوفية بيضاء تصل إلىٰ تحت الركبة.

«ثم حدثت مذبحة المتحف البريطاني الشهيرة؛ ألفين من محبي الفن قتلوا خنقًا بغاز الخردل».

واعتمرت لينينا قبعة رياضية الطراز من اللونين الأخضر والأبيض ظللت عينيها، وكانت ترتدي حذاءً أخضر اللون لامعًا.

قال مصطفىٰ موند: «في النهاية أدرك المراقبون أنَّ القوة غير صالحة، وأنَّ أساليب إنماء الجنين خارج الرحم والنهج البافلوفي الحديث في التكييف والتعليم أثناء النوم وإن كانت وسائل أبطأ؛ إلَّا أنَّها مضمونة النجاح».

وحول وسطها تمنطقت بحزام أخضر اللون مطعم بالفضة مغربي الطراز يحمل جيوبًا منتفخة بمؤنتها من وسائل منع الحمل

التي توفرها لها الإدارة، حيث إنَّ لينينا لم تكن من العقيمات اللاتي انتزعت مبايضهن.

«وأخيرًا: طبقت اكتشافات فيتسنر وكاواجوتشي، وصنعت حملات دعاية مكثفة ضد التكاثر عن طريق الحمل والولادة . . .».

هتفت فاني متحمسة: «عظيم!». لم تكن لدىٰ فاني القدرة علىٰ مقاومة عذوبة لينينا طويلًا: «ويا له من حزام مالتوسي[1] جميل!».

يزيد الإنتاج الزراعي وفق متوالية حسابية، ممَّا سيؤدي حتمًا إلىٰ نقص الغذاء والسكن. ومن مؤلفاته: «**بحث في مبدأ السكان**» صاغ فيه نظريته حول السكان، والتي أثارت ضجة كبيرة، حيث ورد فيها: «إنَّ الرجل الذي ليس له من يعيله، والذي لا يستطيع أن يجد له عملًا في المجتمع سوف يجد أن ليس له نصيبًا من الغذاء علىٰ

(١) نسبة إلىٰ توماس روبرت مالتوس باحث سكاني واقتصادي سياسي إنجليزي مشهور بنظرياته المؤثرة حول التكاثر السكاني في العصر الحديث، وقد أعلن عن حتمية النقص في المواد الغذائية بالنسبة لزيادة السكان؛ إذ يعتبر أنَّ عدد السكان يزيد وفق متوالية هندسية بينما يزيد الإنتاج الزراعي وفق متوالية حسابية، ممَّا سيؤدي حتمًا إلىٰ نقص الغذاء والسكن. ومن مؤلفاته: «**بحث في مبدأ السكان**» الذي صاغ فيه نظريته حول السكان، والتي أثارت ضجة كبيرة، حيث ورد فيها: إنَّ الرجل الذي ليس له من يعيله، والذي لا يستطيع أن يجد له عملًا في المجتمع سوف يجد أن ليس له نصيبًا من الغذاء علىٰ أرضه، فهو عضو زائد في وليمة الطبيعة، حيث لا صحن له بين الصحون؛ لذا: فإنَّ الطبيعة تأمره بمغادرة الزمن.

أرضه، فهو عضو زائد في وليمة الطبيعة، حيث لا صحن له بين الصحون؛ **لذا**: فإنَّ الطبيعة تأمره بمغادرة الزمن.

«وقد رافقت الحملة التي شنت ضد الماضي غلق المتاحف وتفجير المعالم التاريخية (من حسن الحظ أنَّ معظمها كان قد دمَّر بالفعل خلال حرب السنوات التسع)، وإخفاء كل الكتب المنشورة قبل (عام: ١٥٠ بعد فورد»).

قالت فاني: «لا بُدَّ أن أحصل علىٰ واحد مثله».

«فمثلًا كانت هناك أشياء تدعىٰ الأهرامات».

«حزام الكتف الأسود القديم خاصتي».

«ورجل كان يدعىٰ شيكسبير. أنتم لم تسمعوا عنهم قبلًا بالطبع».

«حزام الكتف هذا إنَّه يثير الخجل، إنَّه مهلهل تمامًا».

«وتلك هي مميزات مثل هذا التعليم العلمي الحق».

«إهلاكها أفضل من إصلاحها. إهلاكها أفضل من . . .».

«تقديم أولىٰ نماذج (T) للمبجل فورد . . .».

«إنَّه بحوزتي منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر كاملة».

«اختير كبداية التأريخ للعصر الجديد».

«كلما زاد الترقيع زادت الفاقة؛ زاد الترقيع . . .».

«كان هناك ما يدعىٰ المسيحية كما أخبرتكم قبلًا».

«إهلاكها أفضل من إصلاحها».

«أخلاقيات وفلسفة نظرية قصور الاستهلاك . . .».

«أحب الثياب الجديدة. أحب الثياب الجديدة. أحب الثياب الجديدة».

«. . كانت ضرورة عندما كان هناك قصور في الإنتاج؛ أما في عصر الآلات وتثبيت النيتروجين فإن قصور الاستهلاك يعد جريمة في حق المجتمع».

«لقد أعطانيها هنري فوستر».

«كل الصلبان قطعت رؤوسها لتتحول إلىٰ حرف (T). كما كان هناك أيضًا شيء يُدعىٰ الله».

«إنَّه حزام مغربي حقيقي».

«والآن لدينا الدولة العالمية، واحتفالات يوم فورد وأناشيد المجتمع وخدمات التضامن».

كان برنارد ماركس يقول في خبيئة نفسه: «بحقِّ فورد كم أكرههم!».

«كان هناك شيء يُدعىٰ الجنة؛ ومع ذلك فقد اعتادوا علىٰ شرب كميات مهولة من الخمور».

«كما لو كانت قطعة لحم، كما لو كانت لا شيء سوىٰ قطعة لحم».

«وكان هناك شيء يدعىٰ الروح، وشيء آخر يدعىٰ الخلود».

«اسألي هنري من أين حصل عليه».

«ومع ذلك فقد اعتادوا علىٰ تعاطي المورفين والكوكايين».

«وما يجعل الأمر أكثر سوءًا هو: أنَّها ترىٰ نفسها قطعة لحم كذلك».

«دُعِّم ألفان من الصيادلة وخبراء الكيمياء الحيوية في (عام ١٧٨ بعد فورد»).

قال مساعد تعيين الأقدار؛ مُشيرًا لبرنارد ماركس: «يبدو متجهمًا».

«وبعد مرور ست سنوات، طرح للاستهلاك التجاري العقار المثالي».

«دعنا نشاكسه قليلًا».

«إنَّه عقار يُثير النشوة، مخدر، مع لمسة من الهلوسة اللطيفة».

«التجهم يا ماركس التجهم». جفل ماركس من الضربة الخفيفة علىٰ كتفه والتفت لصاحبها، إنَّه ذلك الهمجي هنري فوستر. «إنَّ ما تحتاجه حقًّا هو جرام من عقار سوما».

«وهكذا نحصل علىٰ كل مميزات المسيحية والخمر دون عيوبهما».

«بحق فورد كم أود قتله!».

أمَّا ما قاله فعلًا؛ فكان فقط: «لا ... شكرًا لك». ورفض أنبوب الأقراص المقدم له.

«خذ إجازة من الواقع متىٰ أحببت، ثم عُد دون أعراض الانسحاب من صداع وخلافه، ودون تعقيدات الميثولوجيا».

ألح هنري فوستر: «هاك، خذها. خذها».

«وهكذا ضُمن الاستقرار بوسائل عملية».

قال مساعد تعيين الأقدار مرددًا كلمة مألوفة من الحِكم المتلقاة عبر التعليم أثناء النوم: «يعالج سنتيمتر مكعب واحد عشرة من المشاعر القاتمة».

«ولم يبقَ سوىٰ التغلب علىٰ التقدم في السن».

صرخ برنارد ماركس: «تبًا لكما وسحقًا».

«متعجرف».

«هرمونات الغدة التناسلية، نقل الدم من صغار السن، أملاح الماغنيسيوم . . .».

«وتذكر أنَّ الجرام أفضل من اللعان». ثم انطلقا متضاحكين.

«لقد محيت كل السمات الفسيولوجية للتقدم في العمر، وذلك بالطبع إلىٰ جانب . . .».

قالت فاني: «لا تنسي أن تسأليه عن هذا الحزام المالتوسي».

«إلىٰ جانب كل الصفات العقلية التي تصاحب التقدم في العمر، فالشخصية تظل ثابتة خلال عمرها كله».

«دعنا نلعب جولتين من جولف الحواجز قبل حلول الظلام، فأنا علىٰ موعد سفر بالطائرة».

«العمل واللهو. فتظلُّ قدراتنا وأذواقنا في الستين علىٰ ما كانت عليه عندما كنا في السابعة عشر. أمَّا كبار السن في العصور القديمة العصيبة؛ فقد اعتادوا علىٰ الاعتزال والتقاعد والالتجاء إلىٰ الدين وقضاء وقتهم في القراءة والتفكير ثم المزيد من التفكير».

دمدم برنارد ماركس لنفسه في طريقه إلىٰ المصعد: «معاتيه . . . خنازير».

«هذا هو التقدُّم الحق؛ كبار السن يعملون ويجامعون، كبار السن ليس لديهم وقت فراغ ولا ينقطعوا عن اللَّذات، كبار السن لا يملكون دقيقة فراغ واحدة للجلوس والتأمل، أمَّا لو حدثت -نتيجة صدفة غير سارة- ثغرة ما في التيار المتدفق من النشاطات الملهية؛ فإنَّ سوما يتكفل بهذا الأمر، سوما اللذيذ! إنَّ نصف جرام كافٍ جدًّا لنصف عطلة، أمَّا الجرام؛ فيكفي لعطلة نهاية الأسبوع، أمَّا رحلة إلىٰ الشرق الساحر، فستحتاج إلىٰ جرامين اثنين، وثلاثة جرامات تكفل خلود قاتم علىٰ سطح القمر؛ ثم يعودون عندما يجدوا أنفسهم، وقد تجاوزوا هذه الثغرة آمنين علىٰ الأرضية الصلبة الثابتة لروتين العمل والنشاطات اليومية، مهرولين من فيلمٍ حسي إلىٰ آخر، ومن فتاة حسنة القد إلىٰ أخرىٰ، من مضمار كهرومغناطيسي لممارسة رياضة الجولف إلىٰ . . .».

هتف مدير المركز غاضبًا: «ابتعدي أيتها الطفلة، ابتعد يا صبي، ألَا تريان أنَّ المبجل باسم فورد مشغول؟ اذهبا واستكملا لعبكما الشهواني في مكان آخر».

قال المراقب: «تحمل الأطفال الصغار».

في بُطءٍ وجلال يصاحبه طنين آلي خفيف تحركت الناقلات للأمام، بسرعة ثابتة تبلغ ثلاثة وثلاثين سنتيمترًا في الساعة، بينما لمع في الظلام المصبوغ بالظل القرمزي أعدادٌ لا حصر لها من الياقوت.

الفصل الرابع

تكدس المصعد برجال (ألفا) القادمين من غرف تبديل الثياب المخصصة لهم، فقابلت لينينا حين دلفت إلىٰ المصعد العديد من الابتسامات، وهزّات الرأس الودودة؛ فقد كانت فتاة محبوبة، كما أنَّها قد قضت ليلة مع كل منهم تقريبًا في وقت ما.

فكرت لينينا وهي تبادلهم التحية: يا لهم من فتية أعزاء فاتنين، ومع هذا كانت تود لو لم تكن آذان جورج إدزيل بهذه الضخامة (ربما تلقَّىٰ جرعة زائدة من هرمون الغدة الجار درقية علىٰ ارتفاع المتر ٣٢٨؟)، ثم نظرت إلىٰ بنيتو هوفر، فلم تملك أن تتذكَّر مدىٰ غزارة شعر جسده عندما خلع ثيابه.

التفتت، وقد ارتسم في عينيها القليل من الحزن من هذه الصور المتداعية في ذهنها؛ لتجد الجسم الضئيل النحيل يعلوه وجه برنارد ماركس الشجي واقفًا في الركن.

«برنارد!».

هتفت باسمه وهي تتوجه إليه: «كنت أبحث عنك».

رنَّ صوتُها يعلو صوت هدير المصعد، فالتفت الآخرون بفضول . . .

«كنت أريد أن أتحدث معك عن خطة ذهابنا إلىٰ نيو ميكسيكو».

ومن طرف عينيها لمحت بنيتو هوفر فاغرًا فاه دهشةً ممَّا ضايقها، وقالت في نفسها ساخرة: «لعلَّه مصدوم من كوني لم أتوجه إليه هو راجية أن يواعدني مرة أخرىٰ».

ثم قالت بصوت مسموع ونبرة أكثر دفئًا من ذي قبل: «أودُّ حقًّا مرافقتك لأسبوع في شهر يوليو».

كانت تثبت عدم إخلاصها لهنري علىٰ الملأ، ولسوف يسرُّ هذا فاني، حتىٰ لو كان الآخر، الذي تواعده هو برنارد ماركس، الذي منحته لينينا أكثر بسماتها عذوبة وغنجًا: «هذا لو كنت مازلت ترغب بي».

تورد وجه برنارد الشاحب عادةً، ممَّا جعلها تتساءل في نفسها عن السبب متعجبة، ومتأثرة بهذا الإطراء لأنوثتها.

قال متلعثمًا مرتبكًا: «أليس الأفضل أن نتحدث عن هذا في مكان آخر؟».

فكرت لينينا: «لكأنَّني قلت شيئًا صادمًا. لم يكن ليبدو أكثر انزعاجًا لو أنَّني ألقيت نكتة بذيئة؛ لكأنَّني سألته من تكون والدته، أو شيء من هذا القبيل».

كاد صوته يختنق من الاضطراب: «أقصد ليس أمام هذا الجمع من الناس . . .».

قاطعته ضحكة لينينا الصافية التي لا خبث فيها: «ما أغربك!». وهو ما كانت تعتقده حقًّا؛ إنَّه غريب بشكل فكاهي. «لسوف تُذكِّرني قبلها بأسبوعٍ علىٰ الأقل أليس كذلك؟ -ثم أكملت حديثها بنبرة مغايرة- أظنُّنا سنستقل صاروخ المحيط الهادي الأزرق؟ هل سيقلع من برج قرية تشارينج أم من هامبستيد؟».

وقبل أن يتمكَّن برنارد من الإجابة توقف المصعد؛ ليعلن صوت متحشرج: «السطح». كان عامل المصعد رجلًا ضئيلًا يشبه القردة، يرتدي السترة السوداء المميزة لسلالة (**الإبسيلون**) سالب شبه المعتوهة.

أعلن مرَّة أخرىٰ: «السطح». ثم دفع مصراعي الباب علىٰ اتساعهما؛ لتغمره أشعة شمس بعد الظهيرة الدافئة، فجفل وأطرف بعينيه قائلًا في نشوة جذلة: «آه . . . السطح!».

وبدا كما لو كان قد استيقظ فجأة من غفوة حالكة مهلكة، مكررًا: «السطح!».

تطلع إلىٰ أعلىٰ مبتسمًا في وجوه ركاب المصعد، ككلب أليف يتودد إلىٰ صاحبه منتظرًا اهتمامه ومداعبته، لكن الركاب خرجوا من المصعد إلىٰ ضوء النهار يتحادثون ويتضاحكون فيما بينهم، بينما أتبعهم عامل المصعد ببصره، متسائلًا هذه المرة: «السطح؟».

هنا رنَّ جرس، ومن سقف المصعد انطلق مكبر للصوت يصدر أوامره لعامل المصعد، بصوت خافت ونبرة آمرة: «اهبط،

اهبط للطابق الثامن عشر، اهبط، اهبط، الطابق الثامن عشر، اهبط . . .».

أغلق عامل المصعد مصراعي الباب بقوة، ثم لمس زرًا، وعلىٰ الفور سقط مرة أخرىٰ في قاع غفوته الحالكة المعتادة.

كان السطح دافئًا مضيئًا، وكان الوقت صيفًا في فترة ما بعد الظهيرة، والمناخ يدعو للنعاس، تطن فيه هدير المروحيات العابرة، أمَّا الصوت الأعمق الصادر عن أزيز الطائرات الصاروخية المسرعة المتوارية عن الأنظار المحلقة علىٰ ارتفاع خمسة أو ستة أميال فوق الرؤوس في السماء المشرقة، فبدت كما لو كانت تداعب النسيم.

أخذ برنارد ماركس نفَسًا عميقًا، مقلِّبًا ناظريه في الأفق الأزرق؛ ليستقرَّا أخيرًا علىٰ وجه لينينا، سألها بصوت به شيء من الرجفة: «أليس هذا جميلًا؟».

فابتسمت له في تفهُّم متعاطف، وأجابته بصوت مفعم بالنشوة: «نعم؛ رائع جدًّا، ومناسب لممارسة رياضة جولف الحواجز، ولكن يجب أن أركب الطائرة الآن يا برنارد، فهنري يتضايق كثيرًا إذا ما تركته ينتظر، لا تنسَ أن تعْلمني بالميعاد في وقت مبكر». ثم لوَّحت له بيدها مُودِّعة قبل أن تركض عبر السطح الفسيح إلىٰ حظيرة الطائرات.

وقف برنارد يتابع ببصره الوميض المبتعد للجوارب البيضاء والركبتين الملوحتين بالشمس، وهما تنثنيان وتنفردان المرة تلو

الأخرىٰ في نشاط وحركة الجسم المياسة في السروال القصير تحت السترة الخضراء، وقد ارتسم علىٰ وجهه الألـم.

انطلق من خلفه صوت مرتفع يتحدث بمرح: «عليَّ أن اعترف بأنَّها جميلة».

جفل برنارد، والتفت رافعًا رأسه؛ ليجد وجه بنيتو هوفر الأحمر السمين يبتسم له مبتهجًا بمودة ظاهرة، كان بنيتو مشهورًا بدماثته، حتىٰ إنَّ الناس كانوا يقولون: إنَّه يستطيع أن يعيش حياته كلها دون أن يقرب عقار سوما، وإنَّه بمنأىٰ عن نوبات ضيق الخلق والنقمة والضغينة التي تجتاح الناس من وقت لآخر، ويُعالجوها بالعطلات، كان الواقع مُشرِقًا دائمًا وأبدًا في نظر بنيتو.

«وهي لَدْنَةٌ أيضًا، أعجب به من قوام!». ثم قال بنبرة مغايرة: «ولكنَّك تبدو مُتجهِّمًا كئيبًا، أنت في حاجة ماسة إلىٰ جرام من سوما».

وضرب بنيتو بيده في جيب بنطاله الأيمن، وأخرج قنينة، وهو يلقي عليه الشعار المعروف: «يشفي سنتيمتر مكعب واحد عشرة هموم . . .».

ولكن برنارد ولىٰ علىٰ عقبيه ولـم يعقب.

حدق بنيتو وراءه متعجبًا: «لكن ما خطب الرجل؟!».

ثم هزَّ رأسه: «لا بُدَّ أنَّ قصة الكحول الذي وضع بالخطأ في السائل المغذي للمسكين صحيحة . . . أعتقد أنَّها أثرت علىٰ عقله!».

أعاد زجاجة سوما إلىٰ جيبه، وأخرج علكة بهرمونات جنسية أخذ يجترها، وهو يمشي الهوينىٰ في طريقه إلىٰ حظيرة الطائرات.

كان هنري فوستر قد أخرج ماكينته من مربضها وعندما وصلت لينينا وجدته جالسًا في قمرة القيادة منتظرًا، ولم يزد علىٰ أن قال عندما صعدت إلىٰ المقعد المجاور: «لقد تأخرت أربع دقائق».

أشعل المحرك وجذب صمام ناقل السرعات، فأقلعت الطائرة عموديًا، وزاد هنري من سرعتها، وعلت ضوضاء المروحة تصاعديًا؛ لتتحول من صوت يشبه أزيز الزنبور ليماثل أزيز الدبور، ثم البعوضة، وأظهر عداد السرعة أنَّهم يطيرون بمعدل يقارب (٢كيلو متر) في الدقيقة، أخذت لندن في التلاشي من تحتهم، وبعد ثوانٍ أضحت المباني العالية كوحدات من المشروم هندسي الشكل، انبثقت من حزام الحديقة والمتنزه الأخضر، وفي وسطهم برز فطر طويل رفيع يُشبه برج (T) بمدينة تشارينج الشامخ، نحو السماء كقرص من الخرسانة اللامعة.

مثل صدور الرياضيين مفتولة العضلات كان السحاب الكثيف الضخم مُعلَّقًا في الهواء الأزرق فوق رؤوسهم، ومن إحدىٰ تلك الغمامات اندفع فجأة شيء يشبه حشرة صغيرة حمراء اللون تئز بينما تسقط.

قال هنري: «هاك الصاروخ الأحمر، قادم لتوه من نيويورك».

ثم ألقىٰ نظرةً علىٰ ساعته وهزَّ رأسه قائلًا: «سبع دقائق

تأخير، حقًّا إنَّ خدمات الأطلنطي هذه غير ملتزمة بمواعيدها بشكل مخزي».

رفع قدمه عن دواسة الوقود؛ فانخفض صوت الصمامات العُليا بمقدار ثمانية درجات ونصف، وهكذا تحول أزيز الدبابير والزنابير إلىٰ طنين النحل، ثم إلىٰ صوت الجُعلان، فخنافس الآيل، وقل اندفاع الماكينة، لتعلُّق بعدها في الهواء دون حركة، ضغط هنري علىٰ رافعة، فصدر صوت تكة، ثم ببطء في البداية آخذًا في التصاعد دارت المروحة، حتىٰ تحوَّلت إلىٰ دائرة ضبابية، وعلا صوت صفير الرياح الناجمة عن الحركة الأفقية المتسارعة علىٰ الشدادات، وثبت هنري عينيه علىٰ عداد الدوران؛ وعندما أشارت الإبرة إلىٰ علامة الـ(١٢٠٠) حرك ناقل السرعات للحد من حركة الصمامات، وكانت الآلة تملك قصورًا ذاتيًا يُمكنها من الطيران دون محرك.

نظرت لينينا إلىٰ أسفل من خلال الكوة الزجاجية بين قدميها، كانا يحلقان فوق منطقة الستة كيلومترات المخصصة للهبوط، والتي تفصل وسط لندن عن ضواحيها، كان البساط الأخضر يعجُّ بالأحياء التي تبدو كالديدان من أعلىٰ، وقد أحاطت أبراج لعبة الجرو الطنان بالأشجار، وتداخلت بينها، وبالقرب من منطقة أجمة الراعي كانت هناك أزواج مختلطة من أفراد بيتا سالب يبلغون الألفين، كانوا يلعبون تنس سطح رايمان، بينما اصطف علىٰ طول الطريق الرئيس من نوتنج هيل وحتىٰ ويلسدين صفٌّ مزدوجٌ من

ملاعب متحركة للعبة الخمس (لعبة تقوم علىٰ فريقين وكرة يد، ويحاول كل فريق منع الفريق الآخر من تسجيل نقطة عندما يكون الإرسال معه، كالتنس والاسكواش)، وفي ملعب إيلنج كان هناك عرض رياضي لأفراد (دلتا) وغناء جماعي.

علقت لينينا: «ما أقبح هذا اللون الكاكي!». مرددة العبارة المتحاملة التي لقنتها مع باقي أفراد طبقتها أثناء النوم.

كانت مباني ستوديوهات الأفلام الحسية لهونسلو تحتل مساحة سبعة هكتارات ونصف، وبالقرب منها انشغل جيش من العمال يرتدون الأسود والكاكي، بتجديد سطح الطريق الغربي الكبير، ورأوهم يستخدمون إحدىٰ البوتقات الضخمة المتنقلة بينما يحلقان، وقد صب الصخر المنصهر في مجرىٰ من الوهج المتلألئ عبر الطريق، وأخذت بكرات الأسبستوس (الحرير الصخري) في الذهاب والإياب، بينما تصاعد البخار في هيئة سحب بيضاء من مؤخرة عربة ري عازلة للحرارة.

وفي برنتفورد كان مصنع هيئة التلفاز يماثل مدينة صغيرة.

قالت لينينا: «لا بُدَّ أنَّ هذا ميعاد تغيير الوردية».

فقد احتشد في سرب كالنمل، أو قمل النبات فتيات من طبقة (جاما) مكتسيات بالأخضر بلون أوراق الشجر، وكذلك أشباه المعاتيه المتشحين بالسواد المتزاحمين حول المداخل، أو وقوفًا في طوابير ليأخذوا أماكنهم في عربات الترام أحادية القضبان، بينما أخذ أفراد (بيتا سالب) المرتدين بزات بلون التوت يذهبون ويجيئون

وسط الجموع، كان سطح المبنىٰ الرئيس يموج بالمروحيات الهابطة والمقلعة.

قالت لينينا: «كم أنا سعيدة حقًّا أنَّني لست (جاما)».

وصلوا بعد عشرة دقائق إلىٰ قرية ستوك بودجز؛ ليبدؤوا لعب الجولة الأولىٰ من جولف الحواجز.

أسرع برنارد عابرًا السطح، مسبلًا جفنيه غالب الوقت، فإذا صادف ووقعت عيناه علىٰ أي من زملائه راغ بهما مسرعًا، كان يبدو كالمطارد الذي يفر من أعداء لا يرغب في رؤيتهم، خوفًا من أن يُظهروا له عداءً أكبر ممَّا يتوقع، فيزداد شعوره بالإثم والذنب، وتزداد وطأة شعوره بالعزلة والوحدة والعجز.

«ذلك الفظ بنيتو هوفر ... يا له من كريه!»، ولكنَّه لم يبغِ شرًّا، وذلك يجعل الأمر أكثر سوءًا، فحَسَنو النية -عادة- ما يسلكون سلوكًا سيئ الطوية، حتىٰ لينينا كانت تعذبه، وتذكر تلك الأسابيع المؤلمة من التردد والإحجام الخجول التي تعذب خلالها بالتطلع والتوق واليأس، من أن يمتلك الشجاعة يومًا كي يسألها مرافقته، هل يجرؤ علىٰ المخاطرة بالتعرض للإذلال جرَّاء رفضها الهازئ؟ ولكن ماذا لو قبلت؟ ماذا لو قالت نعم؟ يا للنشوة! حسنًا لقد قالتها، لكنَّه لا يزال بائسًا؛ بائسٌ لأنَّها ترىٰ هذا اليوم مثاليًّا للعبة جولف الحواجز، بائسٌ لأنَّها هرولت للحاق بهنري فوستر، بائسٌ لأنَّها وجدته مضحكًا عندما لم يرغب في الحديث عن شئونهم الأكثر خصوصية أمام الجميع، باختصار هو يشعر بالبؤس؛

لأنَّها سلكت مسلك أي فتاة إنجليزية فاضلة، ولم تحِدْ عن ذلك لتتصرف بطريقة غير طبيعية استثنائية رائعة.

فتح باب مرآبه، ونادىٰ علىٰ حارسين من طبقة (دلتا سالب) كي يدفعوا بآلته إلىٰ السطح، كان يدير حظيرة الطائرات مجموعة بوكانوفيسكي واحدة؛ فكان الرجال توائم متماثلة، كانوا سمر البشرة، قصارًا قبيحي الشكل، ألقىٰ إليهم برنارد أوامره في حِدَّة وغطرسة، وبأسلوب مهين يتماشىٰ مع رجل لا يشعر بالثقة في مكانته واستحقاقه لهذه المكانة، كان تعامله مع أفراد الطبقات الأدنىٰ تجربة مزعجة للغاية له، فمهما كان السبب (وقد تكون الإشاعة المتداولة -حاليًا- عن الكحول في السائل المغذي له حقيقية، فالحوادث ولا بُدَّ واقعة)؛ فإنَّ بنية برنارد لا تختلف كثيرًا عن تلك التي يتميَّز بها فرد (جاما) العادي، فهو أقصر بحوالي ثمانية سنتيمترات عن فرد (الألفا) العادي، كما أنَّه نحيف البنية، وهكذا كان اتصاله بأي من أفراد الطبقات الأدنىٰ يذكره بشكل مؤلم بقصوره البدني.

«أنا علىٰ ما أنا عليه، ولكنني أتمنىٰ لو كنت مختلفًا». كان وعيه بذاته حسَّاسًا بدرجة كبيرة، ويُسبِّب له التوتر والإنهاك. وكان يُشعره بالمهانة أن يجد نفسه مُضطرًا إلىٰ النظر إلىٰ وجه أحدِ أفراد (دلتا) علىٰ نفس مستوىٰ البصر بدلًا من أن ينظر إليه من علٍ، ويتساءل هل سيعامله هذا الفرد بالاحترام الواجب لطبقته؟ كان هذا السؤال يطارده بإلحاح، وليس دون سبب وجيه، فـ(الجاما)،

و(الدلتا)، و(الإبسيلون) قد كُيِّفوا إلىٰ حدٍّ ما كي يربطوا بين ضخامة البنية والمكانة الاجتماعية. نعم؛ فقد بُث في مناهج التعليم عبر النوم في أنحاء العالم شيء من المحاباة لكبر الحجم. **لذلك**: كانت النساء تقابل عروضه لهنَّ بالضحك؛ **ولذلك**: أيضًا كان زملاؤه يدبرون له المقالب، كان ذلك التهكم يشعره بأنَّه دخيل، لا ينتمي إليهم؛ وقد تناسب سلوكه مع هذا الشعور؛ ممَّا زاد من التحامل ضده، وفاقم من احتقاره ومعاداته الناجمين عن نقائصه البدنية، وهو ما ضاعف بدوره من وحدته وتغربه.

وجعله خوفه المزمن من الاستهانة به يتجنب أكفاءه، وفي نفس الوقت يستحضر مكانته وهيبته واعيًا في سلوكه مع من هم دونه. لكم حسد رجالًا كهنري فوستر وبنيتو هوفر! رجال لا حاجة لهم في الصياح في فرد (إبسيلون) كي ينفذ له أمرًا؛ رجال يأخذون مكانتهم كأمر مسلم به؛ رجال ينطلقون في النظام الطبقي، كما تنطلق السمكة في الماء تعرف طريقها مرتاحة تمامًا في بيئتها وواثقة من نفسها دون عناء ولا تفكير ممض.

بدا له أنَّ توأم الحراس ينفذون أمره متباطئين، وأنَّهما يجران مركبته إلىٰ السطح بإهمال.

قال برنارد متضايقًا: «أسرعا».

فنظر أحدهما إليه، هل يلمح سخرية قميئة في العينين الرماديتين الخاويتين؟

فعاد يصيح بصوت أعلىٰ، وقد تخلل صوته بحة قبيحة: «أسرعا».

ارتقىٰ الطائرة ليُحلِّق بعدها بدقيقة نحو الجنوب في اتجاه النهر.

كانت مكاتب الدعاية المختلفة، ومعهد الهندسة الانفعالية تقع في مبنىٰ واحد يتكون من ستين طابقًا في شارع فليت، واحتل القبو والطبقات المنخفضة الصحافة ومكاتب أكبر ثلاث صحف في لندن (**الراديو علىٰ مدار الساعة**)، وهي صحيفة للطبقة العُليا، و(جاما جازيت) المميزة بلونها الأخضر الباهت، ثم الصحيفة ذات اللون الكاكي، والتي تحرر من كلمات مفردة غير مركبة (دلتا ميرور)، ثم في الطبقات التي تليها تأتي مكاتب الدعاية التلفزيونية والسينما الحسية والأصوات الصناعية والموسيقىٰ علىٰ التوالي، وأولئك يحتلون اثنين وعشرين طابقًا، تعلوهم معامل البحث، والحجرات العازلة للصوت التي يقوم فيها مؤلفو القطع الموسيقية والملحنون بأعمالهم الصوتية الدقيقة، أمَّا آخر ثمانية عشر طابقًا، فيحتلهم معهد الهندسة الانفعالية.

هبط برنارد علىٰ سطح مكتب الدعاية، وخطا خارجًا، آمرًا حارس البوابة (**الجاما موجب**): «اتصل بالسيد هيلمهولتز واتسون، وأخبره أنَّ السيد برنارد ماركس ينتظره علىٰ السطح».

ثم جلس وأشعل سيجارة.

كان هيلمهولتز واتسون يكتب عندما بلغته الرسالة، قال: «أخبره أنِّي قادم علىٰ الفور».

ثم وضع السماعة والتفت إلىٰ مساعدته قائلًا بنفس النبرة

الرسمية المتجردة: «سأترك لك أشيائي لترتيبها في أماكنها». ونهض متجاهلًا ابتسامتها المتألقة واتجه نحو الباب بخطوات سريعة.

كان رجلًا متين البنية، عريض الصدر والمنكبين ضخمًا، ومع هذا سريع الحركة، خفيفها في نشاط، تدعم عضلات رقبته القوية رأسًا قسيمًا، كان شعره داكنًا ومتموجًا، وملامحه قوية ومنحوتة في وسامة رجولية خشنة، كان يمثل -كما تكرر مساعدته دومًا دون ملل- الصورة التي يجب أن يكون عليها رجل (الألفا موجب)، كان محاضرًا في معهد الهندسة الانفعالية (قسم الكتابة)، وكان يتناوب بين نشاطه التعليمي، والعمل كمهندس انفعالات. ويكتب كذلك بانتظام في (**الراديو علىٰ مدار الساعة**)، ويؤلف سيناريوهات للأفلام الحسية، كما كان محظوظًا بامتلاك موهبة صك الشعارات والقوافي التعليمية التي تقرأ للأطفال أثناء النوم.

كان تقييم رؤسائه له أنَّه: «قدير»، لكنَّهم كانوا يهزون رؤوسهم بعدها قائلين بصوت خافت: «ربما كان قديرًا أكثر من المطلوب».

ولقد كانوا محقين؛ إنَّه قدير أكثر من المطلوب، لقد أنتج فائض القدرة العقلية لدىٰ هيلمهولتز واتسون آثارًا تشبه تلك التي يعانيها برنارد ماركس نتيجة نقيصته البدنية، إن ما عزل برنارد عن زملائه هو افتقاره للطول والعضل الذي يميزهم، وقد أدَّىٰ إحساسه بالانفصال عنهم إلىٰ فائض في القدرة العقلية بالمعايير الحالية، ممَّا

أصبح بدوره سببًا آخر ساعد علىٰ الابتعاد. أمَّا ما جعل هيلمهولتز منزعجًا يعي نفسه كشخص مختلف ومتفرد فهو قدراته العالية. إنَّ ما يتشارك فيه الرجلان هو معرفتهما بأنَّهما شخصان، شخصان متميزان وليسا مجرد فردين في مجموع.

ولكن بينما عانىٰ برنارد الضئيل طوال حياته من إدراكه لاختلافه؛ إلَّا أنَّه لم يدرك قدراته العقلية إلَّا مؤخرًا، كذلك هيلمهولتز بدأ يعي اختلافه من ردة فعل المحيطين به، هذا بطل رياضة اسكواش المصاعد، هذا العاشق الذي لا يعرف الكلل، حتىٰ قيل: إنَّه نال ستمائة وأربعين فتاة في أقل من أربع سنوات، هذا الرجل محط الإعجاب عضو اللجنة، وأفضل الموزعين اكتشف فجأة أنَّ الرياضة والنساء والأنشطة المجتمعية كل تلك الأمور بالنسبة له تأتي في المرتبة الثانية، وأنَّ اهتمامه ينصرف إلىٰ أمر آخر في دخيلة نفسه، لكن ما هو هذا الأمر؟ ماذا يكون؟ كانت هذه هي المشكلة التي جاء برنارد ليناقشها معه، أو بالأحرىٰ: ليستمع له مرة أخرىٰ، بما أنَّ هيلمهولتز كان دائمًا ما يأخذ نصيب الأسد في الحديث.

كانت تنتظره ثلاث فتيات فاتنات من مكتب الدعاية من قسم الصوت الصناعي عند خروجه من المصعد، **ناشدنه وقد تعلقنَ به**: «هيلمهولتز أيها الحبيب! تعال وتناول معنا العشاء في الهواء الطلق في براري هكسمور».

هز رأسه رافضًا، وقد اندفع من خلالهنَّ قائلًا: «لا، لا !».

«إنَّنا لم ندعُ أي رجل آخر!».

ولكن هيلمهولتز ظلَّ علىٰ إصراره رغم هذا الوعد الجذّاب، وكرر: «لا، إنَّني مشغول!».

واستمر في طريقه حازمًا، فتعقبته الفتيات ولم ينتهين إلَّا عندما صعد علىٰ متن طائرة برنارد وأغلق بابها، ولم يسلم من لومهنّ.

صاح والطائرة ترتفع في الهواء: «هؤلاء النسوة المزعجات! ما أنكر هذا!»، وهز رأسه مقطبًا، ووافقه برنارد مرائيًا، وهو يتمنىٰ لو كان يمكنه الحصول علىٰ عدد الفتيات اللائي حصل عليهن هيلمهولتز، ودون أن يتجشم العناء مثله، وتملكته رغبة قوية للمباهاة، فقال في لهجة اجتهد في أن يجعلها تبدو عرضية عابرة: «سوف أصحب لينينا كراون معي إلىٰ نيو ميكسيكو».

«حقًا؟». قالها هيلمهولتز دون أي اهتمام.

ثم بعد هنيهة سكوت قال: «آخر أسبوع أو أسبوعين قاطعت كل اللجان المشترك فيها، وكل الفتيات اللائي أواعدهن، ولا يمكنك تخيل كمَّ الجلبة التي أحدثوها في المعهد بسبب ذلك، ولكن أظنُّ أنَّ الأمر يستحق تحمل هذا العناء، إنَّ آثار ذلك القرار . . . حسنًا! لقد كانت آثاره عجيبة غاية العجب».

«إنَّ النقص البدني يمكن أن ينتج عنه نوع من الفائض العقلي، وتبدو العملية قابلة للانعكاس؛ فالفائض العقلي يمكنه أن ينتج

لأغراضه الخاصة نوع من العمىٰ والصمم الطوعيين الآتيان من العزلة والوحدة المتعمدة، إنَّه عجز التقشف الاختياري».

أكملا الوقت الباقي من الرحلة القصيرة صامتين، وعندما وصلا وتمددا باسترخاء علىٰ أريكتين هوائيتين في غرفة برنارد، بدأ هيلمهولتز مجددًا، متحدثًا ببطء شديد قال: «هل شعرت يومًا كما لو كان بداخلك شيء ينتظر أن تعطيه الفرصة للخروج، شيء كقدرة خاصة معطلة، مثل الماء الذي يسقط في الشلالات بدلًا من أن يقع علىٰ التوربينات؟». نظر إلىٰ برنارد متسائلًا منتظرًا إجابته.

«هل تعني كل المشاعر التي كان يمكن أن نشعر بها لو كانت الأمور مختلفة؟».

هز هيلمهولتز رأسه: «ليس تمامًا، إنَّني أتحدث عن شعور غريب يراودني أحيانًا، شعور بأنَّ لدي شيء مهم يستدعي البلاغ، وأنَّ لدي القدرة علىٰ تبليغه، لكنَّني لا أدرىٰ ما هو هذا الشيء، وهكذا تظل هذه القدرة معطلة. ربما لو كانت هناك طريقة مختلفة للكتابة . . . أو شيء آخر يمكنني أن أكتب عنه».

ثم سكت مليًّا قبل أن يستطرد: «لعلَّك ترىٰ كم أنا موهوب في اختراع العبارات؛ ذلك النوع من الكلمات الذي يجعلك تقفز كما لو كنت جالسًا علىٰ مسامير، فالعبارات تبدو غاية في الجدة والإثارة رغم أنَّها تحوم حول فكرة متأصلة في مناهج التعليم أثناء النوم بوضوح، لكن هذا لا يبدو كافيًا، لا يكفيني أن تبدو العبارات جيدة ومنمقة؛ إنَّما يجب أن يكون ما تفعله بهذه العبارات جيدًا بدوره».

«ولكن إنتاجك جيد يا هيلمهولتز».

هز هيلمهولتز كتفيه: «نعم؛ إلىٰ حدٍّ ما لكن ليس بالقدر الكافي، ليس بالأهمية المطلوبة، أشعر أنَّه يمكنني أن أذهب أبعد من ذلك، أفعل أشياء أكثر أهمية، وأكثر استغراقًا، بل وأكثر عنفًا، ولكن ماذا؟ ما الشيء الأكثر أهمية الذي يمكن أن يقال؟ وكيف يكون تناول المرء عنيفًا مع مثل هذه النوعية من الأشياء المتوقع منه كتابتها؟ إنَّ الكلمات يمكنها أن تكون كالأشعة السينية إذا ما استخدمتها بطريقة صحيحة يمكنها أن تخترق أي حاجز، وما عليك إلَّا أن تقرأ ليتم اختراقك، وهذه إحدىٰ الدروس التي أحاول تعليمها لطلابي: كيف يكتبون بشكل ثاقب.

ولكن ما فائدة أن يخترقك مقال عن الإنشاد المجتمعي؟ أو آخر التطورات عن الغدد التي تفرز الروائح؟ إلىٰ جانب ذلك هل يمكنك أن تجعل الكلمات ثاقبة حقًّا مثل أقوىٰ أشعة سينية عندما تكتب عن مثل هذه الأشياء؟ هل يمكنك أن تقول شيئًا عن اللا شيء؟ هذا هو جوهر الأمر. وأنا أحاول وأحاول . . .».

قاطعه برنارد فجأة وهو يرفع أصبعه محذرًا: «صهٍ!».

أصغ السمع، ثم همس: «أظنُّ أنَّ هناك مَن يتسمع وراء الباب».

نهض هيلمهولتز وعبر الغرفة علىٰ أطراف أصابعه وبحركة حادة سريعة دفع الباب فاتحًا إيَّاه علىٰ مصراعيه، وبالطبع لم يكن هناك أحد.

بدا برنارد منزعجًا مدركًا أنَّه تصرف كالأحمق: «آسف، أظنُّ أنَّ أعصابي متعبة قليلًا، فعندما يستريبك الناس تبدأ بدورك في الشك بهم».

مسح بيده علىٰ عينيه وتنهد، وأصبح صوته حزينًا أسيانًا، وهو يبرر سلوكه: «لو علمت ما اضطررت لتحمله مُؤَخَّرًا . . . لو أنَّك فقط علمت ما مررت به!». كاد صوته يبكي، وقد انفجر في موجة من رثاء النفس كنافورة اندفعت فجأة.

استمع هيلمهولتز واتسون بقدر من الإحراج وهو يقول في نفسه: «يا لبرنارد الصغير المسكين!».

ولكنَّه في قرارة نفسه كان يشعر بالخجل نيابةً عن صديقه، كان يتمنىٰ لو أظهر برنارد بعض الكبرياء.

الفصل الخامس

بدأ الضوء يخفت بحلول الساعة الثامنة، وصدح مكبر الصوت في برج نادي ستوك بودجز بطبقة صوت غير بشرية، يُعلن عن انتهاء المباريات، فتركت لينينا وهنري مباراتهما، وسارا عائدين في اتجاه النادي، ومن الأرض المخصصة لمستودع الإفرازات الداخلية والخارجية أتىٰ خوار آلاف الماشية التي تمد المصنع الكبير في فارنهام رويال بالمواد الخام من هرموناتها وألبانها.

وتردد الأزيز المتواصل للمروحيات في الغسق، مع قرع الجرس كل دقيقتين ونصف الدقيقة وانطلقت صافرة حادة الصوت تعلن عن مغادرة إحدىٰ القطارات الخفيفة أحادية القضبان عائدة بلاعبي الجولف من الطبقات الأدنىٰ من ملاعبهم المستقلة إلىٰ المدينة الكبيرة.

صعد كل من هنري ولينينا إلىٰ مركبتهما وانطلقا، وعلىٰ ارتفاع ثمانمائة قدم بطأ هنري من سرعة المروحية، ولدقيقة أو دقيقتين تعلقت المروحية في وضع التوازن فوق المنظر الطبيعي الآخذ في الاختفاء من تحتهما، وقد امتدت غابة الزان ببورنهام

كبقعة عظيمة حالكة الظلام ترنو نحو الشاطئ المنير الذي يكوّن السماء جهة الغرب، وقد اصطبغ الأفق الغربي باللون القرمزي مع غروب آخر شعاع للشمس، ومن الجهة الشمالية متجاوزًا الأشجار ويعلوها برز مصنع الإفرازات الداخلية والخارجية الساطع بإضاءة كهربائية متوهجة قادمة من نوافذ طوابقها العشرين، وتحتهما قبعت مباني نادي الجولف التي تستخدم كثكنات تستخدمها الطبقات الأدنىٰ، وفي الجهة المقابلة من الجدار العازل تراصت منازل أصغر حجمًا خصصت للأعضاء من طبقتي (الألفا) و(البيتا)، وغصت الطرق المؤدية إلىٰ خط القطار أحادي القضبان بسواد كثيف عائد إلىٰ نشاطات أفراد الطبقات الدنيا ممَّا جعلها تبدو كمستعمرة للنمل، ومن تحت قبة زجاجية انطلق كالطلقة قطار مضيء إلىٰ العراء، متبعًا مساره إلىٰ الجنوب الشرقي عبر السهل المظلم، وتعلقَّت العيون بالمباني المهيبة لمحرقة بلدة سلاو، والتي أضيئت مداخنها الطويلة الأربعة بالكشافات وطليت بإشارات التحذير باللون الأحمر القاني من أجل سلامة الطيران الليلي. كانت المحرقة مَعلمًا من معالم المدينة.

سألت لينينا: «لماذا توجد تلك الأشياء التي تشبه الشرفات حول المداخن؟».

أجاب هنري مقتضبًا: «لاسترجاع الفوسفور».

ثم استطرد موضحًا: «تمر الغازات في طريقها عبر المدخنة إلىٰ أعلىٰ علىٰ أربع مراحل مستقلة من المعالجة، وقديمًا كان

خامس أكسيد الفوسفور يخرج كمخلفات من دورة الاحتراق، كلما أحرقوا جثة ما، أمَّا الآن فيقومون باسترجاع ما يزيد عن ثمانية وتسعين في المائة منه، أي: ما يزيد عن الكيلو والنصف لكل جثة فرد بالغ. وهو ما يعتبر مصدرًا رئيسًا لأربعمائة طن من الفوسفور سنويًا في إنجلترا بمفردها».

كان هنري يتحدث بفخر سعيدًا، مغتبطًا من قلبه بهذا الإنجاز كما لو كان من عمل يده، وقال: «من الجميل أن نعرف أنَّه يمكن أن نظل مفيدين للمجتمع حتىٰ بعد رحيلنا؛ وأنَّنا سنجعل النباتات تنمو».

أشاحت لينينا بوجهها، وهو يتحدث ناظرة رأسيًا إلىٰ أسفل، حيث محطة القطار أحادي القضبان، وهي تقول: «نعم؛ جميل، لكن من الغريب أنَّ (الألفا) و(البيتا) لن يجعلوا أي نباتات تنمو مثلما تفعل هذه الكائنات الضئيلة الكريهة من (الجاما) و(الدلتا) و(الإبسيلون)».

قال هنري واعظًا: «كل الناس متساوية من الناحية الفيزيوكيميائية، هذا غير أنَّ حتىٰ (الإبسيلون) يقومون بخدمات لا غنىٰ عنها».

رددت: «حتىٰ (الإبسيلون) . . .».

تذكرت لينينا فجأة واقعة حدثت لها عندما كانت طفلة صغيرة في المدرسة، كانت قد استيقظت فجأة في منتصف الليل واعية للمرة الأولىٰ بالهمسات التي طالما طاردت منامها، ورأت مرة

أخرىٰ ضوء القمر وصف الأسرة الصغيرة البيضاء، وسمعت مرة أخرىٰ الصوت الناعم يقول (كانت الكلمات محفورة في ذاكرتها بعد كل تلك الليالي من الإلقاء مرارًا وتكرارًا): «الكل يعمل من أجل الجميع، لا يمكننا الاستغناء عن أحد، حتىٰ (الإبسيلون) لهم فائدتهم، لا يمكننا الاستغناء عن (الإبسيلون)، الكل يعمل من أجل الجميع، لا يمكننا الاستغناء عن أحد . . .». تذكرت لينينا صدمتها وقتها ورهبتها ودهشتها، وتأملاتها في تلك الساعة وهي بين اليقظة والمنام، ثم تذكرت التسكين التدريجي لعقلها تحت تأثير ذلك التكرار الذي لا ينتهي، التسكين والتهدئة ثم التسلل المختلس للنوم.

قالت بصوت مسموع: «أظنُّ أنَّ الإبسيلون لا يمانعون حقًّا في كونهم كذلك».

«بالتأكيد لا يمانعون، كيف يمكنهم ذلك وهم لا يستطيعون إدراك ما الذي يمكن أن يكون؟ أمَّا نحن فكنا سنعترض بالتأكيد؛ لأنَّه يمكننا أن نقارن بين حالنا وبين ما كان يمكن أن يكون عليه حالنا، بين الواقع والمحتمل، فنحن قد هيئنا بشكل مغاير لما هيئوا له، هذا غير أنَّنا مختلفون من الناحية الوراثية ابتداءً».

كررت لينينا باقتناع: «أنا سعيدة أنَّني لست إبسيلون».

فقال هنري: «ولو أنَّك كنت إبسيلون؛ فإنَّ تهيئتك ستجعلك ممتنة أيضًا لأنَّك لم تكوني (بيتا) أو (ألفا)».

زاد هنري سرعة المركبة ووجهها شطر لندن، تاركين خلفهما

غربًا ألوان الغسق الأحمر والبرتقالي تتلاشي، بينما تتسلل مجموعة سحب داكنة إلىٰ قبة السماء فيما هما يحلقان فوق المحرقة، وارتفعت الطائرة تخترق عمود الهواء الساخن المتصاعد من المدخنة؛ لتعود هابطة بنفس الحركة المفاجئة، وهي تنطلق عبر نسمات المساء الباردة.

ضحكت لينينا مسرورة: «يا لها من انحناءة رائعة».

لكن صوت هنري بدا حزينًا لوهلة: «هل تعرفين ما الذي تجاوزته هذه الانحناءة؟ لقد تجاوزت إنسانًا يختفي في هذه اللحظة للأبد، يتلاشىٰ في دفقة من الغاز الساخن، ترىٰ من كان هذا الإنسان؟ رجل أم امرأة؟ (ألفا) أم (إبسيلون)؟ . . . ».

ثم تنهَّد، وختم حديثه في صوت جاهد ليصبغه بالحبور: «علىٰ أيَّة حال هناك شيء واحد مُؤكد: مهما كان هذا الإنسان؛ فإنَّه كان سعيدًا حينما كان حيًّا، وهذا حال الجميع، فالكل سعداء الآن».

كررت وراءه لينينا كرجع الصدىٰ: «نعم؛ الكل سعداء الآن». فقد سمعوا هذه الجملة تتلىٰ عليهم مائة وخمسين مرة في الليلة علىٰ مدار اثني عشر عامًا.

هبطا فوق سطح المبنىٰ الذي تقع فيه شقة هنري المكون من أربعة وأربعين طابقًا، في وستمنستر، ونزلا رأسًا إلىٰ قاعة الطعام، وهناك تناولَا وجبة شهية وسط صحبة بهيجة صاخبة، وفي نهاية الوجبة قدمت القهوة مع سوما، تناولت لينينا قرصين من سوما كل

قرص يحتوي علىٰ نصف الجرام، بينما أخذ هنري ثلاثة أقراص، وفي التاسعة والثلث عبرًا الشارع لمشاهدة العرض الجديد بملهىٰ كاتدرائية وستمنستر، كانت ليلة صافية بلا سحب تقريبًا في السماء، غير مقمرة وإن تناثرت علىٰ صفحتها النجوم المتألقة، لكن لينينا وهنري لحسن الحظ لم يكونا منتبهين لتلك الحقيقة المقبضة، فقد حجبت كشافات لافتات السماء الكهربائية التي تعلن عن: (طبقات كالفن، ولاعبي الساكسفون الحسي الستة عشر). الظلمة التي بالخارج، وعلىٰ واجهة الكاتدرائية توهجت الحروف العملاقة تدعو قارئيها إلىٰ: (أفضل عروض موسيقىٰ أُرغُن الروائح والألوان، وأحدث المقطوعات الموسيقية الآلية).

دلفا إلىٰ القاعة، وقد بدا الجو حارًا خانقًا برائحة العنبر وخشب الصندل، وفي قبة السقف بالبهو صبغت آلة الأرغُن اللوني الهواء بألوان الغروب الاستوائي لوهلة، بينما عزف لاعبوا الساكسفون الحسي الستة عشر لحنًا قديمًا مفضلًا: «لا توجد زجاجة في العالم كله مثل زجاجتي الصغيرة العزيزة»، كان هناك أربعمائة زوج من الراقصين يرقصون رقصة الخمس خطوات علىٰ أرضية المرقص المصقولة، وسرعان ما انضم هنري ولينينا إليهم ليصبحا الزوج رقم أربعمائة وواحد في حلبة الرقص، في حين كانت الساكسفونات الحسية تنوح كمواء القطط الرخيم تحت ضوء القمر، وتئن في نشوة متنقلة بين طبقات الصوت المتراوحة بين الألطو والتينور، كانت الجوقة المتحمسة تغني بانسجام وافر

خفاق، وقد وصلت إلىٰ ذروة الحس، وأخذت تعلو وتعلو حتىٰ أطلق المايسترو أخيرًا بإشارة من يده النغمة الأخيرة الصادمة في الأثير الموسيقي ماحيًا الستة عشر عازفًا بشريًا من الوجود، فانطلقت كدوي الرعد في طبقة الفلات ميجور، ثم تبع ذلك بعد صمت وظلام شبه مطبق انتصاب تدريجي، وأخذ الصوت ينخفض رُويدًا عبر نغمات الربع، ينخفض حتىٰ تسيطر مجموعة نغمات متزامنة هامسة (بينما ظلَّت تنبض في الخلفية إيقاعات ٥: ٤) تلكأت النغمات لثوانٍ مشيعة حالةً من الترقب المكثف في الظلام لتأتي لحظة الإشباع بعدها أخيرًا، كان هناك انطلاق مفاجئ لألوان الشروق، وفي نفس اللحظة انطلق الستة عشر في الغناء:

«يا زجاجتي، أنت التي أردتك دومًا،

يا زجاجتي لماذا فُرّغت منك يومًا؟

كانت السماء داخلك زرقاء

والطقس جميلًا دون مراء

فلا توجد في العالم كله زجاجة

مثل زجاجتي الصغيرة العزيزة».

كان هنري ولينينا يدوران ويدوران مع خطوات رقصة الخطوات الخمس وسط الأربعمائة زوج الآخرين في حلبة الرقص بكاتدرائية وستمنستر، ولكنهما كانا في عالم آخر، عالم ودود دافئ ثري بالألوان، عالم عطلة سوما.

كم يبدو الجميع طيبين، جميلي المظهر، مسلين ومبهجين.
«يا زجاجتي، أنت التي أردتك دومًا ...».

لكن لينينا وهنري يملكان كل ما يريدان، فهما بالداخل، هنا والآن، آمنان في الطقس الجميل والسماء دائمة الزرقة. جلس الستة عشر عازفًا للساكسفون الحسي بجانب الآتهم عندما أنهكوا، ولعب جهاز الموسيقىٰ الآلية آخر ألحان موسيقىٰ البلوز المالتوسي، كان هنري ولينينا يبدوان كما لو كانا توأمًا من الأجنة يتمايلان معًا وسط موجات محيط من بديل الدم معبأ في زجاجة.

«أسعدتم مساءً أيها الأصدقاء الأعزاء، أسعدتم مساءً». كان هذا من مكبر الصوت الذي غلف أمر الانصراف بقفاز مخملي من النبرات المهذبة اللطيفة المنغمة: «أسعدتم مساءً أيها الأصدقاء الأعزاء».

انصاع هنري ولينينا مع الجميع طائعين للأمر وغادروا المبنىٰ، كانت النجوم المقبضة قد توسطت السماء، وعلىٰ الرغم من تلاشي معظم الغطاء الفاصل المكوِّن للافتات السماء؛ إلَّا أنَّ الرفيقين السعيدين استمرا علىٰ حالهما من الغفلة عن حال الليل، فقد صنعت الجرعة الأخرىٰ التي تناولاها من عقار سوما قبل موعد الإغلاق بنصف الساعة حائلًا لا يمكن اختراقه بين عقليهما وبين الكون، فأصبحا في حالة انعزال كاملة كما لو كانا عادا أجنة في زجاجتيهما، وفي تلك الحال عبرا الشارع، وفي تلك الحال استقلا المصعد إلىٰ غرفة هنري في الطابق الثامن والعشرين، ولكن رغم

كونها «في الزجاجة»، ورغم تناولها الجرام الثاني من سوما؛ إلَّا أنَّ لينينا لم تنسَ أن تتبع احتياطات منع الحمل التي وضحتها القوانين، فسنوات من التعليم المكثف عبر النوم، ثم ممارسة الاحتياط المالتوسي من سن الثانية عشر حتىٰ السابعة عشر ثلاث مرات أسبوعيًا كل ذلك جعل اتباع تلك الاحتياطات فعلًا آليًا لا مفر منه كطرف العين.

قالت بعد عودتها من الحمام: «نعم؛ هذا يذكرني بطلب فاني كراون، فهي تريد أن تعرف أين وجدت هذا الحزام المغربي الأخضر الذي أعطيتنيه».

كان برنارد يقوم بالخدمة المجتمعية التضامنية يومي خميس كل شهر بالتناوب، وبعد عشاء مبكر في نادي الأفروديت (والذي ترأسه هيلمهولتز بالانتخاب مؤخرًا وفقًا للقاعدة الثانية). استأذن برنارد من صديقه واستقل مركبة أجرة من السطح، وأخبر السائق أن يطير به إلىٰ مجمع الإنشاد المجتمعي بفوردسن، ارتفعت المركبة عدة مئات من الأمتار، ثم اتجهت شرقًا حيث وقع ناظرا برنارد علىٰ مجمع الإنشاد بضخامته وروعته في موقعه في لودجيت هيل وقد صوبت نحوه الكشافات بمساحته البالغة ثلاثمائة وعشرين مترًا من الرخام الأبيض الناصع كالثلج المقلد لطراز رخام مدينة كارارا الإيطالية، وعلىٰ الأطراف الأربعة لمهبط المروحيات برز حرف (T) هائل الحجم باللون القرمزي علىٰ خلفية السماء الداكنة، ومن أفواه أربعة وعشرين بوقًا ذهبيًا ضخمًا دوت موسيقىٰ صناعية مهيبة.

قال برنارد في نفسه عندما لمح هنري الكبير[1]: «تبًا! لقد تأخرت». وتصديقًا لكلامه، وبينما كان يدفع أجرة المركبة الطائرة دق هنري الكبير مُعلنًا الساعة بصوت رخيم ضخم: فورد، ورددت الأبواق الذهبية خلفه تسع مرات: (فورد ... فورد .... فورد ...)، فهرول برنارد إلىٰ المصعد.

كانت قاعة الاحتفالات الكبيرة التي تقام فيها الاحتفالات بيوم فورد ونشاطات الإنشاد المجتمعي الأخرىٰ تقع في أسفل المبنىٰ، يعلوها سبعة آلاف غرفة بواقع مائة غرفة لكل طابق، تستخدمها مجموعات التضامن عند أداء خدماتهم كل أسبوعين، هبط برنارد إلىٰ الطابق الثالث والثلاثين وهرع عبر الممر إلىٰ الغرفة (٣٢١٠)، وقف مترددًا أمام بابها هنيهة، ثم مستجمعًا نفسه دفع الباب ودلف إلىٰ الداخل.

حمدًا لفورد أنَّه لم يكن آخر من وصل، فقد رأىٰ هناك ثلاثة مقاعد خالية من مجموع الاثني عشر مقعدًا المتراصين حول الطاولة الدائرية، جلس علىٰ أقربها إليه محاولًا عدم لفت الانتباه إليه قدر الاستطاعة، ثم استعد للتقطيب في وجه من يأتي متأخرًا عنه حال وصوله.

التفتت إليه الفتاة علىٰ يساره متسائلة: «ماذا كنت تلعب بعد الظهيرة؟ الحواجز أم الكهرومغناطيسية؟».

---

(١) ساعة مجمع الإنشاد علىٰ غرار بج بن.

نظر إليها برنارد (فورد! إنها مورجانا روثتشيلد!)، اضطر للاعتراف مرتبكًا أنَّه لم يلعب أيّا منهما، وقد علت وجهه حمرة الخجل، حدقت فيه مورجانا في دهشة وخيم صمت غير مريح، قبل أن تشيح عنه عامدة وتقبل علىٰ الرجل الأكثر اهتمامًا بالرياضة علىٰ يسارها.

فكر برنارد تعيسًا: «بداية موفقة لخدمة التضامن».

وتنبأ لنفسه بفشل جديد في التكفير عن زلله، وقرَّع نفسه مفكرًا لو كان فقط أعطىٰ نفسه الفرصة للتطلع حوله بدلًا من الإسراع إلىٰ أقرب المقاعد الخالية! كان يمكنه وقتها الجلوس بين فيفي برادلاف وجوانا ديزل، بدلًا من أن يذهب كالأعمىٰ ويضع نفسه بجانب مورجانا، مورجانا! فورد! يا لحواجبها السوداء تلك! أو بالأصح يا لحاجبها، حيث إنَّهما يلتقيان فوق أنفها في خط متصل، فورد! وعن يمينه تجلس كلارا ديتردنج، سلمنا أن حاجبي كلارا لا يلتقيان، ولكنَّها فائرة القد جدًّا، بينما كانت كل من فيفي وجوانا معتدلتين تمامًا؛ فقد كانتا شقراوين ممتلئتين في غير ضخامة، والآن يجلس ذلك المغفل الأخرق توم كاواجوتشي بينهما. كان آخر القادمين ساروجيني إنجلز.

قال رئيس المجموعة بصرامة: «لقد تأخرتِ، لا تفعليها ثانيةً».

اعتذرت ساروجيني، وانزلقت في مكانها بين جيم بوكانوفيسكي وهربرت باكونين، اكتمل عدد الحضور، وتمت

حلقة مجموعة التضامن دون فجوات، رجل تجاوره امرأة يجاورها رجل، وهكذا دواليك في دائرة تبادلية لا نهائية حول الطاولة، اثنتا عشر عضوًا لديهم الاستعداد أن يُدمجوا في فرد واحد، أن يُلم شملهم، ينصهروا، يفقدوا هُوياتهم المستقلة في كيان واحد أكبر.

وقف رئيس المجموعة ورسم بيده علامة حرف (T) علىٰ بطنه، وأدار موسيقىٰ صناعية؛ لينطلق دوي الطبول الخافت الذي لا يكل، تصاحبه جوقة آلات متنوعة متلاطمة تعيد مرارًا وتكرارًا اللحن المؤثر للترنيمة التضامنية الأولىٰ المرة بعد الأخرىٰ، لم تكن الأذن هي التي تستقبل الترنيمة النابضة بل الصدر، كان انتحاب وقعقعة الإيقاع المتواتر يتجاوز العقل إلىٰ اللعب علىٰ أوتار التوق إلىٰ التعاطف.

أشار الرئيس بيده بعلامة حرف (T) مجددًا وجلس، وبدأت الخدمة، وضعت أقراص سوما المحببة في منتصف الطاولة، وتناول الحضور قدح المحبة المكون من كريمة الفراولة المثلجة المخلوطة بسوما، يمررونه من يد لأخرىٰ قائلين الصيغة المعروفة: «أنا أشرب نخب فنائي». اثنا عشر جرعة تناولها الاثنا عشر عضوًا، وبمرافقة الأوركسترا الآلية أنشدوا الترنيمة التضامنية الأولىٰ:

«فورد نحن اثنا عشر، فاجعلنا واحدًا،
كقطرات منسابة في نهر جمعي،
بحقك اجعلنا نعدو سويًا

حثيثًا كسيارة عتيقة لامعة».

ترنموا باثني عشر مقطعًا شعريًا مترعين بالاشتياق، ثم تداولوا قدح المحبة مرة ثانية قائلين صيغة أخرىٰ: «نخب الكائن الأعظم». وشربوا جميعهم.

بيما ظلَّت الموسيقىٰ تعزف دون انقطاع، والطبول تدق، حتىٰ أصبح وقع الإيقاعات هوس في الحشا، ثم شدوا بالترنيمة التضامنية الثانية:

«هلم أيُّها الكائن الأعظم، يا صديقنا الأنيس،
يا من تُفني الاثني عشر في واحد،
كم نتوق للموت؛
لأنَّه عند النهاية
تبدأ حياتنا الأرحب».

ثم تلو اثني عشر مقطعًا شعريًا آخرين، وكان مفعول سوما قد بدأ هاهنا؛ فالتمعت العيون، وتوردت الوجنات، وأضاءت الوجوه بضي داخلي متلألئ مصدره خير كوني انعكس في ابتسامات ود وبِشر، وحتىٰ برنارد بدأ يشعر بنفسه تذوب، وعندما التفتت مورجانا روثشيلد، وابتسمت له ابتسامة متألقة، بذل قصارىٰ جهده كي يجيبها بالمثل، ولكن يا للخسارة! فهذا الحاجب، هذا الخط الأسود الذي دمج اثنين في واحد ما زال هناك، وهو لا يستطيع التغاضي عنه مهما جَهِد، فهذا السيلان الحادث في مشاعره لم

يصل به بعد لهذه الدرجة، ربما لو كان يجلس بين فيفي وجوانا . . .، وللمرة الثالثة دار عليهم قدح المحبة، **وقالت مورجانا روثتشيلد التي صادف أن يكون هذا دورها لاستهلال الطقس الدائر:** «أشرب نخب دنو مقدمه».

كانت نبرتها عالية جذلة، تجرعت الشراب وناولت برنارد القدح الذي كرر العبارة محاولًا مخلصًا أن يشعر بدنو القدوم حقًّا: «أشرب نخب دنو مقدمه».

ولكن الحاجب المتصل ظل يطارده ويشتت أفكاره، أما اقتراب المجيء فظل بالنسبة له أمرًا غاية في البعد، احتسىٰ الشراب، ثم ناول القدح لكلارا ديتردينج، **وقال لنفسه:** «سوف يكون فشلًا آخر، أعلم أنَّ هذا ما سيحدث». ومع ذلك مضىٰ يبذل وسعه في الابتسام المشرق.

دار قدح المحبة دورته، ورفع الرئيس يده معطيًا إشارة فشرعت الجوقة في إنشاد الترنيمة الثالثة:

«أُشعر بمجيء الكائن الأعظم،
وسر وافرح، وفي حبورك فلتمت،
وذب مع دقات الطبول
لأنني أنت، وأنت أنا».

وبتوالي الأبيات واحدًا بعد الآخر، اهتزت الأصوات طربًا وزادت الإثارة، وصار الشعور بقرب القدوم كشحنة كهربية في

الأثير، وأغلق الرئيس الموسيقىٰ، ومع النغمة الأخيرة من المقطع الشعري الأخير خيم صمت مطبق، صمت ناجم عن طول ترقب، يرتعش زاخرًا بالحياة زاحفًا كتيار يسري في الأجسام، مد الرئيس يده وفجأة ظهر صوت قوي عميق موسيقي أجمل من أي صوت يمكن أن يخرج من حنجرة بشرية وأكثر غناءً ودفئًا، نابضًا بمشاعر الحب والحنين والعطف، كان صوتًا رائعًا غامضًا من خارج هذا العالم يتحدث ببطء شديد من فوق مستوىٰ رؤوسهم بنبرة آخذةٌ في الانخفاض: «فوردا! فوردا! فوردا!».

أثار الصوت موجة دفء بدأت من الضفيرة الشمسية[1] إلىٰ أطراف البنان لمن سمعوه، وطفرت عيونهم بالدموع، وخفقت قلوبهم وارتعدت حشاهم، وكأنَّما اكتسبت أعضاؤهم حياة خاصة بها، وكلما سمعوا الصوت «فوردا!»؛ ذابوا، وبدأوا في التلاشي والتبدد، ثم فجأة علت نبرة الصوت مفاجئة إياهم: «استمِعوا». فاستمَعوا، لتهبط نبرة الصوت بعد توقف قصير آيلة إلىٰ الهمس، ولكنَّه همس يخترق الوجدان أحدُّ من أي صراخ: «خطوات الكائن الأعظم».

---

(١) (الشاكرة الثالثة)، أو (الضفيرة الشمسية): مصطلح من مصطلحات فلسفة الطاقة في الأديان الشرقية، وهي مكان من أماكن الطاقة في الجسم، وتقع أسفل القفص الصدري وراء المعدة، ويُقال: إنَّها مركز القوة الشخصية ومكان (الذات)، والعاطفة والغضب والقوة والاندفاع، وهي مركز التأثيرات، واستقبال الإرشاد الروحي والتطور النفسي.

ثم عاد الصوت وكرر العبارة مرة أخرىٰ: «خطوات الكائن الأعظم». ثم: «خطوات الكائن الأعظم علىٰ الدرج». قبل أن يتلاشىٰ الصوت، ويسود الصمت مرة أخرىٰ، واشتد شعور الترقب مجددًا بعد تراخيه اللحظي؛ ليصبح يقظًا وثابًا بأشد ممَّا كان، حتىٰ ليكاد يبلغ في شدته حد التمزق.

خطوات الكائن الأعظم؟! نعم؛ إنَّهم يسمعونها، إنها تهبط الدرج، وتقترب رويدًا رويدًا من نهاية الدرج الخفي، خطوات الكائن الأعظم، وفجأة وصلوا للذروة الممزِقة، وهبت مورجانا روثتشايلد واقفة، وقد برقت عيناها، وانفرجت شفتاها وصاحت: «أنا أسمعه، أنا أسمعه». وصرخت ساروجيني إنجلز: «إنَّه قادم».

ونهضت فيفي برادلاف وتوم كاواجوتشي في نفس اللحظة هاتفين: «نعم؛ إنَّه قادم، أنا أسمعه».

وشهدت جوانا بكلام عيي: «آوه . . . آوه . . . آوه . . . ».

وهتف جيم بوكانوفيسكي: «إنَّه قادم».

انحنىٰ الرئيس إلىٰ الأمام وبلمسة من يده انطلقت إيقاعات الصنج وآلات النفخ النحاسية في حُمّىٰ من الدق والإيقاعات.

صرخت كلارا ديتردنج: «آهٍ! إنَّه قادم». كانت تصرخ كأنَّما تُذبح.

وشعر برنارد أنَّ الوقت قد حان كي يبدي استجابة بدوره فهب صارخًا: «أنا أسمعه، إنَّه قادم».

ولم يكن الأمر كذلك، فهو لم يسمع شيئًا، وبالنسبة له لم يكن هناك من قادم، لم يكن هناك أحد رغم الموسيقىٰ والإثارة المتصاعدة، ولكنَّه لوَّح بذراعيه وهتف كما يهتف أكثرهم تأثرًا، وعندما بدأ الآخرون في الاهتزاز والتململ ودق الأرض بأقدامهم تبعهم بالاهتزاز والتململ، وهكذا استمرت الجولة في موكب دائري من الراقصين والراقصات وأيديهم تحيط بوسط من يليهم في الحلقة، صارخين في انسجام، مدبدبين بأقدامهم في توافق مع النغمات الموسيقية، مصاحبين هذا بالصفع علىٰ الأرداف المقابلة لهم، وارتفع صوت اثني عشر زوجًا من الأيدي تصفع كيدٍ واحدة اثني عشر ردف: «اسمعه! اسمعه قادمًا».

وتتسارع الموسيقىٰ، وتتسارع معها دبدبة الأقدام وصفع الأيدي، أسرع وأسرع، وفجأة دوىٰ صوت من طبقة الباص الضخمة يعلن بالكلمات عن قرب التكفير وتمام التضامن، عن اندماج الاثني عشر في الواحد، عن حلول الكائن الأعظم، وأخذ ينشد: «طقس العربدة».

بينما ظلت الطبول تقرع دقاتها المحمومة:

«طقس العربدة، فورد ومداعبة،

قبِّل الفتيات واجعلهن واحدة،

وفي سلام؛ فليتحد الفتية مع الفتيات،

في طقس عربذة يفرغ الكبت».

التقط الراقصون المقطع المتكرر للأنشودة الطقوسية مرددين إياها :

«طقس العربدة، فورد ومداعبة،

قبِّل الفتيات . . .».

ومع غنائهم بدأت الأضواء تخبو ومع خفوتها تزداد حرارةً وثراءً واحمرارًا، حتىٰ أصبحوا يرقصون في لون الغسق القرمزي المميز لمتاجر الأجنة، «طقس العربدة . . .».

واستمر الراقصون في الظلام الجنيني المصطبغ بلون الدم في الدوران حول بعضهم البعض ودق الأرض بأقدامهم في إيقاع لا يكل، «طقس العربدة . . .». ثم اضطربت الدائرة وانفضت وتناثرت علىٰ حلقات الأرائك المحيطة بالطاولة في مدارات، في القلب منها الطاولة وحولها المقاعد التابعة لفلكها، واستمر الصوت العميق في الدندنة والهدهدة الحانية: «طقس العربدة . . .».

وقد بدا في ذلك الغسق القرمزي كما لو كانت هناك يمامة سوداء عملاقة تحلق بحنو رحيم فوق الراقصين الممددين والمستلقين.

وقفوا علىٰ السطح في تلك الليلة الهادئة الدافئة، وقد فرغ (هنري الكبير) لتوه من الدق إحدىٰ عشر مرة، وقالت فيفي برادلاف: «ألم يكن ذلك رائعًا؟».

ونظرت إلىٰ برنارد نظرة جذلة، ولم يكن جذلها محمومًا ببقايا الإثارة أو الانفعال، فبقاء الإثارة يعني عدم تحقق الرضا، ولكن نشوتها كانت النشوة الناجمة عن تحقق الإشباع، والإحساس

بالسلام المتحقق من عيش حياة طيبة متوازنة وليس ذلك الآتي من الشبع الفارغ أو الفضاء، سلام أتىٰ من طاقات ساكنة بلغت حد الاتزان، إنَّه سلام حيوي ثري؛ وذلك لأنَّه إن كانت خدمة التضامن قد أخذت فقد منحت، لقد استنزفتهم لتعيد تجديد حيويتهم، وها هي تشعر بالامتلاء والاكتمال، كانت ما تزال تشعر أنها أكبر من مجرد شخصها، ألحت في سؤالها متطلعة إلىٰ وجه برنارد بتلك العينين المشرقتين بلمعة غير طبيعية: «ألم تجد ذلك رائعًا؟».

أجابها كاذبًا: «نعم، وجدته رائعًا».

ثم أشاح بوجهه، كان إشراق وجهها المتأثر بما حدث يحمل اتهامًا مبطنًا وتذكيرًا ساخرًا له باختلافه وانفصاله عن الآخرين، كان يشعر بالانعزال البائس الآن مثلما كان يشعر به عند بدء شعائر الخدمة، بل لقد زاد انعزاله لشعوره بالخواء الذي لم يجد ما يملأ فراغه، وللإشباع الذي لم يتحقق، كان منعزلًا محرومًا من التكفير والتطهر بينما زملائه يرفلون في نعيم الاتحاد بالكائن الأعظم، وحيدًا حتىٰ بين ذراعي مورجانا، بل أكثر وحدة حينها من ذي قبل، كان يعي تفرده أكثر من أي وقت مضىٰ، وقد خرج من هذا الغسق القرمزي إلىٰ توهج المصابيح الكهربية العادية بشعور مضاعف من الوعي بنفسه التي بين جنبيه بوضوح بلغ حد الألم الممض، كان في غاية البؤس، وربما كان الخطأ خطأه (كما اتهمته عيناها اللامعتان)، كرر قوله: «رائعٌ للغاية».

ولكن كل ما كان يستطيع التفكير فيه في تلك اللحظة هو حاجب مورجانا.

الفصل السادس

غريب، غريب، غريب، كان هذا حكم لينينا علىٰ برنارد ماركس، إنَّه غريب الأطوار بالتأكيد، حتىٰ إنَّها تساءلت مرارًا في الأسابيع التالية عمَّا إذا كان عليها أن تغير رأيها فيما يتعلق بعطلة نيو ميكسيكو وتذهب إلىٰ القطب الشمالي مع بنيتو هوفر، كانت المشكلة في أنَّها تعرف القطب الشمالي، وقد زارته مع جورج إدزل الصيف الفائت فقط، بالإضافة إلىٰ أنَّها وجدته مكانًا كالحًا، ولم تجد ما تفعله، كان الفندق عتيق الطراز بشكل بائس، فلم تكن هناك أجهزة تلفاز في غرف النوم، كما لم يكن هناك أرغن الروائح، فقط بعض الموسيقىٰ الآلية شديدة الرداءة، أمَّا ملاعب اسكواش المصاعد؛ فلا يتعدىٰ عددها الخمسة وعشرين ملعبًا يفترض بهم أن يخدموا ما يزيد علىٰ المائتي ضيف، لا، لا، لا يمكنها أن تواجه رحلة القطب الشمالي مرة أخرىٰ، هذا غير أنَّها لم تذهب إلىٰ أمريكا إلَّا مرة واحدة فقط، وحتىٰ تلك المرة لم تكن مرضية، كانت عطلة نهاية أسبوع بخسة التكاليف في نيويورك، هل ذهبت ساعتئذٍ مع جان جاك حبيب الله أم مع بوكانوفيسكي جونز؟ لا يمكنها التذكر، علىٰ أية حال لم تكن عطلة ذات أهمية،

كانت إمكانية السفر للغرب مرة أخرىٰ ولأسبوع كامل فكرة جذابة للغاية، والأكثر من ذلك أنَّهما ولثلاثة أيام من ذلك الأسبوع سيكونان في المحمية البرية، ولم يكن قد ذهب أكثر من ستة أشخاص من المركز كله إلىٰ أية محميات برية، وكان برنارد كأحد أفراد (الألفا) موجب المختصين في علم النفس من القلة التي يُمكنها أن تحصل علىٰ تصريح بالزيارة، وهكذا كانت فرصة نادرة للينينا، ولكن كذلك كانت غرابة أطوار برنارد نادرة، ممَّا جعلها تتردد في اغتنام الفرصة، وتفكر في المخاطرة بالذهاب إلىٰ القطب الشمالي ثانيةً مع بنيتو المرح الذي اعتادت صحبته، فعلىٰ الأقل بنيتو فرد طبيعي في حين أن برنارد . . .

«كحول في السائل المغذي بديل الدم».

كان ذلك هو تفسير فاني لكل انحراف وغرابة أطوار، ولكن هنري الذي تحدثت معه قلقةً عن خدنها الجديد ذات ليلةٍ عندما كانا في الفراش سويةً شبهه بوحيد القرن قائلًا بأسلوبه المقتضب القوي: «لا يُمكنك أن تعلِّمي وحيد القرن حِيلًا، هناك رجال يكونون كوحيد القرن، لا يستجيبون استجابةً مناسبّة للتكييف، مساكين! وبرنارد أحد هؤلاء، من حسن حظه أنَّه يجيد عمله، وإلَّا لم يكن المدير ليبقي عليه في المركز».

ثم أضاف مواسيًا: «علىٰ أية حال، اعتقد أنَّه لا ضرر منه».

ربما كان غير ضار، ولكنَّه مربك، مثال ذلك هوسه بالخصوصية، وهذا يعني من الناحية العملية ألَّا يستطيع فعل أي

شيء، فأنّىٰ له بتلك الخصوصية؟! وأين يستطيع أن يفعل أي شيء في غير العلن؟ (سوىٰ الذهاب للفراش بالطبع، لكن ليس هذا شيئًا يمكنك أن تقوم به طول الوقت)، فما المتاح له إذن إلَّا أقل القليل؟

كان أول يوم خرجوا فيه سويةً بعد الظهيرة جميلًا صحوًا؛ فاقترحت لينينا أن يذهبوا للسباحة في النادي الريفي في مدينة توركواي في ديفون، ثم يتبعوا ذلك بتناول العشاء في اتحاد أكسفورد، لكن برنارد لم يعجبه المكان لأنَّه سيكون مزدحمًا، فاقترحت أن يذهبوا للعب جولة من الجولف الكهرومغناطيسي في سانت أندروز، ولكن برنارد رفض مرة أخرىٰ، فقد كان يعتبر تلك اللعبة مضيعة للوقت.

فسألت لينينا بشي من العجب: «ففيم سنقضي الوقت إذن؟».

هنا عرفت أنَّ الوقت يمكن أن ينقضي في التنزه في منطقة البحيرة كما اقترح عليها، حيث يمكنهم أن يحطوا فوق جبل سكيدو، ثم يسيروا لساعتين وسط نباتات الخلنج «لأكون وحدي معك يا لينينا».

«ولكن يا برنارد هذا سيجعلنا نقضي الليل كله وحدنا».

فتورد وجهه خجلًا وأشاح به بعيدًا مغمغمًا: «عنيت أن نقضي الوقت وحدنا نتحدث».

«نتحدث؟! فيم؟».

التنزه سيرًا علىٰ الأقدام والتحدث يبدوان نشاطين عجيبين

لقضاء فترة ما بعد الظهيرة.

أقنعته في النهاية بعد عناء وعلىٰ خلاف رغبته أن يطيرا إلىٰ أمستردام لمشاهدة نصف النهائي في بطولة مصارعة الوزن الثقيل للنساء.

تذمَّر قائلًا: «في الزحام كالعادة».

وظلَّ علىٰ عبوسه معاندًا طوال فترة ما بعد الظهيرة، رافضًا التحدث إلىٰ أصدقاء لينينا (وقد قابلا العشرات منهم في الحانة التي تقدم المثلجات بالسوما في فترة الاستراحة بين الجولات)، وعلىٰ الرغم من بؤسه؛ إلَّا أنَّه رفض البتة تناول نصف جرام من مثلجات التوت التي ألحت عليه في تناولها، «أفضل أن أظل علىٰ طبيعتي ولو كنت رديء الطبع علىٰ أن أكون شخصًا آخر مهما كان مرحًا ظريفًا».

قالت لينينا مرددة قطعة ثمينة من الحكمة الملقنة أثناء النوم «الوقاية بجرام خير من العلاج بتسعة».

أبعد برنارد يدها الممتدة بالكأس بصبر نافد، فقالت: «صبرًا، لا تفقد أعصابك، تذكر أن سنتيمتر مكعب يبرئ عشرة مشاعر مقبضة».

فصرخ بها: «بحق فورد اصمتي!».

هزت لينينا كتفيها وأكملت في وقار: «الجرام أفضل دائمًا من اللعان».

وشربت كأس المثلجات.

وفي طريقهما عائدين عبر القناة أصر برنارد علىٰ إيقاف مروحيته والتحليق فوق الأمواج علىٰ مسافة مائة قدم، كان الطقس قد تغير للأسوأ وقد هبت رياح جنوبية غربية، وكانت السماء غائمة.

قال آمرًا إياها: «انظري!».

قالت لينينا وهي تنكمش بعيدًا عن النافذة: «ولكن هذا فظيع».

وقد أزعجها أيما إزعاج اندفاع الليل بخوائه من خلال زبد الماء المعتم المتلاطم أسفل منهم، ووجه القمر الشاحب شديد الهزال الذي يحاول أن يبرز متحيرًا من وراء الغيوم المسرعة، «دعنا ندير المذياع، أسرع».

امتدت يدها إلىٰ زر المذياع في لوحة القيادة وأدارته عشوائيًا، ليشدو ستة عشر صوتًا مرددين في نغمة متكررة عالية النبرة:

«كانت السماء داخلك زرقاء والطقس جميلًا . . .». ثم فواق يليه صمت فقد أطفأ برنارد الموجة،

«أريد أن أتطلع إلىٰ البحر في سلام، لا يستطيع المرء مجرد النظر مع هذه الضوضاء البغيضة».

«ولكنَّها جميلة، كما أنَّني لا أريد أن أنظر».

فأصر: «ولكنَّني أريد أن أنظر، إن هذا يجعلني أشعر كما لو أنني . . .».

وتردد باحثًا عن كلمات يعبر بها عما يجيش بصدره!

«إنَّها تجعلني أشعر بأريحية أكثر مع نفسي، كما لو كانت هذه هي نفسي الحقيقية التي ألتقيها بعد غياب -لو أنَّك تعلمين ما الذي أتحدث عنه- ولست مجرد جزء من شيء آخر ذائب فيه تمامًا، لست مجرد خلية في الكيان الاجتماعي، ألا يجعلك هذا تشعرين بالمثل يا لينينا؟».

ولكن لينينا استمرت في الهتاف: «كلا إنَّه فظيع، فظيع، وكيف يمكنك التحدث هكذا عن زهدك في الاندماج في كيان المجتمع؟ ففي النهاية الكل يعمل من أجل الجميع، ولا يمكننا الاستغناء عن أحد، حتىٰ الإبسيلون . . .».

قاطعها برنارد ساخرًا: «نعم أعرف، حتىٰ (الإبسيلون) لهم فائدتهم، وكذلك أنا لي فائدتي، ولكنني أتمنىٰ لو لم يكن الحال اللعين كذلك».

صدمت لينينا من تجديفه، وهتفت باسمه مستنكرة في كرب واندهاش «كيف يمكنك أن تتفوه بذلك؟».

تغيرت نبرة صوته وهو يردد تساؤلها متأملًا: «كيف يمكنني ذلك؟ لا ليس هذا هو السؤال، السؤال الحقيقي هو لماذا لا يمكنني ذلك؟ أو بالأحرىٰ ولأنَّني أعلم جيدًا لماذا، فالسؤال هو: ما الذي سيكون عليه الحال لو أنَّه كان باستطاعتي أن أفعل؟ لو أنَّني كنت حرًّا ولست مستعبدًا بالتكييف الذي تعرضت له؟».

«ولكن يا برنارد أنت تقول أكثر الأشياء بشاعةً».

«ألا تتمنين لو كنتِ حرة يا لينينا؟».

«لا أعلم ماذا تعني، أنا حرة، حرة أن أستمتع بوقتي علىٰ أحسن وجه، فالكل سعداء هذه الأيام».

ضحك ... «نعم، الكل سعداء هذه الأيام».

«نحن نغرس هذه العبارة في عقول الأطفال من سن الخامسة، لكن ألا تودين لو كنت حرة في أن تبحثي عن سعادتك بطريق آخر يا لينينا؟ بطريقتك الخاصة مثلًا وليس بالسبيل الذي يتبعه الجميع؟».

كررت: «لا أدري عم تتحدث!».

ثم التفتت إليه متضرعة: «أوه، دعنا نعود يا برنارد، أنا أكره هذا المكان بشدة».

«ألا تعجبك صحبتي؟».

«بالطبع يا برنارد، ولكنه هذا المكان البغيض».

«لقد ظننت أنه يمكننا أن ... أن نتقارب أكثر هنا، حيث لا شيء حولنا سوىٰ البحر والقمر، فنقترب من بعضنا أكثر ممَّا لو كنا وسط حشد من الناس، أو حتىٰ في غرفي الخاصة، ألا تفهمين هذا؟».

قالت بحزم عازمة علىٰ أن تحافظ علىٰ حالة عدم الفهم آمنَة: «أنا لا أفهم أيًّا من هذا، علىٰ الإطلاق، خاصةً .... (وأكملت

بنبرة مغايرة) لا أفهم لماذا لا تتناول سوما عندما تتملكك هذه الأفكار الشنيعة، لكنت ستنسىٰ كل شيء عن هذه الأفكار، وبدلًا من الشعور بالبؤس ستكون مسرورًا، في غاية الحبور».

وابتسمت ابتسامة داعية رغم القلق البادي في عينيها تحاول أن تتملقه بغنج.

تفرس فيها صامتًا بوجه شديد الجدية لا يبدي استجابة لدلالها، وبعد عدة ثوانٍ جفلت عينا لينينا بعيدًا وأطلقت ضحكة صغيرة مضطربة، وفتشت عن شيء لتقوله فلم تجد، وطال الصمت.

وعندما تحدث برنارد أخيرًا كان صوته خافتًا منهكًا: «حسنًا إذن، سوف نعود». وضغط بشدة علىٰ دواسة الوقود لتندفع المركبة إلىٰ السماء، وعلىٰ علو الأربعة آلاف أدار مروحته، وحلقوا صامتين لدقيقة أو اثنتين، وعلىٰ حين غرة بدأ برنارد في الضحك، وهو ما ظنته لينينا غريبًا لكنه كان يضحك علىٰ الأقل.

وغامرت بالسؤال: «أتشعر بتحسن؟».

أجابها برفع يده عن لوحة التحكم وتطويقها بذراعه وأخذ يلامسها مداعبًا، وفكرت: «حمدًا لفورد! لقد عاد علىٰ ما يرام».

بعد نصف ساعة وصلوا إلىٰ غرفته الخاصة، ازدرد برنارد أربعة أقراص من سوما، وأشعل المذياع والتلفاز كليهما، وبدأ في خلع ثيابه.

تساءلت لينينا بنبرة ماكرة ذات مغزىٰ عندما قابلت برنارد بعد ظهر اليوم التالي علىٰ السطح: «أقضيتَ وقتًا ممتعًا بالأمس؟».

أومأ برنارد برأسه، وصعدا إلىٰ الطائرة التي اهتزت هزة خفيفة عند إقلاعها ثم حلقت في طريقها.

قالت لينينا وهي تربت علىٰ ساقيها: «الجميع يقولون أنِّي ملفوفة القوام بفظاعة».

كرر برنارد: «نعم، بفظاعة». وكانت عيناه متألمتين وهو يقول في نفسه «كاللحم».

رفعت إليه عينين قلقتين: «ولكنَّك لا تظنُّ أنَّني ممتلئة بشكل زائد؟».

هز رأسه نافيًا، وفي نفسه: «نعم تمامًا كقطعة من اللحم».

«ترىٰ أنَّه لا بأس بي إذن؟».

إيماءة أخرىٰ،

«من كل النواحي؟».

بصوت مسموع: «تمامًا».

ثم في نفسه: «إنَّها تفكر في نفسها بهذا الشكل، هي لا تمانع أن تكون مجرد قطعة لحم».

ابتسمت لينينا ظافرةً، لكن شعورها بالرضا كان سابقًا لأوانه، فقد استطرد برنارد بعد توقف قصير: «ورغم ذلك، فقد تمنيت لو كان ختام ليلة أمس مختلفًا».

«مختلفٌ؟».

«وهل هناك أنواع أخرىٰ تختم بها مثل هذه الأمسيات؟».

فحدد برنارد: «لم أرد أن تنتهي تلك الأمسية بذهابنا إلىٰ الفراش معًا».

شُدهت لينينا!

«ليس فورًا، ليس في يومنا الأول معًا».

«ولكن إذن ماذا . . .؟».

وهكذا بدأ يتحدث بهراء كثير خطير غير مفهوم، وقد جهدت لينينا لتصم آذان عقلها عن السمع، ولكن بين كل فينة وأخرىٰ تصر عبارة علىٰ اختراق حاجز الصمم لتُسمع، وقد سمعته يقول: «. . . لتجريب أثر الإحجام عن إشباع النزوات!».

لمست الكلمات زنبرك في عقلها؛ **فقالت برزانة:** «أبدًا لا تؤجل حتىٰ الغد التسلية التي يمكن أن تنالها اليوم».

فكان تعليقه الوحيد هو: «مائتي تكرار، مرتين أسبوعيًّا، من سن الرابعة عشر حتىٰ السادسة عشر والنصف».

واستمر في هذيانه السيئ، حتىٰ سمعته يقول: «أريد أن أعرف ما العاطفة الجياشة؟ ما الشغف؟ أريد أن أختبر المشاعر القوية».

أعلنت لينينا: «إذا شعر الفرد ترنح المجتمع».

«حسنًا ولماذا لا يترنح قليلًا؟».

«برنارد!».

ولكن برنارد تمسك بموقفه دون تراجع أو ارتباك، وزاد: «إنَّنا بالغون فقط من الناحية الذهنية وفي ساعات العمل، ولكنَّنا كالرضع فيما يتعلق بالمشاعر والرغبات».

«المبجل فورد يحب الأطفال».

تجاهل مقاطعتها وأكمل: «لقد اكتشفت بالأمس فجأة أن المرء يمكنه أن يظل بالغًا طوال الوقت».

قالت لينينا بعزم: «لا أفهم».

«أدرك هذا، ولذلك ذهبنا إلىٰ الفراش معًا بالأمس كالأطفال، بدلًا من أن نتصرف كبالغين وننتظر».

أصرت لينينا: «ولكن الأمر كان ممتعًا، أليس كذلك؟».

«أعظم متعة». ولكن صوته كان بالغ الأسىٰ وملامحه غاية في البؤس؛ حتىٰ إن كل إحساس بالظفر لدىٰ لينينا قد تبخر تمامًا، ربما وجدها ممتلئة أكثر ممَّا يجب إذن.

كان كل ما قالته فاني عندما أتتها لينينا وأخبرتها بما حدث: «كذا أخبرتك، إنَّه ذلك الكحول الذي وضعوه في بديل الدم خاصته».

أصرت لينينا: «رغم ذلك؛ فإنَّه يعجبني، فهو يملك يدين جميلتين، كما أنَّ الطريقة التي يحرك بها كتفيه جذابة للغاية».

ثم تنهدت قائلة: «فقط أتمنىٰ لو لم يكن غريب الأطوار لهذه الدرجة».

توقف برنارد للحظةٍ أمام باب المدير، أخذ نفسًا عميقًا وشد قامته مستجمعًا نفسه لمواجهة النفور والاستنكار اللذين يعلم يقينًا أنه واجدهما بالداخل، قبل أن يطرق الباب ويدلف إلىٰ الغرفة.

قال برنارد بلهجة بسيطة لا مبالية قدر ما استطاع: «هذا التصريح يتطلب موافقتك أيها المدير».

ووضع الورقة علىٰ طاولة الكتابة.

ألقىٰ عليه المدير نظرة حادة لاذعة، ولكن تأشيرة مكتب مراقب العالم كانت علىٰ رأس الورقة، وتوقيع مصطفىٰ موند بالخط الأسود العريض أسفل الصفحة، كان كل شيء كما ينبغي أن يكون فلم يجد مناصًا من التوقيع بحروف اسمه الأولىٰ بالقلم الرصاص وبخط رفيع باهت خسيس تحت قدمي مصطفىٰ موند، كاد يعيد إليه الورقة دونما تعليق أو أمنية أن يباركه فورد برحلة ميسرة عندما، وقع بصره علىٰ شيء مكتوب في متن التصريح.

«محمية نيو ميكسيكو؟».

كانت نبرته وملامح وجهه الذي رفعه إلىٰ وجه برنارد تنطقان بالدهشة والانفعال.

دهشًا من دهشته أومأ برنارد، وسادت فترة من الصمت، ثم مال المدير في مقعده مقطبًا، وقال مخاطبًا نفسه أكثر ممَّا كان يخاطب برنارد: «ترىٰ كم مر من الوقت؟ عشرون عامًا علىٰ ما أظن، بل أقرب إلىٰ خمسة وعشرين عامًا، لا بُدَّ أنني كنت في مثل

عمرك . . .». ثم تنهد وهز رأسه.

شعر برنارد بالتململ والحرج أن يرتكب رجل شديد الحفاظ علىٰ التقاليد، شديد التدقيق في اتباع المسلك الصحيح كالمدير مثل تلك الهفوة المزعجة! وجعله هذا يرغب في أن يخفي وجهه أو ينطلق من الغرفة عدوًا، ليس لأنَّه يجد أي غضاضة في الاستماع للناس تتحدث عن ماضيها البعيد؛ فقد كانت تلك إحدىٰ مغروسات التعليم أثناء النوم والتي أثمرت الكثير من التحيزات المسبقة، والتي خيل إليه أنه تخلص منها تمامًا، ولكن ما أشعره بالخجل هو معرفته باستنكار المدير لمثل هذا السلوك، وأنه وقع فيما ينكره وارتكب المحرم، ترىٰ تحت أي ضغط داخلي؟ ومن وراء تململه استمع برنارد متلهفًا.

قال المدير: «لقد راودتني نفس الفكرة التي عرضت لك، فأردت أن ألقي نظرة علىٰ هؤلاء البدائيين، وأخذت تصريحًا لزيارة نيو ميكسيكو، وذهبت إلىٰ هناك في إجازتي الصيفية مع الفتاة التي كنت أواعدها آنذاك، كانت (بيتا سالب) إن لم تخني الذاكرة».

وأغمض عينيه «أظنها كانت شقراء، علىٰ أي حال أتذكر جيدًا أنَّها كانت لدنة العود ممتلئة القد، ذهبنا إلىٰ هناك وشاهدنا البدائيين، وامتطينا الخيول، وما إلىٰ ذلك، ثم كان يوم العطلة الأخير وعندها . . . حسنًا لقد ضلت الطريق، كنا قد ذهبنا لتسلق إحدىٰ تلك الجبال المقرفة، وكانت الحرارة شديدة والهواء خانقًا، وقِلنا بعد الغداء، أو أنا قِلت علىٰ الأقل، ولا بُدَّ أنَّها قد ذهبت

وحدها في نزهة سيرًا علىٰ الأقدام، علىٰ أي الأحوال لم أجدها عندما استيقظت، وقد داهمتنا أسوأ عاصفة رعدية شهدتها في حياتي، وهطلت الأمطار وومض البرق ودوَّىٰ الرعد، وانفلتت الخيول من عُقُلها وانطلقت هاربة، وقد تعثرت في محاولتي لإرجاعهم، وجرحت ركبتي فكنت أسير بالكاد، ومع ذلك فقد ظللت أبحث وأهتف مناديًا، وأبحث، ولكن لم يظهر لها أثر، ثم دار بخلدي أنَّها ربما تكون قد عادت إلىٰ منزل الاستراحة، فزحفت راجعًا إلىٰ الوادي من الطريق الذي سلكناه آنفًا، كانت ركبتي تؤلمني بشدة، كما أنَّني كنت قد فقدت مخزوني من سوما، واستغرقت رحلة العودة عدة ساعات، ولم أصل إلىٰ منزل الاستراحة إلىٰ ما بعد منتصف الليل، لكنَّها لم تكن هناك . . . لم تكن هناك . . . !».

وسكت المدير قبل أن يكمل أخيرًا: «حسنٌ، في اليوم التالي كان هناك بحث، لكننا لم نستطع العثور عليها، ولا بُدَّ أنها قد وقعت في إحدىٰ تلك الأخاديد في مكان ما، أو افترسها نمر صحراوي، فورد وحده يعلم، كان أمرًا مريعًا وكفىٰ، وقد أزعجني كثيرًا وقتها، أكثر ممَّا يجب علىٰ ما اعتقد؛ فقد كان حادثًا يمكن أن يقع لأي أحد، ولكن بالطبع «يستمر كيان المجتمع قائمًا حتىٰ لو استبدلت إحدىٰ خلاياه المكِونة له بأخرىٰ».

ولكن تلك المواساة الملقنة أثناء النوم لم تبد شديدة الفعالية له، فهز رأسه وقال: «الواقع أنَّني أحلم بهذا الأمر من وقت لآخر».

واستطرد في صوت خافت: «أحلم بالاستيقاظ علىٰ صوت هزيم الرعد لأجدها قد اختفت، وأحلم أنني أبحث وأبحث، أحاول أن أجدها تحت الأشجار».

وسكت غارقًا في ذكرياته.

علق برنارد وقد شعر بما يشبه الحسد: «لابُدَّ أنَّ الأمر كان صدمة مروعة لك». جفل المدير عند سماع صوته وقد استفاق إلىٰ الحاضر شاعرًا بالإثم من استغراقه في رحلة الذكريات، اختلس نظرة إلىٰ برنارد، ثم غض بصره وقد اصطبغت بشرته بحمرة قانية، ثم أعاد النظر إليه متهمًا هذه المرة وغاضبًا وقد استعاد رزانته: «لا تتخيل أنِّي كنت علىٰ علاقة غير محتشمة مع الفتاة، لم يكن هناك أي تورط عاطفي ولا علاقة طويلة المدىٰ، كان كل شيء صحيًا وطبيعيًا تمامًا».

وناول برنارد التصريح قائلًا: «لا أدري حقًّا ما الذي جعلني أضجرك بهذه الحكاية التافهة».

وغاضبًا من نفسه ساخطًا عليها لكشفه عن هذا السر المشين صبّ جام غضبه في برنارد، وكان الغل يبدو في عينيه واضحًا وهو يستطرد: «وعلي أن أنتهز هذه الفرصة يا سيد ماركس كي أصرح لك أنني لست مسرورًا البتة بالتقارير التي وردتني بشأن سلوكك خارج أوقات العمل، قد تقول إنَّ هذا لا يعنيني، ولكنَّك ستكون مخطئًا، فأنا معني بسمعة المركز الطيبة، وعلىٰ العاملين لدي أن يكونوا فوق الشبهات، خاصة أولئك الذين ينتمون للطبقات العُليا، إنَّ (الألفا)

يتم تكييفهم ببراعة حتىٰ أنهم لا يحتاجون إلىٰ تصنُّع الصبيانية في سلوكهم العاطفي، ولكن هذا أدعىٰ لأن يبذلوا المزيد من الجهد للتأقلم، إنه واجبهم أن يصبحوا صبيانيين ولو تجشموا لذلك العناء ولو خالف ذلك هواهم، ولذا يا سيد ماركس أنا أحذرك تحذيرًا عادلًا».

وتعالت ارتجافة الحنق في صوت المدير، وتحولت للورع التام المتجرد، وقد حمل علىٰ عاتقه التعبير عن استهجان المجتمع نفسه.

«إذا سمعت مرة أخرىٰ عن أي زلة عن السلوك الصبياني السوي المحتشم سأطلب نقلك إلىٰ مركز فرعي، وسأوصي بالمركز الفرعي بأيسلندا، عمت صباحًا». واستدار بكرسيه والتقط قلمه وانشغل بالكتابة.

وحدَّث نفسَه قائلًا: «لسوف يعلِّمه هذا». ولكنَّه كان مخطئًا، ذلك أنَّ برنارد ترك مكتبه متبخترًا مغتبطًا وهو يصفق الباب خلفه، وقد دارت برأسه فكرة وقوفه وحيدًا في وجه المنظومة، وشعر بالزهو، وأسكره إحساسه بتفرده العظيم، حتىٰ فكرة اضطهاده لم تثبط همته ولم تتركه هيابًا، ولم تكبته، بل كانت له بمثابة المُنشِّط المنعش، وقد شعر بالقوة الكافية التي تخول له مقابلة المصاعب والعقبات والتغلب عليها، قوة تخوله مواجهة حتىٰ النفي إلىٰ أيسلندا، وممَّا زاده ثقة أنَّه لم يظن للحظة أنَّ التهديد الذي تلقاه من المدير كان تهديدًا جديًا، ولا أنَّه سيلقىٰ عاقبة سلوكه، وذلك لأنَّ

الناس لم يكونوا ليعاقبوا بالنفي لمثل تلك السفاسف، كان ذكر أيسلندا مجرد تهديد، وقد كان تهديدًا مثيرًا رافعًا للمعنويات، وانطلق برنارد في الصفير المنغم وهو يعبر الردهة.

في ذلك المساء أضفىٰ برنارد علىٰ مقابلته مع مدير مركز التكييف والتفريغ سمت البطولة وختم حكيه قائلًا: «قلت له ببساطة أنْ يذهب إلىٰ أعماق الماضي الغابر وانطلقت مغادرًا، وهكذا انتهىٰ الموقف».

ثم نظر إلىٰ هيلمهولتز واتسون مترقبًا منتظرًا مكافأته المستحقة من التعاطف والتشجيع والإعجاب. ولكنَّه انتظر مليًا، فقد جلس هيلمهولتز صامتًا مطرقًا.

كان هيلمهولتز معتزًا ببرنارد وممتنًا لصحبته كونه الوحيد من بين معارفه الذي يستطيع أن يتحدث إليه عن الأمور التي يراها مهمة، ومع ذلك كانت هناك بعض الأشياء التي يكرهها في برنارد، مثل هذا التفاخر علىٰ سبيل المثال، والذي تتناوب معه نوبات من رثاء النفس، وكذلك تلك العادة المعيبة في اصطناع الجرأة والحكمة بأثر رجعي لكن ليس في أثناء الحدث نفسه، كان يكره تلك الأشياء لأنَّه يحب برنارد. ومرت الثواني واستمر هيلمهولتز محدقًا في الأرضية، فاحمرَّ وجه برنارد بغتة واستدار مبتعدًا.

مرت الرحلة هادئة دون مشاكل أو أحداث، ووصل صاروخ المحيط الهادي الأزرق إلىٰ نيو أورليانز دقيقتين ونصف الدقيقة قبل موعده، ثم تأخر أربع دقائق بسبب إعصار ضرب تكساس، ولكن

ساعده اتجاه تيار الهواء المواتي الذي لاقاه علىٰ خط طول (٩٥٠ غربًا) في تعويض بعض التأخير، واستطاع أن يحط في مطار سانتا في بتأخير لا يتجاوز الأربعين ثانية عن الموعد المحدد.

علقت لينينا: «أربعون ثانية تأخير في رحلة تستغرق ست ساعات ونصف ليس أمرًا سيئًا».

أمضيا تلك الليلة في سانتا في، كان الفندق ممتازًا لا وجه للمقارنة بينه وبين أورورا بورا بالاس علىٰ سبيل المثال، ذلك المكان المروع الذي عانت من الإقامة فيه الصيف الماضي، كان هناك هواءٌ سائلٌ، وتلفاز، وجهاز تدليك هوائي، ومذياع، وكافيين ساخن، ووسائل منع الحمل، وثمانية أنواع مختلفة من الروائح العطرية في كل غرف النوم، كانت الموسيقىٰ الآلية دائرة عندما دلفا إلىٰ البهو، لم يكن هناك ما يمكن أن يتمناه المرء فوق ذلك، وهناك عند المصعد علق إشعار يعلن عن وجود ستين ملعبًا لاسكواش وراكيت المصاعد في الفندق، وأنَّه يمكن ممارسة كل من لعبتي جولف الحواجز والجولف الكهرومغناطيسي في الحديقة.

هتفت لينينا: «ولكن هذا يبدو أروع من أن يكون حقيقة، أكاد أتمنىٰ البقاء هنا، تصور ستين ملعبًا لاسكواش المصاعد . . .».

حذرها برنارد: «لن يكون هناك أي من ذلك في المحمية، لن تكون هناك روائح عطرية أو تلفاز، بل لن تكون هناك مياه ساخنة، لو شعرت أنَّك لن تستطيعي التحمل، فيُمكنك البقاء هنا حتىٰ أعود إليك».

استاءت لينينا وقد اعتبرت كلامه إهانة: «بالطبع يمكنني التحمل، كل ما أقوله، إنَّ المكان هنا جميل لأنَّ . . . لأنَّ التقدم أمر جميل أليس كذلك؟».

قال برنارد متعبًا كأنَّما يحدث نفسه: «خمسمائة تكرار، مرة أسبوعيًا، من الثالثة عشر إلىٰ السابعة عشر».

«ماذا قلت؟».

«قلت: إنَّ التقدم شيء جميل؛ ولهذا: لا ينبغي عليك الذهاب إلىٰ المحمية إن لم ترغبي في ذلك حقًّا».

«ولكنَّني أرغب في ذلك».

«حسنٌ إذن». قالها كما لو كان يهددها أو يحذرها.

كان تصريحهم يتطلب موافقة آمر المحمية، وهكذا قدما إلىٰ مكتبه صباح اليوم التالي، تناول حارس البوابة وكان إبسيلون موجب ملون البشرة من برنارد بطاقته، وسمح لهما بالدخول علىٰ الفور.

كان آمر المحمية رجل (ألفا سالب) أشقر قصير عظم الجمجمة علىٰ اتساع فيها، قصير القامة، متورد البشرة، مستدير الوجه، عريض الكتفين، صاحب صوت ضخم رنان، كان متأقلمًا تمامًا مع كلمات الحكمة المستقاة من التعليم أثناء النوم، وكان منجمًا للمعلومات المتناثرة التي لا يجمعها رابط وللنصائح الجيدة التي لم يطلبها منه أحد، متىٰ بدأ الحديث؛ فإنَّه يندفع بصوته

الضخم الرنان لا يوقفه شيء.

«... خمسمائة وستين ألف كيلو متر مربع مقسمين إلىٰ أربع محميات فرعية مستقلة يحيط بكل منها سور من أسلاك الضغط العالي ...».

في تلك اللحظة وبدون سبب واضح تذكر برنارد فجأة أنَّه ترك صنبور العطر في حمامه مفتوحًا عن آخره.

«... ويمده بالتيار محطة جراند كانيون الكهرومائية ...».

«لسوف يكلفني ذلك ثروة حين عودتي».

وفي عين ذهنه رأىٰ برنارد إبرة عداد الروائح العطرية تدور كالنملة المجتهدة دون كلل. «علي أن أهاتف هيلمهولتز واتسون بسرعة».

«ويمتد السياج الذي يحمل ستين ألف فولت خمسة آلاف كيلو مترًا».

قالت لينينا بتهذيب: «حقًّا، ما أعجب هذا». لم يكن لديها أدنىٰ فكرة عما كان يتحدث عنه الآمر، لكنَّها كانت تستجيب لأدائه التمثيلي، كانت قد ابتلعت خفية نصف جرام من سوما عندما بدأ الآمر يطن بصوته الرنان، وهو ما خول لها أن تجلس الآن برزانة دون أن تعير سمعها لما يقال، خاوية الذهن تمامًا، بينما تحدق عيناها الزرقاوان الواسعتان في وجه الآمر حاملتين تعبيرًا من الانتباه المنتشي.

أعلن الآمر بوقار: «تؤدي ملامسة السياج إلىٰ الموت الفوري، فلا يوجد مهرب من المحمية البرية».

لاقت كلمة مهرب موقعًا حسنًا عند برنارد فقال وهو ينهض نصف نهوض: «علينا أن نفكر في المغادرة».

كانت الإبرة السوداء الصغيرة تنطلق كحشرة تمضغ في الزمن تتغذىٰ علىٰ ماله.

كرر الآمر مشيرًا عليه أن يعود إلىٰ مقعده: «لا مفر». وبما أنَّ التصريح لم يوقع عليه بعد لم يجد برنارد من طاعته بد.

«وأقول إنَّ مَن يولد في المحمية - وتذكري يا آنستي العزيزة (وأخذ يرمق لينينا بنهم ماجن متحدثًا بصوت هامس غير لائق) إنَّه في المحمية لازال الأطفال يولدون. نعم؛ إنَّهم يولدون علىٰ الحقيقة من أمهات، رغم ما يثيره هذا الأمر من اشمئزاز».

كان يرجو أن تثير الإشارة إلىٰ هذا الموضوع الشائن خجل لينينا فيتورد وجهها حياءً، ولكنَّها ما زادت علىٰ أن ابتسمت في ذكاء خاوي قائلة: «حقًّا؟ ما أعجب هذا!».

أصابته خيبة الأمل فأكمل حديثه: «لذا: أقول إنَّ من يولد في المحمية يُقَّدر عليه الموت فيها».

يقدر عليه الموت .... ديسيلتر (عشر اللتر) من العطر في الدقيقة. ستة لترات في الساعة.

تململ برنارد وحاول مرة أخرىٰ: «ربما ينبغي أن ...».

مال الآمر إلىٰ الأمام ونقر علىٰ الطاولة بسبابته: «اسألني كم عدد من يعيش في المحمية، وسأجيبك -ظافرًا أجيبك- أنَّنا لا ندري، ولا نستطيع سوىٰ التخمين».

«حقًّا؟ ما أعجب هذا!».

«نعم؛ يا آنستي العزيزة حقًّا».

أربعة وعشرون ست مرات، لا بل إنَّ الأمر أقرب إلىٰ ستة وثلاثين ست مرات، كان برنارد شاحبًا يكاد يرتعش من نفاد الصبر، ولكن الصوت المدوي الرنان ظل يطن بلا هوادة: «حوالي ستين ألفًا من الهنود والمولدين ... بدائيين تمامًا ... أحيانًا يزور المفتش، فيما عدا ذلك؛ فليس هناك أي اتصال أو تواصل مع العالم المتحضر ... مازالوا يحافظون علىٰ سلوكياتهم وعاداتهم المثيرة للاشمئزاز ... الزواج، لو كنت تعلمين ما هو يا آنستي العزيزة؛ عائلات ... لا تكييف ... خرافات بشعة ... المسيحية والطوطمية وعبادة الأسلاف ... لغات ميتة؛ مثل الزوني والإسبانية والأثابسكان ... حيوانات منقرضة كالبوما والشيهم وأنواع أخرىٰ وحشية ... أوبئة ... كهنة ... سحالي سامة ...».

«حقًّا؟ ما أعجب هذا!».

تمكنا أخيرًا من التملص منه بعد عناء، فأسرع برنارد إلىٰ الهاتف متلهفًا، لكن استغرقه الاتصال بهيلمهولتز واتسون حوالي الثلاث دقائق، فتذمر برنارد شاكيًا: «وكأنَّنا وسط البدائيين بالفعل، هذه قلة كفاءة لعينة».

فاقترحت لينينا: «تناول جرامًا إذن». ولكنَّه رفض مفضلًا الاحتفاظ بغضبه، وأخيرًا حمدًا لفورد تمكن من الوصول إلىٰ هيلمهولتز وشرح له الموقف، فوعده أن يسرع إلىٰ هناك علىٰ الفور ويغلق الصنبور.

نعم؛ سيذهب علىٰ الفور، ولكنَّه انتهز الفرصة كي يخبره عما حدثه به مدير مركز التفريخ والتكييف مساء الأمس علىٰ الملأ . . .

كان صوت برنارد متألمًا وهو يرد: «ماذا؟ يبحث عن آخر يتولىٰ وظيفتي؟ إذن قضىٰ الأمر؟ هل ذكر أيسلندا؟ تقول إنه فعل؟ فورد! أيسلندا . . .». أغلق سماعة الهاتف والتفت إلىٰ لينينا، كان وجهه شاحبًا والحزن والكمد يملآن ملامحه.

سألته: «ما الخطب؟».

تهاوىٰ علىٰ أحد المقاعد: «سيرسلونني إلىٰ أيسلندا».

ولكم تساءل برنارد في الماضي عمَّا سيكون الحال لو أنَّه تعرض لمحنة عظيمة أو شيء من الألم، أو الاضطهاد (دون الاعتماد علىٰ سوما ولا أي شيء سوىٰ قواه الداخلية)، بل إنَّه كان يتشوف للابتلاء، كما حدث مؤخرًا الأسبوع الفائت في مكتب المدير عندما تخيل نفسه يقاوم ببسالة، ويتحمل المعاناة بصلابة دون اعتراضٍ أو شكاة، بل لقد جعلته تهديدات المدير يشعر بالزهو والافتخار، جعلته يشعر أنَّه أكبر من الحياة نفسها، ولكنَّه أدرك الآن أنَّ علة ذلك أنَّه لم يأخذ تلك التهديدات علىٰ محمل الجد، لم يصدق وقتها أنَّه إذا ما جد الجد؛ فإنَّ المدير سينفذ تهديده، أمَّا

الآن وقد بدا أن الأمر سيمضي إلىٰ منتهاه هلع برنارد، ولم يبقَ أثر من تلك الصلابة المتخيلة والشجاعة الافتراضية.

وثار علىٰ نفسه غاضبًا، ما أحمقه! لماذا وقف ضد المدير؟ ولماذا لم يمنحه المدير تلك الفرصة الأخرىٰ؟ تلك الفرصة التي يدرك الآن يقينًا أنه كان سيقبل بها، أمَّا أيسلندا . . . أيسلندا . . . .

هزت لينينا رأسها وقالت مقتبسة ما كيفت علي التفكير فيه عند مواجهة ما يستدعي الانزعاج، أو ما يجاوز قدراتها: «كان وسيظل يصيبني بالغثيان، فلأتناول جرام لأعود في أفضل حال.

في النهاية أقنعته أن يبتلع أربعة أقراص من سوما، فما هي إلَّا أن مرت خمس دقائق وأضحىٰ كل شيء علىٰ ما يرام؛ واختفت جذور ما كان وثمار ما سيكون وتفتحت زهرة الحاضر بحبور. أبلغهما الحمّال بوصول مرشد المحمية الذي بعثه الآمر بطائرته وانتظاره علىٰ سطح الفندق، فصعدا علىٰ الفور حيث حياهم فرد (جاما) يرتدي الأخضر، كان يبدو واضحًا أن إحدىٰ أصوله ملونة وأخذ يتلو عليهم برنامج اليوم.

طالعهم مشهد من منظور الطائر لما يجاوز عشر قرىٰ كبيرة من قرىٰ الهنود الحمر، قبل أن يهبطوا في وادي مالبيز لتناول الغداء، كان منزل الاستراحة وثيرًا، ولكن غلب علىٰ ظنهم أن البدائيين قد بدأوا في الاحتفال بمهرجان الصيف في المدينة الهندية ممَّا يجعلها أفضل مكان يمكن أن يقضوا فيه الليلة.

اتخذوا مقاعدهم في الطائرة وانطلقوا؛ ليعبروا بعدها بعشر

دقائق الحدود الفاصلة بين الحضارة والبدائية، من أعالي التلال إلىٰ سفحها وعبر صحاري الرمال والملح مخترقين الغابات إلىٰ عمق الأخاديد بنفسجية اللون عبر الجرف والقمم والهضاب ذات القمم المسطحة شديدة الانحدار استمر معهم السياج في خط مستقيم لا يحيد كرمز هندسي دال علىٰ الإرادة الإنسانية الظافرة، بينما تناثر تحته هنا وهناك فسيفساء من العظام البيضاء، وجثث لم تتحلل بعد ملقاة علىٰ الأرض السمراء شاهدة علىٰ المكان الذي صعق فيه غزال، أو عجل، أو بوما، أو شيهم، أو قيوط (ذئب البراري)، أو نسر تركي شره اجتذبته رائحة الجيفة فاحترق صعقًا كأنَّما جزاءً وفاقًا، عند اقترابهم من الأسلاك القاتلة.

علق قائد الطائرة المرتدي للزي الرسمي الأخضر علىٰ المشهد، وهو يُشير إلىٰ الهياكل العظمية الملقاة علىٰ الأرض أسفل منهم: «إنَّهم لا يتعلمون». ثم أضاف ضاحكًا: «ولن يتعلموا أبدًا».

قالها وكأنَّما أحرز بنفسه بكيفية غامضة انتصارًا شخصيًّا علىٰ تلك الحيوانات المصعوقة.

وضحك برنارد أيضًا، فبعد جرامين من سوما بدت له النكتة جيدة لسبب لا يدريه، ضحك، ثم استغرق بغتّة في النوم، وظل نائمًا وهم يعبرون علىٰ مدن تاوس وتيسوكي ونامبي وبيكوريس وبواك وسيا وكوتشيتي ولاجونا وأكوما وميسا المسحورة وزوني وكيبولا وأوجو كالينتيه، ولم يستيقظ حتىٰ هبطت الطائرة علىٰ الأرض، حملت لينينا الحقائب إلىٰ منزل صغير مربع بينما كان ربان

الطائرة الجاما ذو الأصول المخلطة يتحدث بلغة غير مفهومة مع هندي شاب.

قال قائد الطائرة لبرنارد عند نزوله منها: «ها قد وصلنا ماالبيز، وهذا هو منزل الاستراحة، وستقام حفلة رقص هذا المساء في المدينة».

وأشار إلىٰ الشاب الهندي المتجهم قائلًا: «سوف يأخذكم إلىٰ هناك».

وابتسم ابتسامة عريضة قائلًا: «ولسوف يكون الأمر مسليًا علىٰ ما اعتقد، فكل ما يفعله أولئك القوم مسلٍّ». ثم صعد إلىٰ طائرته وأدار المحرك: «سأعود في الغد».

وتوجه بحديثه إلىٰ لينينا مطمئنًا: «وتذكري أنهم ودعاء تمامًا، ولن يتوجه إليك البدائيون بأي أذىٰ، فقد ذاقوا من آثار قنابل الغاز ما فيه الكفاية ليتعلموا أن عليهم ألَّا يقوموا بأي حيل». أدار تروس المروحة متخذًا وضع التأهب ثم أقلع بالمروحية وهو ما زال يقهقه.

الفصل السابع

بدت الهضبة كسفينة سكنت في مضيق كوَّنه غبار بلون الأُسْد، وقد تدفقت القناة ملتفة بين ضفاف وعرة شديدة الانحدار، وجرت متعرجة من جدار إلىٰ آخر عبر الوادي في خط أخضر اللون قوامه النهر والحقول التي علىٰ ضفافه، وفي مقدمة تلك السفينة الحجرية القابعة في منتصف المضيق يظهر بروز صخري هندسي الشكل يمثل مستعمرة ماليبز الهندية، التي بدت كطبقات حجرية الواحدة فوق الأخرىٰ متراصة في شكل هرمي متدرج يجعل كل بسطة أصغر ممَّا تحتها، وقد ارتفعت المنازل الشاهقة كأهرامات متدرجة مبتورة تطاول السماء الزرقاء، وعلىٰ السفح تناثرت مجموعة منازل قصيرة متقاطعة الجدران، ومن ثلاث نواحٍ انحدر الجرف إلىٰ الوادي بزاوية شبه قائمة، بينما تصاعدت أعمدة الدخان عموديًا في الهواء الساكن حتىٰ اختفت عن الأنظار.

قالت لينينا: «هذا شاذ، بالغ الشذوذ». كانت تلك كلمتها المعتادة للتعبير عما تستنكر، «لا يعجبني ذلك، كما لا يعجبني ذلك الرجل». وأشارت إلىٰ الدليل الهندي الذي عُين لإرشادهم إلىٰ المستعمرة الهندية؛ وكان من الواضح أن مشاعرها قد أجيبت

بالمثل، فقد كانت خطوط ظهر الرجل الهندي وهو يسير أمامهم تكاد تنطق بالعداء والاحتقار المتذمر.

ثم خفضت صوتها: «كما أنَّه كريه الرائحة».

لـم يحاول برنارد نفي ذلك، واستمروا في المسير.

وعلىٰ حين غرة بدا كما لو كان الهواء قد دبت فيه الحياة نابضة بتدفق الدماء الذي لا يكل، فهناك عاليًا عند الماليبز كانت الطبول تدق، وتراقصت أقدامهم علىٰ إيقاع ذلك القلب النابض الغامض، وأسرعوا خطوهم حتىٰ قادهم الطريق إلىٰ سفح الجرف، وقد أشرف عليهم شفير الهضبة العملاقة التي يبلغ ارتفاعها ثلاثمائة قدم، فقالت لينينا: «ليت كان باستطاعتنا إحضار الطائرة».

ونظرت محنقة إلىٰ الوجه الصخري الأجرد المشرف عليهم!

«إنَّني أكره المشي، كما أنَّ المرء يبدو ضئيلًا للغاية وهو واقف علىٰ سفح تل».

ساروا بعض الطريق في ظلِّ الهضبة، ثم داروا حول بروز ليجدوا شِعبًا صدعه الماء، وعنده ظهر درج مرافق للسبيل فتسلقوه، كان طريقًا صَبَبًا متعرجًا يقطع الوادي من جانب إلىٰ آخر، وكان صوت الطبول يخفت في أحايين حتىٰ لا يكاد يسمع، وفي أحيان أخرىٰ يبدو كما لو كان يدوي عند أقرب انحناءة من انحناءات الطريق.

عندما بلغوا منتصف الطريق لأعلىٰ حلق فوقهم صقرٌ، كان

قريبًا جدًّا حتىٰ إنَّ خفق جناحيه ساق برد الهواء المنعش إلىٰ وجوههم، وبان تجويف بين الصخور تكدست فيه كومة من العظام، كان الأمر كله غريبًا مقبضًا، وازدادت قوة الرائحة الكريهة المنبعثة من الهندي مع تقدمهم في الطريق، وأخيرًا خرجوا من الشعب إلىٰ واضحة النهار، وقد لاحت قمة الهضبة كظهر سفينة صخرية.

علقت لينينا: «تبدو مثل برج (T) بتشارينج».

لكن لم تسنح لها فرصة التمتع باكتشافها لهذا التشابه الذي أزال جزءًا من وحشتها طويلًا فقد انتبهوا إلىٰ وقع أقدام خفيفة لاثنين من الهنود عاريي الجذع قد طليا جسديهما الخمريين الداكنين بخطوط بيضاء (مثل ملاعب التنس الأسفلتية كما وصفتهما لينينا فيما بعد)، وقد بدت ملامحهما غير بشرية بذلك الطلاء القرمزي والأسود وتلك المغرة الصفراء المشوبة بحمرة، ثم أقبل اثنان من الهنود يعدوان من آخر الطريق، كانت شعورهما السوداء مضفرة بفراء الثعالب والصوف الأحمر، وقد التفحا بشملتين من ريش الديوك الرومية ملقاة علىٰ كتفيهما، وتمايلت أكاليل من الريش الضخم المبهرجة حول رأسيهما، وتصاعد جرس ورنين الأساور الفضية والقلادات الثقيلة المكونة من العظام وحبات الفيروز مع كل خطوة يخطوانها، لم ينبسا بكلمة واحدة وهما يعدوان قادمين في خفيهما من جلد الغزال، وقد حمل أحدهم مِحَسّة (فرشاة تمشط بها الدواب ويزال بها الغبار عنها)، بينما حمل الآخر في كلتا يديه ما يبدو للناظر من بعيد كأنه مجموعة حبال غليظة، بيد أنَّ إحدىٰ

تلك الحبال كانت تتلوىٰ، وأدركت لينينا فجأة أنَّ تلك الحبال ليست إلا ثعابين.

استمر الرجال في الاقتراب، كانوا يرمقونها بأعينهم السوداء دون أن يبدو فيها ذرة إدراك لوجودها، وسكن الثعبان المتلوىٰ كأقرانه، وتجاوزهم الرجلان.

قالت لينينا: «لا أستريح لذلك، لا أستريح لذلك البتة!».

لكن ما لاقاها علىٰ مدخل المستعمرة حيث تركهما الدليل ودلف إلىٰ الداخل لتلقي التعليمات رابها أكثر من ذي قبل، كانت هناك قاذورات وكومات من النفايات وتراب وكلاب وذباب، التوت ملامحها اشمئزازًا، وحملت منديلها إلىٰ أنفها.

ثم انفجرت في حنق مشدوه: «ولكن كيف يمكنهم العيش هكذا؟!» (ولم يكن ذلك ممكنًا).

هز برنارد كتفيه متفلسفًا: «علىٰ كل حال، هم يفعلون منذ خمس أو ست سنوات؛ لذا: لا بُدَّ أنهم قد اعتادوا الأمر بعد مضي كل ذلك الوقت».

«لكن النظافة من الفوردية».

أكمل برنارد المقولة الواردة في درس النظافة للتعليم الأساسي في منهج التعلم أثناء النوم ساخرًا: «والحضارة من الطهارة». ثم قال: «ولكن هؤلاء الناس لم يسمعوا من قبل عن المبجل فورد، وهم ليسوا متحضرين؛ لذا: لا معنىٰ هناك لـ ...».

قبضت علىٰ ذراعه وهي تقاطعه هاتفة: «آه، انظر!».

كان هناك هندي شبه عارٍ يتسلق نازلًا ببطء السلم من شرفة الطبقة الأولىٰ لمنزل مجاور، درجة بعد الأخرىٰ تحرك بالحذر المرتعش المصاحب لأرذل العمر، كان وجهه قاتمًا شديد التغضن كأنَّه قناع من السَّبَج (الزجاج البركاني الأسود)، وقد انقلبت شفتاه إلىٰ داخل فكه الأدرد، والتمعت علىٰ جانبي الفم والذقن عدة شعيرات بيضاء طويلة في بشرته الداكنة، بينما تراخىٰ شعره الطويل الرمادي غير المعقوص في خصلات حول وجهه، كان منحني البنية هزيلها، وقد رق جلده حتىٰ كاد يلتصق بعظمه، ببطء شديد وصل لأسفل الدرج مع توقُّفه عند كل درجة قبل أن يشرع مغامرًا في خطوة جديدة.

همست لينينا وقد اتسعت عيناها في مزيج من الرعب والدهشة: «ما خطبه؟».

أجاب برنارد متصنعًا عدم الاهتمام علىٰ ما به من اندهاش هو الآخر؛ إلَّا أنَّه بذل جهده لإظهار عدم التأثر: «ما به إلَّا الهِرَم».

رددت لينينا: «هَرِم؟! لكن المدير هَرِم، والكثير من الناس كذلك، لكن لا أحد منهم علىٰ هذه الحال».

«ذلك؛ لأنَّنا لا نسمح لهم أن يكونوا كذلك، نحن نحفظهم من الأمراض، ونحافظ علىٰ إفرازاتهم الداخلية في حالة توازن مصطنع كأنَّما في فورة الشباب، كما لا نسمح لمعدل الماغنسيوم والكالسيوم لديهم بالانخفاض عن معدلاتها التي يصل إليها الجسم

في سن الثلاثين، بالإضافة إلىٰ أنَّنا ننقل إليهم دماءً شابة، ونبقي علىٰ معدل الإحراق لديهم محفزًا بصفة دائمة؛ **لذلك**: لا يبدون هكذا بالطبع، وسبب ذلك جزئيًّا أن معظمهم يموت قبل أن يبلغ عمر هذا المخلوق الطاعن في السن، فيظل الفرد شابًا دون اختلال حتىٰ سن الستين تقريبًا، ثم يبدأ التصدع فتكون النهاية الحاسمة».

لكن لينينا لم تكن منصتة، كانت تتابع بنظرها الرجل الهَرِم في رحلته بالغة البطء إلىٰ أسفل، أخيرًا لامست قدماه الأرض، والتفت، كانت عيناه الغائرتان مازالتا محتفظتين ببريقهما شديد اللمعان، وقد تطلعتا فيها لوهلة، وهما خاليتان من التعبير، ومن الدهشة كما لو كانت لا وجود لها، ثم بتثاقل وبظهر محنيٍّ وخطوات عرجاء تجاوزهما منصرفًا.

همست **لينينا**: «لكن هذا فظيع، رهيب! لم يكن ينبغي أن نأتي إلىٰ هنا».

تحركت يدها في جيبها بحثًا عن سوما لتكتشف أنَّها للمرة الأولىٰ قد غفلت عن إحضاره ناسية إيَّاه في منزل الاستراحة، وكذلك كانت جيوب برنارد خالية الوفاض منه، وهكذا تُركت لينينا لتواجه أهوال الماليبز دون عون، وقد هجمت عليها من كل حدب وصوب، توردت خجلًا من منظر امرأتين ترضعان صغيريهما فأشاحت عنهما بوجهها، إنَّها لم تر في حياتها كلها مشهدًا بذيئًا كهذا، وما زاده سوءًا هو أنَّه بدلًا من أن يتجاهله برنارد بلباقة أخذ يعلق صراحَة علىٰ هذا المشهد المقزز بين الأم ووليدها، حيث إنَّه

شاعرًا الآن بالخجل من الضعف الذي أبداه هذا الصباح وقد تلاشىٰ تأثير سوما تكلف برنارد الظهور بمظهر القوي غير التقليدي، فقال متعمدًا صدمها: «يا لها من علاقة حميمية رائعة! وكم يستثير هذا من مشاعر قوية، ولطالما فكرت في أنَّ المرء ربما يكون قد خسر شيئًا كونه بلا أم، وربما تكونين قد خسرت شيئًا لأنَّك لست أمًّا يا لينينا، تخيلي نفسك جالسَّة هناك مع صغيرك . . .».

«برنارد! كيف يمكنك . . .؟»، لكن مشهد امرأة عجوز رمداء جرباء كانت تمر بجوارهما شتت انتباهها. وأخرجها من حنقها، فتوسلت إلىٰ برنارد: «دعنا نذهب، أنا لا يعجبني هذا المكان».

لكن دليلهما عاد في تلك اللحظة وأشار لهما باتباعه، قادهما عبر الشارع الضيق بين المنازل، وانعطفوا ليجدوا كلبًا ميتًا فوق كومة من النفايات، وامرأة مريضة بمرض الدراق تبحث في شعر صبية صغيرة عن القمل، توقف الدليل أسفل سلم صغير ورفع يده عموديًّا، ثم أشار بها للأمام أفقيًّا، فاتبعوا أمره الصامت لهما بالصعود، ثم ولجوا من المدخل الذي أفضىٰ إليه نهاية السلم إلىٰ غرفة طويلة مستطيلة ضيقة ومظلمة نوعًا تفوح منها رائحة الدخان والدهن المطبوخ وثياب مر عليها الكثير من الأيام علىٰ أجساد أصحابها دون غسيل، وفي نهاية الغرفة من الناحية الأخرىٰ كان هناك مدخلًا آخر ينفذ من خلاله شعاع من ضوء الشمس وضوضاء عالية وقريبة لدق الطبول.

عبرا العتبة؛ ليجدا نفسيهما في شرفة متسعة، وأسفل منهم

يقبع ميدان القرية تخفيه عن الأنظار المنازل السامقة، كان مكتظًا بالهنود والأغشية الزاهية والريش في الشعور السوداء وتألق الفيروز ولمعة الجلد الداكن، وضعت لينينا منديلها علىٰ أنفها مرة أخرىٰ. وفي البقعة الخالية من منتصف الميدان كانت هناك منصتين دائريتين من الحجارة والطين المكبوس، كان واضحًا أن السقف يغطي حجرات تحت الأرض لوجود كوة في منتصف كل منصة يتبعها سلم خارج من الظلمة بأسفل، ومن تحت الأرض انبعث عزفٌ للناي يكاد يختفي بين وقع الطبول المطرد الذي لا يتوقف.

كانت لينينا تحب الطبول، فأغمضت عينيها واستسلمت لدويه الناعم المتكرر وتركته يغزو وعيها ويتغلغل أكثر فأكثر، حتىٰ لم يعد باقيًا في العالم كله إلَّا هذا النبض العميق، وقد اطمأنت إليه؛ لأنَّه ذكرها بصخب الموسيقىٰ الآلية أثناء خدمات التضامن واحتفالات يوم فورد، وهمست لنفسها قائلة: «طقس العربدة».

كانت تلك الطبول تدق بذات الإيقاع.

انطلقت الأصوات فجأة بالغناء؛ مئات من الأصوات الذكورية تهتف متحمسة في انسجام حاد رنان، تبعته بعض النغمات الطويلة ثم الصمت، الصمت المدوي الذي يتبع سكوت الطبول، قبل أن يرتفع صهيل النساء مجيبًا بصوت رفيع حاد أعلىٰ ثلاث مرات من جوقة الرجال، ثم انطلقت دقات الطبول مرة أخرىٰ، يتبعها صوت الرجال قويًا عميقًا في تأكيد بدائي لفتوتهم.

شاذ؟

نعم؛ كان المكان شاذًّا، وكذلك كانت الموسيقىٰ والثياب ومرض الدراق والأمراض الجلدية والمسنين، لكن لم يبدُ أنَّ هناك شيء شاذ يتعلق بالعرض نفسه بوجه خاص.

قالت لبرنارد: «هذا يذكرني بالإنشاد الجماعي لإحدىٰ الطبقات الدنيا».

لكن بعد هنيهة لم يعد ما يدور يذكرها بتلك المناسبة العامة غير الضارة، فقد تسلقت فجأة من تلك الغرف الدائرية كتيبة مروعة من الوحوش، تختفي وجوههم وراء أقنعة شنيعة أو طلاء ثقيل يبعدهم عن أي مظهر بشري، ودبدبوا حول الميدان في رقصة عرجاء عجيبة، يلتفون ويدورون فيها منشدين كل مرة أسرع من سابقتها، وتغير إيقاع الطبول وتسارع حتىٰ أصبح كالنبض المحموم في الآذان، وبدأ الجمهور في الغناء مع الراقصين وتعالت أصواتهم أعلىٰ وأعلىٰ، وبدأت امرأة في الصراخ تبعتها أخرىٰ فثالثة، صرخن كما لو كن يُقتلن، وفجأة انفصل قائد الراقصين عن الصف وانطلق إلىٰ صندوق خشبي كبير في أحد أطراف الميدان ورفع غطاءه؛ ليخرج ثعبانين أسودين، فعلا صخب الجمهور، وركض إليه الراقصون الآخرون مادين أياديهم، فرمىٰ بالثعبانين إلىٰ أول الواصلين إليه، وعاد للانحناء علىٰ الصندوق لالتقاط ثعابين جديدة، مرة تلو الأخرىٰ يخرج ثعابين سوداء وبنية ومرقشة ويلقيها خارجًا، ثم بدأ الرقص مجددًا بإيقاع مختلف، فشرعوا يدورون مع ثعابينهم ويتلوون مثلها بحركات ناعمة متموجة فتتمايل جوانبهم

وتنثني ركبهم، ويدورون ويدورون، ثم أعطىٰ القائد إشارة لتُقذف الأفاعي الواحدة بعد الأخرىٰ في منتصف الميدان، وصعد شيخ من تحت الأرض ونثر عليهم وجبة من الذرة، ومن الكوة الأخرىٰ ظهرت امرأة ونثرت عليهم ماءً من جرة سوداء، ثم رفع الشيخ يده ليخيم بغتة صمتٌ مطبق في استجابة مدهشة، فتوقف دوي الطبول، وبدا كما لو أنَّ الحياة قد تجمدت، وأشار الشيخ إلىٰ الكوتين مدخل العالم السفلي لترفع أيادٍ خفية ببطء صورتين مرسومتين إحداهما لصقر والأخرىٰ لرجل مصلوب عارٍ، وتعلقت الصورتان هناك وكأنهما قائمتان بذاتيهما تراقبان ما حولهما، وصفق الشيخ بيديه فخرج من الجموع فتىٰ في حوالي الثامنة عشر عارٍ إلَّا من قطعة قماش قطنية بيضاء تستر عورته ليقف أمامه عاقدًا ذراعيه أمام صدره وقد أحنىٰ رأسه، أشار الشيخ بعلامة الصليب علىٰ الفتىٰ، والتفت مبتعدًا ليبدأ الفتىٰ في الدوران متمهلًا حول كومة الأفاعي المتلوية، كان قد أتم لفته الأولىٰ وبلغ منتصف الدورة الثانية عندما خرج من بين الراقصين رجل طويل يرتدي قناع لحيوان القيوط، ويحمل في يده سوطًا من الجلد المجدول متقدمًا نحو الفتىٰ الذي أكمل لفه، وكأنَّما لم ينتبه لوجود الآخر، رفع رجل القيوط سوطه، وسادت لحظة ترقب طويلة قبل أن يهبط بحركة سريعة ليعلو أزيز السوط في الهواء، ثم الرنين المكتوم لصوت ارتطامه باللحم، ارتجف جسم الفتىٰ، ولكنَّه لم يصدر صوتًا، واستمر في حركته بخطوة الثابت المتمهل، ضرب القيوط مرة أخرىٰ، وكان يهيِّج عند

كل ضربة شهقةً في البداية، ثم أنَّةً عميقةً من الحشد، واصل الفتىٰ دورانه مرتين وثلاث وأربع مرات، والدم يتدفق، خمس مرات، ست مرات.

فجأة غطت لينينا وجهها بيديها وانتحبت مناشدة: «آهٍ! أوقفهم، أوقفهم».

لكن ظل السوط يهوي بقساوة لا تلين. سبعة دورات، ثم ترنح الفتىٰ فجأة ودون أن يصدر صوتًا انبطح علىٰ وجهه، انحنىٰ عليه الشيخ ولمس ظهره بريشة بيضاء طويلة ثم رفعها للناس ليروها وقد اصبغت باللون القرمزي قبل أن يهزها ثلاث مرات فوق الأفاعي، تساقطت بعض القطرات فتعالىٰ دوي الطبول مرة أخرىٰ في إيقاع سريع مذعور، وانطلقت صرخة عظيمة، وهرول الراقصون إلىٰ الأمام والتقطوا الأفاعي راكضين بها خارج الميدان ليتبعهم الحشد كله، رجالًا ونساءً وأطفالًا، وفي دقيقة واحدة أضحىٰ الميدان خاويًا، ولم يبقَ إلَّا الفتىٰ جاثيًا حيث وقع، ساكنًا تمام السكون، وخرجت ثلاث عجائز من إحدىٰ المنازل وببعض المشقة حملنه وعدن به إلي الداخل، وبقىٰ الصقر والمصلوب يحرسان القرية الخاوية لبعض الوقت، ثم وكأنَّهما رأيا ما فيه الكفاية بدءا يغوصان ببطء داخل الكوة إلىٰ العالم السفلي بعيدًا عن الأنظار.

كانت لينينا لازالت تنتحب وتردد: «فظيع للغاية». وذهبت محاولات برنارد لتهدئتها هباءً!

«فظيع للغاية، كل تلك الدماء».

فارتجفت وهي تقول: «ليت بحوزتي بعض السوما».

تصاعد وقع خطوات في الغرفة الداخلية، لكن لينينا لم تتحرك ومكثت مطرقة مسندة خديها علىٰ راحتيها، فلم يلتفت سوىٰ برنارد.

كانت ثياب الشاب الذي خرج إلىٰ الشرفة هندية لكن شعره المجدول كان أصفرَ بلون القش، وكانت عيناه زرقاوين زرقة شاحبة، وقد لوحت الشمس بشرته البيضاء بلون برونزي.

قال الغريب في لغة إنجليزية لا شائبة فيها وإن بدت رغم ذلك مستغربة: «مرحبًا، صباح الخير، أنتم من المتحضرين أليس كذلك؟ هل أتيتم من ذلك المكان الآخر من خارج المحمية؟».

هتف برنارد وهو لايزال مشدوهًا: «من يا ترىٰ . . . ؟».

تنهد الشاب وهز رأسه قائلًا: «إنَّه نبيل تعيس!»، ثم أشار إلىٰ بقع الدم في منتصف الميدان وسأل بصوت متهدج من الانفعال: «أترىٰ تلك البقعة اللعينة؟».

قالت لينينا آليًا من بين راحتيها: «الجرام أفضل من اللعان».

ثم: «أتمنىٰ لو كان معي مخزوني من سوما».

قال الشاب: «كان يجب علي أن أكون هناك، لماذا لم يسمحوا لي أن أكون الأضحية؟ كنت سألف عشر مرات، أو اثني عشر، أو خمس عشرة مرة، لكن بالوتوا لم يستطع أن يزيد عن السبعة، كان يمكنهم كذلك أن يحصلوا مني علىٰ ضعف كمية

الدم، لحصلوا مني علىٰ بحر أحمر يمده من بعده أبحر».

وطوح بذراعيه جانبًا في حركة باذخة، لكنَّه ما لبث أن تركهما يسقطان علىٰ جانبيه يائسًا، «ولكنَّهم لم يدعوني أفعل؛ فهم ينفرون مني بسبب لوني، ولطالما كان الحال كذلك». وترقرقت الدموع في عيني الشاب فأصابه الخجل وأعرض مشيحًا عنهما.

أنست الدهشة لينينا معاناة حرمانها من سوما فكشفت عن وجهها وللمرة الأولىٰ نظرت ناحية الغريب، «هل تريد القول إنَّك رغبت في أن تضرب بهذا السوط؟».

أومأ الغريب برأسه وهو لا يزال معرضًا، «من أجل المستعمرة، للاستمطار وطلب محصول جيد من الذرة، ولإرضاء بوكونج ويسوع، وأيضًا لأظهر أنَّه يمكنني تحمل الألم دون صراخ». وشابت نبرته رنة جديدة فجأة والتفت إليهما، وقد انتصبت قامته في كبرياء وارتفع ذقنه في تحدٍّ وإباء، «ليعلموا أنَّني رجل حقًّا ... آه!».

شهق وسكت عن الكلام فاغرًا فاه، فقد رأىٰ للمرة الأولىٰ في حياته وجه فتاة ليس بلون الشيكولاتة أو متقرح الجلد، ولون شعر كستنائي متموج، أما تعبيرها (الجديد كل الجدة)، فكان يحمل اهتمامًا رءوفًا، كانت لينينا تبتسم له وهي تقول في نفسها: ما ألطف مظهره هذا الفتىٰ! وما أجمل قوامه! واندفعت الدماء إلىٰ وجه الشاب، وخفض عينيه، ثم رفعهما مرة أخرىٰ للحظة خاطفة ليجدها لا تزال تبتسم له، فاستبد به التأثر، ولم يملك؛ إلَّا أنَّ

يلتفت متظاهرًا بالتركيز الشديد علىٰ نقطة ما في الناحية الأخرىٰ من الميدان.

كفلت أسئلة برنارد مخرجًا وملاذًا للفتىٰ من خجله وارتباكه: من؟ كيف؟ متىٰ؟ من أين؟ مثبتًا بصره علىٰ وجه برنارد (وقد جعلته شدة توقه لرؤية ابتسامة لينينا يجبن عن النظر إليها) حاول الشاب تفسير موقفه، كان هو وليندا -والدته- (تململت لينينا عند سماعها تلك الكلمة) غريبين عن المحمية، وكانت ليندا قد جاءت من المكان الآخر منذ دهر قبل ولادته مع من كان والده (هنا أصاخ برنارد السمع) كانت قد ذهبت للتمشية وحدها في الجبال هناك التي بالشمال وزلت قدمها لتسقط في منحدر وتؤذي رأسها «أكمل، أكمل». قالها برنارد متحمسًا، عثر عليها بعض الصيادين من ماليبز وأحضروها إلىٰ المحمية، أما الرجل الذي كان والده فلم تره ليندا ثانية، كان اسمه توماكين، (نعم؛ كان (توماس) هو اسم مدير مركز التفريخ والتكييف)، ولا بُدَّ أنَّه قد استقل طائرته عائدًا إلىٰ المكان الآخر دونها، ذلك الرجل الذميم القاسي غير السوي، «وهكذا وُلدت في الماليبز»، وهز رأسه مرددًا: «في الماليبز!».

كانت مظاهر البؤس بيِّنة علىٰ هذا البيت الصغير علىٰ أطراف المحمية الهندية الذي تفصله عن القرية قطعة أرض متربة وكومة نفايات، وقد أخذ اثنين من الكلاب المهزولة يستشمُّون القمامة بقذارةٍ علىٰ باب الدار، وعندما دلفوا للداخل كان الهواء فاسدًا يطن فيه الذباب.

نادىٰ الشاب: «ليندا!».

أجابه من حجرة داخلية صوت أنثوي مبحوح قليلًا: «أنا آتية». كانت الأوعية علىٰ الأرضية تحمل بقايا وجبة، وربما عدة وجبات قديمة، وانفتح الباب وظهرت امرأة بدينة شقراء علىٰ عتبته وتوقفت تتطلع إلىٰ أولئك الغرباء بعينين متسعتين وفم فاغر غير مصدقة، لاحظت لينينا مشمئزّة أن ثنتيها العلويتين مفقودتان، أمَّا عن ألوان أسنانها المتبقية . . . ارتعدت لينينا لمجرد التفكير فيهم، لقد كانت أسوأ حالًا من الرجل الهرم، كانت سمينة للغاية، ناهيك عن كل تلك الخطوط في وجهها، أمَّا عن الترهلات والتجاعيد وارتخاء خديها علىٰ ما فيهما من بقع بنفسجية اللون فحدث ولا حرج، هذا غير الأوردة الحمراء الظاهرة في أنفها والعيون المحتقنة، وعنقها - أي: عنق ذاك! والحِرَام القذر المهترئ الذي تلف به رأسها، أمَّا تحت السترة البنية التي تشبه الجِوال، فقد برز صدرها الضخم وبطنها المنتفخ، ونتوء جنباها، آه! هذا أسوأ بكثير من حال الهَرِم، أسوأ بكثير، وفجأة انطلقت المخلوقة في وابل من الكلام وهرعت نحوها بذراعين مفتوحين، فورد! فورد! كان هذا مقززًا جدًّا، لحظة أخرىٰ وستصاب بالغثيان، ألصقتها المرأة بصدرها وعجرها وأخذت تقبلها، فورد!، إنَّها تقبلها! قبلات مختلطة بروالها، كانت رائحتها كريهة للغاية، ومن الواضح أنَّها لا تعرف للاستحمام طريقًا، كان يفوح منها عطن تلك المادة البغيضة التي توضع في زجاجات الدلتا والإبسيلون (لا لم يكن

ذلك صحيحًا في حالة برنارد) نعم كانت تفوح منها رائحة الكحول المنتنة، خلصت لينينا نفسها من ذراعيها بأسرع ما استطاعت، ليقابلها وجهٌ أشعث منتحب قد التوت أساريره، كانت المخلوقة تبكي، وقد انهمر سيل الكلمات منتحبًا: «آه يا عزيزتي، يا عزيزتي، لو تعلمين كم أنا سعيدة لرؤية وجه متحضر بعد كل تلك السنوات، وثياب متحضرة كذلك، لقد ظننت أن عيني لن تقع علىٰ قطعة من خلات الحرير الحقيقي مرة أخرىٰ».

ومست بأصابعها كم القميص الذي ترتديه لينينا، وكانت أظافرها سوداء اللون، «كل هذا الفيسكوز البديع وسراويل القطن المخملية القصيرة، هل تعلمين يا عزيزتي أنَّني لا زلت أحتفظ بثيابي القديمة تلك التي جئت بها في صندوق، سوف أريكها فيما بعد، رغم أن نسيج الخلات بالطبع قد امتلأ بالثقوب، وما أجمل حزام الكتف الأبيض! لكن عليَّ الاعتراف بأنَّ الحزام المغربي الأخضر الذي ترتدينه هو الأكثر جمالًا، ولا أقول إنَّه أفادني في شيء هذا الحزام الذي كان يحمل مخزوني من وسائل منع الحمل».

وعاودت دموعها في الانهمار، «أظنُّ أنَّ جون أخبرك عمَّا مررت به من معاناة، ودون معونة جرام واحد من سوما يخفف عني ما لاقيته، لا شيء سوىٰ بعض المسكالين (شراب مسكر يستخرج من نوع من أنواع الصبار يسمىٰ البيُّوط) أرشفه بين كل فينةٍ وأخرىٰ، عندما كان يأتي به البابا، والبابا هو فتىً كنت أعرفه، ولكن هذا الشراب يجعلك تشعرين بالسوء مع زوال أثره، هذا ما

يفعله بك المسكالين، حتىٰ يمرضك البيوط، إلىٰ جانب أنَّه يضاعف من الشعور البغيض بالخزي في اليوم التالي، وقد كنت أشعر بالخزي حقًّا، فقط فكري في الأمر: امرأة من طبقة البيتا تحمل طفلًا، ضعي نفسك مكاني». (مجرد الاقتراح جعل لينينا ترتجف فرقًا).

«رغم أنَّه لم يكن خطئي، أقسم لك، أنا لا أعلم حتىٰ الآن كيف حدث ما حدث، مع التزامي بلف القرص المالتوسي الرقمي الموجود بالحزام؛ واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة، كما تعلمين، أقسم علىٰ ذلك، لكن رغم كل شيء فقد حدث الحمل، وبالطبع لم يكن هناك شيء كمركز للإجهاض هنا، هل مازال مركز الإجهاض موجودًا في تشيلسي؟».

أومأت لينينا، «وهل مازالت تغمره إضاءة الكشافات أيام الثلاثاء والجمعة؟!».

فأومأت لينينا مجددًا، «ذلك البرج الزجاجي البديع وردي اللون». رفعت ليندا المسكينة وجهها وبعينين مغلقتين استعادت في نشوة ذكرىٰ الصورة الزاهية، وهمست: «والنهر في المساء». انسابت قطرات الدموع غزيرة من تحت جفنيها المطبقين بشدة، «والطيران ليلًا في طريق العودة من ستوك بودجز، ثم الاستحمام بمياه ساخنة ثم آلة التدليك الهوائي الاهتزازي ... لكن يكفي هذا».

وأخذت نفسًا عميقًا ثم هزت رأسها وفتحت عينيها وتنشقت

لمرة أو مرتين قبل أن تتمخط في يدها لتمسحه في طرف سترتها، ثم هتفت ردًا علىٰ التواءة الاشمئزاز التلقائية التي ظهرت علىٰ وجه لينينا: «آه! أنا آسفة للغاية، كان يجب علي ألا أفعل ذلك، أنا آسفة، لكن ماذا يفعل المرء إذا لم تكن هناك أي محارم؟ أتذكر كم كانت تزعجني كل تلك القاذورات، وغياب المعقمات، كنت قد أصبت بجرح بالغ في رأسي عندما جاءوا بي إلىٰ هنا، ولن يمكنك تخيل ما كانوا يضعونه عليه، درن، كان ما يضعونه ليس سوىٰ درن».

ولقد اعتدت الترديد عليهم بأنَّ «الحضارة من الطهارة، وأنشد لهم أناشيد الأطفال عن النظافة، كما لو كانوا صغارًا، ولكنَّهم لم يفهموا بالطبع، وكيف يمكنهم؟ وأعتقد أنَّني ألفت الأمر في النهاية، وكيف يمكنك الإبقاء علىٰ أي شيء نظيفًا علىٰ أية حال إن لم تكن هناك مياه جارية ساخنة؟ وانظروا إلىٰ هذه الملابس، إنَّ هذا الصوف البغيض ليس كالخلات، إنَّه يتحمل ويبقىٰ، ويكون عليك أن ترتقيه إذا ما تمزق، ولكنَّني بيتا؛ وكنت أعمل في غرفة الإخصاب؛ فلم يعلمني أحد مثل هذه الأعمال أبدًا، لم يكن هذا من شأني، إلىٰ جانب أنَّه لم يكن من الصواب إصلاحها، بل كان علينا أن نلقي بها بعيدًا إذا ما ظهرت فيها ثقوب ونشتري ثيابًا جديدة، فكلما زاد الترقيع زادت الفاقة أليس كذلك؟ إن الترقيع هو سلوك معاد للمجتمع، لكن الأمور كلها مختلفة هنا، إن الوضع هنا يشبه الحياة مع مجانين، كل أفعالهم وسلوكياتهم مختلة».

تطلعت حولها ووجدت أنَّ جون وبرنارد قد تركاهما وأخذا يسيران بين التراب والقمامة خارج المنزل، ورغم ذلك خفضت صوتها وانحنت نحو لينينا التي تجمدت وانكمشت كي تسر إليها، اقتربت المرأة لدرجة أنَّ أنفاسها التي يفوح منها نتن سُم الأجنة قد حرك شعر لينينا الرابض علىٰ خدها، وهمست بصوت مبحوح: «تأملي علىٰ سبيل المثال الطريقة التي يقيمون بها العلاقات هنا، إنَّه جنون! أقول لك إنَّه جنون مطبق، فالجميع ينتمي للجميع أليس كذلك؟».

ألحت وهي تجذب كم لينينا التي أومأت برأسها وهي لا تزال مشيحة بوجهها عنها، أطلقت نفسًا عميقًا بعد كتمان أنفاسها، واستطاعت تنشق نفس آخر غير ملوث نسبيًا، واستمرت المرأة الأخرىٰ في الحديث: «هنا لا يفترض أن ينتمي الشخص لأكثر من شخص واحد، أمَّا إذا ما سلكت في علاقاتك المنحىٰ الطبيعي ظنك الناس خبيثة النفس معادية للمجتمع، فيكرهونك ويحتقرونك، حتىٰ إنَّه جاءني في إحدىٰ المرات جمع من النسوة وتشاجرن معي وعلت أصواتهن؛ لأنَّ رجالهن أتوا لزيارتي، ولماذا لا يفعلوا؟! ثم إنهنَّ اندفعن إليَّ و . . . لا، لقد كان الموقف شنيعًا، لا يمكنني أن أعيده علىٰ مسامعك».

وغطت ليندا وجهها براحتيها وارتعدت، «إنَّهُنَّ بغيضات للغاية هنا، مجنونات، مجنونات وقاسيات، وبالطبع لا يدرين شيئًا عن الممارسة المالتوسية، أو الزجاجات، أو تفريغ الأجنة، أو أي شيء

من هذا القبيل؛ **لذا**: تجدينهم ينجبون الأطفال طوال الوقت كالكلاب، أمر مقرف! وعندما أفكر كيف أنَّني أنا أيضًا . . . فورد! فورد! فورد! ومع ذلك فقد كان وجود جون سلوىٰ وعزاءً لي، ولا أدري ما كنت فاعلة من دونه، رغم أنَّه كان ينزعج بشدة كلما أتىٰ رجل . . . ، حتىٰ عندما كان صبيًا صغيرًا. وفي ذات مرة عندما شب حاول قتل وايهوزيوا المسكين -أم كان ذلك البابا؟- فقط لأنَّني كنت أقيم علاقة معه من وقت لآخر، وذلك لأنَّني لم أستطع أن أُفهمه أنَّ هذا هو ما ينبغي أن يقوم به المتحضرون، ربما كان الجنون أمرًا معديًا، ويبدو أنَّ جون قد التقطه من أولئك الهنود لملازمته لهم، رغم أنَّهم كانوا كريهين معه دائمًا، ولم يتركونه يفعل كما يفعل الصبية الآخرون، وهو ما كان نعمة بوجه من الأوجه؛ لأنَّه يسر عليَّ من محاولة تكييفه بعض الشيء، ولا تتصورين كم لاقيت من العناء في سبيل ذلك، فهناك الكثير ممَّا لا يعلمه المرء، ممَّا لم يكن من عملي أن أعلمه، أعني: إنَّه عندما يسألك الطفل عن كيف تعمل المروحية أو من الذي يحفظ العالم ويحقق رفاهيته كيف تجيبين عن ذلك عندما تكونين مجرد (بيتا) كانت تعمل في غرفة الإخصاب؟ كيف يمكنك أن تجيبي؟

الفصل الثامن

سار برنارد وجون الهوينىٰ جيئة وذهابًا بين التراب وأكوام القمامة (وكانت الكلاب قد صارت أربعة)، وكان برنارد يقول: «ذلك أمر عسير عليّ استيعابه وتصوره، وكأنّي انتقلت إلىٰ كوكب وعصر مختلف، عصر توجد فيه أمهات وقاذورات وآلهة وطعون في السن، ومرض . . .».

هز رأسه مستطردًا: «هذا لا يكاد يُتصور، ولن أتمكن أبدًا من الفهم ما لم تفسر لي الأمر».

«ماذا أفسر؟».

«هذا». وأشار إلىٰ المستعمرة، «وذاك». مشيرًا إلىٰ المنزل الصغير خارج القرية، «كل شيء، كل حياتك».

«ولكن ماذا هناك ليقال؟».

«ابدأ من البداية، من أول شيء وعيته وتذكره».

«من أول شيء أذكره». قطب جون واستغرق في صمت طويل . . .

تذكر جوًا شديذ الحرارة، وكانوا قد طعموا الكثير من فطائر

التورتيللا والذرة الحلوة.

وقالت ليندا: «تعال واستلق يا صغيري». فاستلقيا معًا في الفراش الكبير.

«غني».

فغنت له نشيد الأطفال: «ستربيتو كوك جي تذهب إلىٰ كرانبري تي»، و«وداعًا يا صغيري المَزَّاحة غدا تفرَّغ من الزجاجة». وأخذ صوتها في الانخفاض رويدًا، رويدًا . . .

وتذكر يومًا استيقظ فيه فَزِعًا علىٰ صوت ضوضاء عالية، كان هناك رجل يحادث ليندا، وهي تضحك، وقد جذبت الدثار حتىٰ ذقنها لكن الرجل عاد وشده عنها، كان شعره يبدو كحبلين أسودين، وقد التف حول ذراعه سوار فضي جميل مطعم بأحجار زرقاء، أعجبه السوار ولكنَّه ظلَّ خائفًا، فأخفىٰ وجهه في جسم ليندا، التي أحاطته بذراعها ممَّا جعله يشعر ببعض الأمان، وسمع ليندا تقول للرجل بتلك اللغة التي لا يفهمها جيدًا: «ليس وجون هنا».

نظر الرجل إليه ثم إلىٰ ليندا، وهمس ببعض الكلمات، وردت ليندا: «لا». لكن الرجل انحنىٰ علىٰ الفراش مقتربًا منه، كان وجهه ضخمًا مخيفًا وقد مست جدائله السوداء الغطاء.

قالت ليندا مرة أخرىٰ: «لا». وشعر بيدها تعتصره، «كلا، كلا». وقبض الرجل علىٰ إحدىٰ ذراعيه بقبضة مؤلمة فصرخ، لكن

الرجل لـم يتوقف بل رفعه عاليًا من ذراعيه بينما ليندا لا تزال متشبثةٌ به وهي تردد: «كلا، كلا». قال الرجل كلمة قصيرة غاضبة، وشعر بذراعيها ينفلتان فجأة، فصرخ مناديًا اسمها: «ليندا، ليندا». وأخذ يركل ويتلوىٰ، لكن الرجل اجتاز به الباب ليضعه علىٰ الأرض في وسط الغرفة الأخرىٰ وغادر مغلقًا الباب خلفه، هب واقفًا وهرع إلىٰ الباب وشب علىٰ أطراف أصابعه ليبلغ بالكاد المزلاج الخشبي الضخم، رفعه ودفع الباب، ولكن الباب عانده ولـم يفتح، فصرخ ينادي ليندا لكنَّها لـم تجبه.

تذكر غرفة ضخمة مظلمة، وأشياء خشبية كبيرة متصلة بخيوط خارجة منها، وثلة من النساء يقفن حولها يصنعن أغطية كما أخبرته ليندا، أمرته ليندا بالذهاب إلىٰ ركن الغرفة والجلوس مع الأطفال الآخرين بينما تذهب لتساعد النساء، لعب مع الصبية لوقت طويل، وفجأة ارتفع اللغط، ودفعت النساء ليندا الباكية بعيدًا، اتجهت ناحية الباب فهرول خلفها وسألها عن سبب غضبهم، فأجابت: «لأنني كسرت شيئًا».

ثم صارت غاضبة بدورها: «أنَّىٰ لي أن أعرف كيف أحيك نسيجهم البغيض؟ أولئك البدائيين المتوحشين». سألها ماذا تعني كلمة البدائيين فلم يظفر بجواب. وعند عودتهم إلىٰ المنزل كان البابا ينتظرهم علىٰ الباب وولج معهم إلىٰ الداخل، كان معه يقطينة كبيرة ملأها بما يشبه الماء، ولـم يكن ماءً ولكن سائل كريه الرائحة يلهب الفم ويتسبب في السعال، شربت ليندا بعضًا منه وكذلك

البابا، ثم أخذت ليندا تضحك كثيرًا وتتحدث بصخب، ثم دلفت هي والبابا إلىٰ الغرفة الأخرىٰ، وبعدما غادر البابا ذهب إلىٰ الغرفة الأخرىٰ ليجد ليندا مستغرقة في النوم ولم يستطع إيقاظها.

اعتاد البابا التردد عليهما، وأخبره أنَّ السائل الذي باليقطينة يدعىٰ مسكالين، لكن ليندا قالت: إنَّ الأحرىٰ به أن يدعىٰ سوما، لولا أنَّه يورث الشعور بالغثيان فيما بعد.

كان يكره البابا، كان يكرههم جميعًا؛ كل الرجال الذين كانوا يجيئون لرؤية ليندا، وتذكر ذات ظهيرة أنَّه كان يلعب مع بعض الأطفال وكان الجو باردًا آنذاك وقد غطت الثلوج قمم الجبال، ثم عاد إلىٰ المنزل ليسمع أصواتًا غاضبة آتية من غرفة النوم، كانت أصواتًا نسائية تتفوه بكلمات لم يفهمها وإن أدرك أنَّها كلمات قبيحة، ثم فجأة ارتفع صوت ارتطام شيء ما وقع من مكانه، وسمع أصوات أناس تتحرك بسرعة ثم صوت ارتطام آخر، ثم ارتفع صوت كأنَّما كان هناك من يضرب بغلًا، بغلًا سمينًا؛ ثم صراخ ليندا: «آه، لا تفعلوا، لا تفعلوا، لا تفعلوا».

فاقتحم الغرفة ليجد ثلاث نسوة في أردية داكنة، وكانت ليندا علىٰ الفراش وقد قيدت إحدىٰ النساء يديها وبركت أخرىٰ علىٰ ساقيها؛ لئلَّا تتمكن من الركل بينما تضربها الثالثة بالسوط، مرة واثنتين وثلاث مرات، ومع كل ضربة سوط كانت ليندا تصرخ، بكىٰ وقبض علىٰ هدب حزام المرأة يسترحمها «أرجوكِ، أرجوكِ».

لكن المرأة حجزته بعيدًا بيدها الحرة، وعاود السوط هبوطه

علىٰ جسد ليندا مرة وأخرىٰ وثالثة وليندا تصرخ، فقبض علىٰ اليد البنية الضخمة ليعضها بكل قوته، صرخت المرأة، وانتزعت يدها منه، ثم دفعته دفعة قوية أوقعته أرضًا، وبينما كان ملقىٰ علىٰ الأرض ضربته المرأة بالسوط ثلاث جلدات آلمته كما لم يؤلمه شيء آخر في حياته، وكأنَّما صَلته بالنار، وارتفع السوط مرة أخرىٰ واندفع نازلًا، لكن هذه المرة كانت ليندا هي التي تصرخ.

تلك الليلة سألها وهو لا يزال يبكي «لماذا أرادوا إيذاءَكِ يا ليندا؟» كان يبكي من ألم الأسواط المبرح التي خلفت علامات حمراء علىٰ ظهره ويبكي من وحشية الناس وجورهم، ويبكي عجزه وهو الصبي الصغير عن التصدي لهم، وكانت ليندا تبكي هي الأخرىٰ، فرغم كونها بالغة إلَّا أنَّها لم تكن كبيرة كفاية لتستطيع التصدي لثلاثتهم، ولم يكن ذلك عدلًا، «لماذا أرادوا أذيتك يا ليندا؟».

«لا أدري، أنَّىٰ لي أن أدري؟». كان من الصعب سماع ما تقوله؛ لأنَّها كانت مستلقية علىٰ بطنها بينما دفنت وجهها في الوسادة، «إنَّهُنَّ يقلن أنَّ أولئك الرجال رجالهنَّ». واستمرت في الكلام فيما يبدو حديث نفس، حديث طويل، بدا كما لو كانت هي نفسها لا تعيه، وفي النهاية ازداد بكاؤها وعويلها.

«آه، لا تبكي يا ليندا، لا تبكي».

ألصق نفسه بها وأحاط عنقها بذراعه فصاحت متألمة: «آه، احذر كتفي، إنَّه ما زال يؤلمني». ودفعته بعيدًا بشدة حتىٰ اصطدم

رأسه بالحائط، فصرخت: «يا لك من صبي أحمق!». وصارت تلطمه مرارًا.

صاح: «ليندا، آه يا أمي كُفِّي».

«أنا لست أمك، ولن أكون أمك».

«لكن يا ليندا . . . آه!». قاطعته بصفعة علىٰ وجهه.

«لقد تحولتَ إلىٰ بدائي همجي، تتحدث عن إنجاب الصغار كالحيوانات . . . لولاك لكنت ذهبت إلىٰ المفتش، وربما استطعت مفارقة هذا المكان، لكن ليس ومعي طفل، كان هذا سيكون عارًا وخزيًا لا يحتمل».

رأىٰ أنَّها كانت علىٰ وشك أن تضربه مرة أخرىٰ فرفع ذراعه يحمي بها وجهه، «لا يا ليندا، أرجوك لا تفعلي».

«أيها الهمجي الصغير». وأزاحت ذراعه لتكشف وجهه.

«لا يا ليندا». وأغمض عينيه ينتظر الضربة التي ستنزل عليه، ولكنَّها لم تأتِ، وبعد هنيهة فتح عينيه ليجد ليندا تحدق فيه، حاول الابتسام لها، فإذا بها تأخذه بين ذراعيها بغتةً وتنهال عليه بالقبلات.

في بعض الأحيان ولأيام عدة تظل ليندا مستلقية علىٰ الفراش تتمرغ في حزنها لا تكاد تنهض منه، أو تنهل من ذلك المشروب الذي يأتي به البابا لتنطلق ضحكاتها في سخاء ثم تستغرق في النوم، وأحيانًا كان يصيبها المرض، وكثيرًا ما كانت تنسىٰ أن

تحممه، ولا يكون هناك ما يؤكل إلا بعض خبز التورتيللا البائت، وتذكر أول مرة وجدت فيها تلك الحيوانات الصغيرة في شعره وكيف أخذت في الصراخ.

وكانت أسعد أوقاته هي تلك التي كانت تحكي له فيها عن المكان الآخر، «وهل يمكنك أن تحلقي في الهواء متىٰ رغبتِ؟!».

«نعم متىٰ رغبتُ».

كانت تخبره عن الموسيقىٰ الجميلة المنبعثة من صندوق، وكل الألعاب الشيقة التي يمكنك أن تلعبها، والأطعمة والأشربة اللذيذة، والضوء الذي يسطع عندما تضغط علىٰ شيء صغير في الحائط، والصور التي يمكنك أن تسمعها وتشعر بها وتشمها، وذلك الصندوق الآخر الذي تفوح منه الروائح العطرية، والمنازل الفضية والوردية والخضراء والزرقاء السامقة كالجبال، وحيث الكل سعداء، لا يغضب فيها أحد ولا هم يحزنون، وحيث ينتمي الجميع للجميع، وتلك الصناديق التي تمكِّنك من رؤية وسماع ما يحدث في الطرف الآخر من العالم، والأطفال الصغار في زجاجاتهم النظيفة الجميلة، حيث كل شيء نظيف غاية النظافة، لا وجود لروائح كريهة ولا قاذورات، وحيث لا يشعر الناس بالوحدة أبدًا، بل يعيشون معًا في مرح وسعادةٍ وحبور، كرقصات الربيع هنا في ماليبز، ولكن في سعادة أكبر، سعادة تستمر علىٰ مر الأيام، . . . كان يستمع إليها بالساعات وهي تسرد مباهج ذلك العالم الآخر، وكان أحيانًا عندما يسأم هو والأطفال الآخرين من كثرة اللعب

يتحلقون حول شيخ من شيوخ المستعمرة يحدثهم بتلك اللغة الأخرىٰ عن الكائن العظيم الذي يحول العالم من حال إلىٰ حال، وعن الصراع طويل الأمد بين اليد اليمنىٰ واليد اليسرىٰ، بين الندىٰ والجفاف، يروي لهم عن أووناويلونا الذي صنع ضبابًا عظيمًا بتفكيره ليلًا، ثم خلق العالم كله من ذلك الضباب؛ من أمنا الأرض وأبينا السماء، وعن أهيوتا ومارسيليما توأم الحرب والحظ، عن يسوع وبوكونج، عن ماري واتسانتلاهي التي تجدد شبابها المرة تلو المرة، عن الحجر الأسود في لاجونا، والصقر العظيم، وسيدة أكوما المبجلة. كانت قصصًا غريبة، وممَّا حببها إليه أكثر كونها سردت عليه بتلك اللغة الأخرىٰ التي لا يفهم كل كلماتها ممَّا زاد من غموضها، وحينما يرقد في فراشه ليلًا؛ فإنَّه يتفكر في السماء ولندن وسيدة أكوما والصفوف المتراصة من الأطفال في زجاجات نظيفة وفي يسوع محلقًا وليندا محلقة والمدير العظيم لمفارخ العالم وأووناويلونا.

كان يتردد علىٰ ليندا الكثير من الرجال، وبدأ الصبية يلمزونه مستهزئين، ويقولون عن ليندا في تلك اللغة الغريبة أنَّها سيئة، وينعتونها بنعوت لا يفهمها، وإن كان يدرك أنَّها نعوت مشينة، وفي يوم من الأيام أخذوا ينشدون أغنية عنها يرددونها مرارًا، فرماهم بالحجارة فردو عليه قذفًا بقذف، وأصابت إحدىٰ تلك الحجارة خده فشقته، ولم تتوقف الدماء عن التدفق حتىٰ غطت ثيابه.

علمته ليندا القراءة، وبقطعة فحم كانت ترسم له صورًا علىٰ

الحائط عن حيوان قابع وطفل في زجاجة، وكانت تكتب حروفًا وبعض الكلمات، منها: «الهررة علىٰ الفرش والصغار في القدور»، كان سريع الفهم والتعلم، وعندما تعلم كيف يقرأ كل الكلمات التي كانت تكتب علىٰ الحائط فتحت ليندا صندوقها الخشبي الكبير وسحبت من تحت السروال الأحمر العجيب الذي لا ترتديه مطلقًا كتابًا صغيرًا نحيفًا رآه قبل ذلك مرارًا، وقالت له: «عندما تكبر قليلًا يمكنك أن تقرأه». حسنًا لقد كبر الآن، وشعر بالزهو، وقالت: «أخشىٰ أنَّك لن تجده مثيرًا كفاية، ولكنَّه الشيء الوحيد الذي أملكه». وتنهدت: «لو رأيت ماكينات القراءة الجميلة الموجودة في لندن!». وبدأ في القراءة: «التكييف الكيميائي والبكتيري للأجنة: إرشادات عملية لعاملي (البيتا) في متاجر الأجنة». استغرقه قراءة العنوان وحده قرابة ربع الساعة، فألقىٰ بالكتاب أرضًا هاتفًا: «كتاب كريه بغيض!». وشرع في البكاء.

كان الأطفال لا يزالون ينشدون أنشدوتهم البذيئة عن ليندا، وكانوا أحيانًا يضحكون عليه كونه رث الثياب يرتدي أطمارًا بالية، فعندما كانت ثيابه تتمزق لم تكن ليندا تعرف كيف ترتقها، كانت تقول له إنَّه في المكان الآخر كانوا يتخلصون من الثياب المهترئة ويقتنون ثيابًا جديدة، واعتاد الصبية علىٰ الصياح في وجهه: «يا ذا الأسمال، يا ذا الأسمال».

وكان يعزي نفسه قائلًا: «ولكنني أستطيع القراءة بينما هم عاجزون عنها، إنَّهم لا يدركون حتىٰ ما هي القراءة». كان من

اليسير عليه لو ركز مليًّا في أمر القراءة أن يتظاهر باللامبالاة تجاه سخريتهم المقيتة منه؛ **لذا**: سأل ليندا أن تعطيه الكتاب مرة أخرىٰ.

وكلما زاد الصبية في تهكمهم عليه ولمزه والاستهزاء به والهزج؛ ازداد نهمه للقراءة، وسرعان ما أجاد قراءة كل الكلمات حتىٰ أطولها وأصعبها، ولكن ماذا تعني تلك الكلمات؟ سأل ليندا، ولكن حتىٰ عندما كان يمكنها الإجابة لم تعينه إجابتها علىٰ الفهم، وفي الغالب لم تكن تستطيع الإجابة علىٰ الإطلاق.

«ما هي الكيماويات؟».

«آه، إنَّها أشياء مثل أملاح الماغنيسيوم والكحول الذي يستخدم للإبقاء علىٰ أجنة الدلتا والإبسيلون في حجم ضئيل ولكبح نموهم، وينتفع بكربونات الكالسيوم للعظام، وما إلىٰ ذلك».

«ولكن كيف تصنعين الكيماويات يا ليندا؟ ومن أين تأتي؟».

«لا أعلم، الكيماويات تأتي بها من القناني، وعندما تفرغ تلك القناني ترسل إلىٰ متجر الكيماويات ليمدوك بالمزيد، وهناك يصنعونها علىٰ ما أظن، أو ربما يطلبونها من المصنع، لا أعلم تحديدًا، فأنا لم أعمل في المجال الكيميائي، بل كان عملي دائمًا مع الأجنة. وكان هذا هو نهجهما في كل ما يسأل عنه، كانت ليندا دائمًا لا تعلم، أما كهول المستعمرة ومسنيها فبدا أن لديهم إجابات أكثر تحديدًا».

«بذرة الإنسان وكل المخلوقات الأخرىٰ، بذرة الشمس وبذرة الأرض وبذرة السماء التي صنعها أووناويلونا من الضباب المتكاثر، وهكذا يحتوي العالم علىٰ أربعة أرحام، وقد وضع تلك البذور في أدنىٰ تلك الأرحام، وبالتدريج ترعرعت تلك البذور . . . ».

وفي إحدىٰ تلك الأيام (قدر جون فيما بعد أنه ولابد كان عقب بلوغه الثانية عشرة) عاد إلىٰ المنزل ليجد كتابًا لم تقع عليه عينه من قبل ملقىٰ علىٰ أرضية غرفة النوم، كان كتابًا سميكًا يبدو عليه القدم، قد قرضت الفئران غلافه الجلدي، وكانت بعض صفحاته قد تقطعت وتغضن البعض الآخر، فالتقطه، ونظر إلىٰ صفحة العنوان، وقرأ: **(الأعمال الكاملة)**، لويليام شكسبير.

كانت ليندا مستلقية علىٰ الفراش ترتشف من قدح يحوي ذلك المسكالين الكريه نتن الرائحة، وقالت: «لقد جاء به البابا، كان صوتها غليظًا مبحوحًا لا يشبه نبرتها العادية علىٰ الإطلاق»، كان ملقىٰ في أحد الصناديق بغرفة أرضية من تلك الغرف المشيدة بالجلد المدبوغ، ويبدو أنَّه تُرك هنالك مهجورًا منذ مئات السنين، وأظن أنَّ هذا حقيقيًّا؛ لأنَّني تصفحته سريعًا ووجدته مليئًا بالهراء، كتاب غير متحضر، ولكنَّه صالحٌ بما فيه الكفاية لتتمرس فيه علىٰ القراءة. ارتشفت رشفة أخيرة ووضعت القدح علىٰ الأرض بجانب الفراش وانقلبت علىٰ شقها تفوق وتشهق عدة مرات قبل أن تغط في النوم.

فتح الكتاب كيفما اتفق فوقعت عيناه علىٰ هذه الفقرة:

(لكن أن تعيش متمرغًا في عرق سرير النبلاء المدنس بالفساد، مغازلًا ومداعبًا في حظيرة الخنازير)[(١)].

هدرت الكلمات الغريبة في عقله وقعقعت كحديث رعد، كدوي الطبول في رقصات الصيف لو كان للطبول أن تتكلم، كمنشدي ترنيمة الذرة، كانت الكلمات جميلة جمالًا يستجلب البكاء، كتمتمات ميتسيما المسن وهو يقوم بسحره مستعينًا بريشاته وعصيه المنحوتة وعظامه وأحجاره الصغيرة، ولكنَّها أجلُّ من سحر ميتسيما؛ لأنَّها تعني الكثير، ولأنَّها تخاطبه بحديثها الرائع وإن لم يفهم شطره، كان سحرًا رائعًا ومروعًا في آن، عن ليندا، عن ليندا الغافية تغط في نومها، والقدح الفارغ الملقىٰ علىٰ الأرض بجانب الفراش، عن ليندا والبابا، نعم ليندا والبابا.

وازداد بغضه للبابا أكثر وأكثر. والمرء يمكنه أن يظل مبتسمًا دائمًا بينما ينطوي قلبه علىٰ الشر، فهو شرير، خائن، داعر، غير رحيم[(٢)].

ترىٰ ماذا كانت تعني تلك الكلمات بالضبط؟ لم يصله إلَّا بعض المعنىٰ، ولكن سحر الكلمات كان قويًّا يجلجل في عقله،

---

(١) هذا المقطع هو من «مسرحية هاملت»، جاء علىٰ لسان البطل موجهًا فيه الحديث لأمه التي تزوجت عمه قاتل أبيه بعد وفاته مباشرة.

(٢) «مسرحية هاملت»، لشكسبير.

وبدا وكأنَّه لم يكن يكره البابا حقًّا من قبل، وذلك لأنَّه لم يكن يملك من الكلمات ما يعبر بها عن مدىٰ كرهه له، ولكنَّه يملكها الآن، كلماتٌ كأنَّها الطبول والأهازيج والسحر، تلك الكلمات والقصة العجيبة المأخوذة منها (التي لم يفهم لها رأسًا من ذيل، ولكنَّها كانت رائعة غاية الروعة مع ذلك) أعطياه سببًا لبغض البابا، وكسيا هيكل ذلك البغض باللحم والدم، بل لقد جعلا وجود البابا نفسه أكثر أصالة وواقعية.

وفي يوم من الأيام عند عودته من لعبه وجد باب الغرفة الداخلية مفتوحًا ورآهما راقدين معًا علىٰ الفراش تتلاصق بشرتاهما؛ بشرة ليندا البيضاء وبشرة البابا شبه السوداء، وهو يحوطها بذراعيه وقد رقدت ضفيرة من ضفائره الطويلة علىٰ جيدها كأفعىٰ سوداء تحاول خنقها، كانت يقطينة البابا وقدح موضوعان علىٰ الأرض بجوار الفراش، وكانت ليندا تغط في نومها.

هوىٰ قلبه في صدره مخلفًا وراءه فراغًا امتد ليشمل كيانه كله، كان خاويًا، خاويًا وباردًا، وقد شعر بشيء من الغثيان والدوار، فاتكأ علىٰ الجدار كي يعينه علىٰ الثبات، يا له من عديم الشفقة، خائن، داعر، وترددت الكلمات في عقله كالطبول، كالمنشدين المبتهلين لمحصول الذرة، كالسحر، وبعد أن كان يشعر بالبرد انتقل إليه إحساس الحمىٰ وقد التهبت وجنتاه بالدماء المتدفقة فيهما، ودارت الغرفة من حوله وغشيت عيناه سحابة، وصَرَفَ

بأسنانه مرددًا دون انقطاع: «سأقتله، سأقتله، سأقتله»، وفجأة ظهرت كلمات جديدة،

«عندما يغط في نومه مخمورًا، أو يكون في سورة الغضب، أو غارقًا في ملاذ فراشه الذي يرتكب فيه زنا المحارم ...»[1].

كان السحر يناصره، يفسر له ما غمض عليه ويأمره، فخطا خارجًا وهو يتمتم: «عندما يغط في نومه مخمورًا ...». كان سكين اللحم واقعًا علىٰ الأرض بجانب المدفأة فالتقطه وتسلل علىٰ أطراف أصابعه إلىٰ باب الغرفة «عندما يغط في نومه مخمورًا ... عندما يغط في نومه مخمورًا». وهكذا هرع إلىٰ الداخل وأعمل الطعن، ياللدماء! مجددًا طعن البابا الذي فزع من نومه، رفع يده مرة أخرىٰ وبدأ يهبط بالسكين؛ ليجد كفًّا يعترضه، ويقبض علىٰ يده، وآه يلويها بعنف، لم يستطع الحراك، لقد حوصر، واقتربت عينا البابا السوداوان الضيقتان تحدقان في عينيه فنظر بعيدًا، كان هناك جرحان علىٰ كتف البابا الأيسر.

وصاحت ليندا باكية: «آه، انظر إلىٰ تلك الدماء!».

لم تكن ليندا تتحمل منظر الدماء، رفع البابا يده الأخرىٰ ليضربه بها كما ظن فتجمد منتظرًا الضربة، لكن اليد لم تفعل سوىٰ أن قبضت علىٰ ذقنه تدير وجهه إليه، فلم يجد مناصًا من النظر في عيني البابا لبرهة طويلة، لساعات وساعات، وفجأة لم يملك أن

---

(١) «مسرحية هاملت»، لشكسبير.

انفجر باكيًا، فأغرب البابا في الضحك، وقال له بتلك اللغة الهندية الأخرىٰ: «اذهب، اذهب يا صديقي الأهايوتا[1] الشجاع». فانطلق يعدو خارجًا إلىٰ الغرفة الأخرىٰ ليخفي دموعه.

قال ميتسيما الشيخ بلغة قومه: «إنَّك في الخامسة عشرة الآن، وقد حان وقت تعليمك كيفية العمل مع الصلصال».

واحتبيا بجانب النهر وبدءا العمل سويًا.

قال ميتسيما متناولًا قطعة من الصلصال الرطب: «سيكون أول ما نصنعه قمر صغير». وشكَّل القطعة بيده علىٰ شكل قرص قبل أن يثنىٰ حوافه ليتحول القمر إلىٰ قدح مسطح، وببطء ودون مهارة بدأ جون يقلد حركات الشيخ الحاذقة.

«قمر وقدح والآن ننحت ثعبانًا». اقتطع ميتسيما قطعة أخرىٰ من الصلصال ولفها علىٰ شكل أسطوانة طويلة مرنة لملمها في دائرة وألصقها بحافة القدح، «ثم أفعىٰ أخرىٰ، وأخرىٰ، وثالثة». ولفة بعد أخرىٰ شيد ميتسيما جوانب القدح، كان الشيء المنحوت يبدو ضيقًا ثم ينتفخ ليعود ضيقًا مرة أخرىٰ قرب العنق، ثم اعتصره ميتسيما وربّت ومسد وبَرَىٰ ليخرج النحت أخيرًا في شكل إناء الماء المعروف لأهل الماليز، وإن كان لونه لون القشدة بدلًا من اللون الأسود المعتاد، وكانت لا تزال طرية، ووقفت بجانبها النسخة المقلدة معقوفة وملتوية، نظر إليهما جنبًا إلىٰ جنب فلم يتمالك نفسه

(١) أهايوتا في أساطير سُكان أمريكا الأصليين هما: التوأم إلاها الحرب.

من الضحك وقال: «ستكون القطعة التالية أفضل». والتقط صلصالًا آخر وندّاه ليبدأ العمل فيه.

كانت عملية التصميم والتشكيل والنحت، والشعور بأن أصابعه تزداد مهارة وقدرة يسعده ويمتعه متعةً بالغة، وكان يغني أثناء عمله: (أ، ب، سي، فيتامين دي، الدهن في الكبد والقد في اليم).

وكان ميتسيما يغني كذلك أغنية عن قتل دب، كانا يعملان طوال النهار، وطوال النهار كانت تستغرقه سعادة عميقة، قال ميتسيما الشيخ: «في الشتاء القادم سأعلمك كيف تستخدم القوس».

توقف مليًّا أمام المنزل إلىٰ أن انتهت أخيرًا المراسم داخله، وانفتح الباب وخرجوا، خرج كوثلو أولًا، وقد استقام ذراعه اليمنىٰ، وقبض كفه بإحكام كأنَّما علىٰ جوهرة ثمينة، ثم تبعته كياكيم وذراعها اليمنىٰ علىٰ نفس الحال، وتقدَّما صامتين، ومن ورائهما سار أيضًا في صمت الأخوة والأخوات وأولاد العمومة وباقي القبيلة من كبار السن. ساروا خارج المستعمرة الهندية إلىٰ الهضبة وعند حافتها توقفوا موجهين وجوههم لشمس الصباح الباكر، فتح كوثلو قبضته وإذا بحفنة من دقيق الذرة راقدة علىٰ راحته، فنفث فيها متمتمًا ببضع كلمات قبل أن يقذف بها كذرات من التراب الأبيض في وجه الشمس، ثم تقدم والد كياكيم حاملًا في يده عصا الصلوات المزدانة بالريش؛ ليبدأ في صلاة طويلة ختمها بإلقاء العصا وراء دقيق الذرة.

قال ميتسيما الشيخ بصوت مرتفع: «انتهىٰ الأمر وأصبحا زوجين الآن».

قالت ليندا وهم يستديرون عائدين: «حسنًا، كل ما يمكنني قوله هو أنَّهم باءوا بكثير من المشقة لأمر لا يستأهل ذلك، ففي البلاد المتحضرة عندما يرغب فتىً في أن ينال فتاة كل ما عليه فعله هو ... ولكن إلىٰ أين أنت ذاهب يا جون؟!».

لم يعرها التفاتًا وانطلق يعدو بعيدًا بعيدًا ليخلو بنفسه، انتهىٰ الأمر، ترددت كلمات ميتسيما الشيخ في ذهنه، انتهىٰ ... انتهىٰ ...، ترددت الكلمة صامتة كأنَّها قادمة من بعيد، ترددت بعنف وقنوط واستماتة، لقد أحب كياكيم، والآن انتهىٰ الأمر. كان قد بلغ السادسة عشرة آنذاك.

تحت القمر المكتمل بدرًا تفشىٰ الأسرار في تلك الغرفة السفلية المشيدة بالجلد المدبوغ، وستؤدىٰ إلىٰ أصحابها ليتحملوها، وسيهبط الفتية إلىٰ الغرفة السفلية ولسوف يخرجون منها رجالًا، كان كل الفتية خائفين، ولكنَّهم كانوا متلهفين كذلك، وأخيرًا جاء اليوم الموعود، وغربت الشمس ولاح القمر في السماء، وذهب مع الآخرين، ووقف الرجال علىٰ مدخل الغرفة السفلية كأشباح سوداء، وألقي السلم إلىٰ الأعماق المشعة بضوء قرمزي، وتوجه قائدو الفتية أولًا نحو السلم يتبعهم الباقون، لكن أحد الرجال تقدم ليقبض علىٰ ذراعه وسحبه بعيدًا عن الصفوف، لكنه تملص منه وراغ عائدًا إلىٰ مكانه بين الآخرين، فقرعه الرجل

هذه المرة وجذب شعره قائلًا: «هذا ليس لك يا أبيض الشعر». وهتف رجل آخر: «ليس لابن الفاسقة». فضحك الفتية.

«اذهب!».

ولما ظلَّ يتأرجح في مكانه علىٰ طرف المجموعة مترددًا صاح فيه الرجال مجددًا: «اذهب».

وانحنىٰ أحدهم ملتقطًا حجرًا قذفه به هاتفًا: «اذهب ... اذهب ... اذهب ...».

تبع ذلك سيل من الحجارة، فجرىٰ هاربًا يشخب دمًا ليبتلعه الظلام، ومن الغرفة السفلية المضاءة بالأحمر تصاعد صوت الغناء بعد أن هبط آخر الفتية السلم، ووقف وحيدًا تمامًا خارج المستعمرة علىٰ أرض الهضبة المجدبة، وبدت صخورها المعرضة لعوامل التعرية كالعظام اللماعة في ضوء القمر، بينما عوت ذئاب البراري أسفل الوادي في وجه القمر، كانت الكدمات تؤلمه، وكانت جروحه لا تزال تنز دمًا، ولم يكن الألم هو ما جعله ينشج، ولكن وحدته الموحشة، وطردهم إياه وحيدًا بلا أنيس إلَّا هذا التكوين الصخري وأشعة القمر، وعلىٰ حافة الجرف جلس، والقمر وراءه ينظر إلىٰ أسفل إلىٰ الظل القاتم الذي يلقيه جسم الهضبة؛ ظل الموت الأسود، لن يكلفه الأمر سوىٰ خطوة واحدة، قفزة صغيرة، فرد ذراعه الأيمن يكشفه لضوء القمر، كان الدم لا يزال ينز من جرح معصمه، تتساقط منه كل فينة القطرة بعد الأخرىٰ، لا يكاد يبين لونها في ضوء القمر البارد، تساقطت القطرات، الغد

وبعد غد والغد الذي يليه، واكتشف في هذه اللحظات الزمن والموت والله.

كان الشاب يقول: «وحيد، دائمًا وحيد». أيقظت هذه الكلمات صدًىٰ حزينًا في ذهن برنارد، وحيد، وحيد . . .

فقال في فيض من المصارحة: «وأنا كذلك، وحيد تمامًا».

بدت الدهشة علىٰ جون: «أحقًّا؟ لقد ظننت أنَّه في المكان الآخر . . . أعني: أنَّ ليندا طالما أخبرتني أنَّه لا مجال لأن يكون المرء وحده هناك».

تململ برنارد واحمرَّ وجهه وتمتم وقد نحىٰ عينيه عنه: «الأمر هو أنَّني مختلف عن معظم الناس علىٰ ما أظن، ذلك أنَّه إذا حدث وفُرِّغ الفرد بشكل مختلف . . .».

أومأ الشاب برأسه: «نعم؛ لا بُدَّ أنَّ هذا هو الأمر، وإذا كان الشخص مختلفًا فلا مفر له من الوحدة، إنَّهم ينفرون عمن يختلف عنهم، هل تعلم أنَّهم منعوني وعزلوني عن كل شيء؟ وعندما أرسل الفتية ليقضوا ليلةً في الجبال -ليتسنىٰ لهم التأمل والحلم أي الحيوانات يتخذونها مقدسة كما تعلم- لم يدعوني اذهب مع الآخرين، ولم يكونوا يأتمنونني علىٰ أي من أسرارهم، ولكنني فعلت ذلك وحدي رغمًا عنهم، فلم أطعم شيئًا لخمسة أيام ثم ذهبت وحدي ليلًا إلىٰ تلك الجبال القابعة هناك». وأشار بيده.

فابتسم برنارد وسأله متلطفًا كأنَّما يخاطب طفلًا: «وهل حلمت بأي شيء؟».

أومأ الآخر برأسه: «ولكن ينبغي عليَّ ألَّا أخبرك عنه».

وصمت هنيهة قبل أن يستطرد بصوت خفيض: «في مرة من المرات فعلت ما لم يفعله أي من الآخرين، وقفت قبالة صخرة في رابعة النهار في قيظ الصيف فاردًا ذراعاي كيسوع فوق الصليب».

«ولماذا يا ترىٰ؟!».

«أردت أن أعلم كيف يكون شعور المصلوب معلقًا هناك في الشمس . . .».

«ولكن لماذا؟».

«لأنَّني . . . لأنَّني شعرت أنَّه يجب عليَّ ذلك، فإذا قدر يسوع علىٰ تحمله فكذلك أستطيع أنا، كما أنَّ المرء إذا ارتكب خطيئة . . .، إلىٰ جانب أنَّني كنت تعيسًا، هذا سبب آخر».

قال برنارد: «تبدو لي وسيلة عجيبة تعالج بها تعاستك».

ولكنَّه مع إنعام الفكر اتضح له أنَّ بها بعض الوجاهة، وهي أفضل من تناول سوما علىٰ أية حال.

قال الشاب: «وبعد فترة قصيرة خررت علىٰ وجهي مغشيًا علي، أترىٰ تلك الندبة حيث وقعت؟».

ورفع بيده خصلة شقراء كثة عن غُرَّته فظهرت الندبة متغضنة شاحبة اللون عن باقي جلده، ألقىٰ برنارد نظرة لكنه سرعان ما أشاح بوجهه وقد اعترته رعدة خفيفة، ولم يكن ذلك لفرط إشفاق

منه، لكن تكييفه قد جعله مفرط الحساسية سريع الغثيان يتقذر من أدنىٰ شيء، لم تكن مجرد الإشارة إلىٰ المرض أو الجروح تروعه فقط، ولكنَّها كانت تثير اشمئزازه ونفوره، كالقاذورات والتشوهات والشيخوخة، وبسرعة غير موضوع الحديث.

متخذًا الخطوة الأولىٰ في حملة كان يخطط لها سرًّا ويحبكها منذ زيارته للمنزل الصغير عندما أدرك من هو والد ذلك الفتىٰ البدائي قال: «أترغب في العودة معنا إلىٰ لندن».

فاستضاء وجه الشاب: «هل تعني ذلك حقًّا؟».

«بالطبع، هذا لو استطعتُ الحصول علىٰ تصريح بالطبع».

«وليندا كذلك؟».

«حسنٌ ...». وتردد متشككًا، هاته المخلوقة المقززة؟! لا هذا مستحيل، إلَّا إذا ... إلَّا إذا ... خطر لبرنارد أن كونها مقززة للنفس ربما يكون ميزة عظيمة في صالحه، فهتف متحمسًا، وكأنَّما يعوض ما بدا من تردده آنفًا بالمبالغة في الترحيب: «بالطبع».

فسحب الفتىٰ نفسًا عميقًا: «ما أعجب التفكير في أن ما حلمت به طوال حياتي سيتحقق أخيرًا، أتذكُر ما قالته ميراندا؟».

«ومن هي ميراندا؟».

لكن يبدو أنَّ الفتىٰ لم يسمع السؤال، فاستمر في حديثه مقتبسًا وقد التمعت عيناه وتورد وجهه: «يا عجبًا! كم من مخلوقات

طيبة وصلت إلىٰ هنا، ما أجمل جنس البشر!»[1].

وازداد احتقان الدم في وجهه، كان يفكر في لينينا، تلك الملاك الملتف برداء من الفسكوز الأخضر، والتي يلتمع جلدها بنضرة الشباب والرِي، المكتنزة، المبتسمة ابتسامة رءوم، تحشرج صوته وهو يستأنف: «أيُّها العالم الجديد الشجاع»، ثم توقف فجأة وقد غاض الدم من وجهه حتىٰ أصبح في شحوب الورقة، وسأل برنارد: «أزوجها أنت؟».

«أنا ماذا؟!».

«زوجها، كما تعلم - للأبد، إنَّهم يقولون للأبد في الهندية، إنَّها صلة لا يمكن فصمها».

لم يملك برنارد نفسه من الضحك: «بحق فورد! كلا!». وشاركه جون الضحك وإن كان لسبب مختلف، كان يضحك في سعادة خالصة.

«آوه أيُّها العالم الجديد الشجاع!».

وردد مكررًا: «أيُّها العالم الجديد الشجاع الذي يعيش فيه مثل هؤلاء البشر، فلنبدأ علىٰ الفور».

فقال برنارد وهو يحدق في الشاب مندهشًا متحيرًا: «إنَّك تتحدث بأسلوب عجيب أحيانًا، وعلىٰ أيه حال أليس من الأفضل أن تنتظر حتىٰ تتعرف علىٰ هذا العالم الجديد أولًا؟».

---

(١) «مسرحية العاصفة»، لشكسبير.

الفصل التاسع

شعرت لينينا باستحقاقها عطلة كاملة بعد ذلك اليوم الطويل المليء بالغرائب والرعب؛ **لذا**: ازدردت ستة أقراص (زنة نصف جرام) من سوما فور عودتهم إلىٰ منزل الاستراحة، وتمددت علىٰ فراشها، وفي خلال عشر دقائق أقلعت في طريقها إلىٰ عالم الخلود علىٰ سطح القمر، وهي رحلة سوف تستغرق عودتها منها إلىٰ عالم الواقع ثماني عشرة ساعة علىٰ الأقل.

في تلك الأثناء كان برنارد مستلقيًا في الظلام مفتوح العينين، متأملًا حزينًا، ولم يستغرق في النوم إلَّا بعد منتصف الليل بكثير، ولكن أرقه لم يذهب سدًىٰ، فقد تكونت لديه خطة.

في الصباح التالي في تمام العاشرة خطا السائق المولَّد بزيه الأخضر خارج مروحيته حيث كان برنارد ينتظره بجانب شجيرات السلب[1].

وأخبره برنارد: «لقد رحلت الآنسة كراون في عطلة من عطلات سوما، ولن تعود قبل الخامسة، وهذا يعطينا سبع ساعات».

---

(١) **السلب**: نوع من أنواع الصبار.

وهو ما سيمكنه من أن يطير إلىٰ سانتا في وينجز حاجته، ثم يعود إلىٰ المالبيز ثانيةً قبل استيقاظها بوقت كافٍ.

«هل ستكون بمأمن بمفردها هنا؟».

طمأنه المولِّد: «ستكون آمنة كالمروحيات».

صعدا إلىٰ المروحية وانطلقا في الحال، ليهبطا في العاشرة وأربع وثلاثين دقيقة علىٰ سطح مبنىٰ بريد سانتا في، وفي العاشرة وسبع وثلاثين دقيقة كان برنارد علىٰ اتصال بمكتب مراقب العالم في وايت هول متحدثًا إلىٰ المساعدة الشخصية الرابعة للمبجل بحق فورد، وفي العاشرة والدقيقة الرابعة والأربعين كان يكرر قصته للمساعدة الشخصية الأولىٰ، وفي العاشرة والدقيقة السابعة والأربعين ونصف طرق سمعه الصوت العميق الرنان لمصطفىٰ موند شخصيًا.

تكلم برنارد متلعثمًا: «لقد غامرت بالتفكير في أن سيادتكم قد تجدون للأمر أهمية علمية . . .».

قال الصوت العميق: «نعم؛ أجد الأمر ذا أهمية علمية كافية، ائتني بهم هنا في لندن».

«تدركون سيادتكم أنَّني سأحتاج إلىٰ تصريح خاص . . .».

قاطعه مصطفىٰ موند للمرة الثانية: «التعليمات المطلوبة في طريقها إلىٰ آمر المحمية في هذه اللحظة، فتوجه علىٰ الفور إلىٰ مكتب الآمر، أسعدت صباحًا يا سيد ماركس».

ظل برنارد ممسكًا بالسماعة حتىٰ تأكد من انتهاء المكالمة، ثم هرع إلىٰ السطح وقال للمولّد ذي الزي الأخضر: «مكتب الآمر».

في العاشرة والرابعة وخمسين دقيقة كان برنارد يصافح الآمر الذي قال له بنبرة يشوبها الاحترام: «أنا في غاية السعادة يا سيد ماركس، لقد تلقينا لتونا تعليمات . . .».

قاطعه برنارد: «نعم؛ أعلم ذلك، فقد كنت علىٰ الهاتف مع فخامته آنفًا».

كانت لهجة برنارد الملولة توحي أن محادثة فخامته هي عادة يومية له، واستلقىٰ علىٰ مقعد قائلًا: «سأكون شاكرًا إن اتخذت الخطوات المطلوبة بأسرع ما يمكن»، ثم كرر مؤكدًا: «بأسرع ما يمكن». كان برنارد مستمتعًا بالموقف أيما استمتاع.

في الحادية عشرة وثلاث دقائق كانت بحوزته كل الأوراق المطلوبة، وودع متنزلًا الآمر الذي رافقه حتىٰ المصعد: «إلىٰ اللقاء».

عاد إلىٰ الفندق واغتسل وتدلك وحلق ذقنه بآلة الحلاقة الكهربية، واستمع إلىٰ أخبار الصباح، وشاهد التلفاز لنصف الساعة، وتناول وجبة غدائه علىٰ مهل، وفي الثانية والنصف عاد بالطائرة مع قائدها المولَّد إلىٰ المالبيز.

وقف الشاب خارج منزل الاستراحة هاتفًا: «برنارد!». وأعاد النداء: «برنارد!». فلم يجد إجابة.

فهرول بخطواته الصامتة يكتمها خفاه المصنوعين من جلد الغزال يتسلق الدرج ويحاول فتح الباب، ليجده مغلقًا.

لقد ذهبوا، ذهبوا! كان ذلك أسوأ ما مر عليه في حياته، لقد سألته أن يأتي لزيارتهما، وها هما ذان قد رحلا، فجلس يبكي علىٰ الدرج.

مرت نصف ساعة قبل أن يخطر له أن ينظر عبر النافذة، كان أول ما قابلته عيناه حقيبة سفر خضراء مطبوع علىٰ غطائها الأحرف الأولىٰ من اسم مالكها: (ل. ك.)، فاستبد به الفرح يسري في جسده كاللهيب، والتقط حجرًا ليرتفع بعده صوت تهشم الزجاج المتساقط علىٰ الأرض، فدلف إلىٰ الغرفة وفتح الحقيبة ليقابله عطر لينينا يملأ رئتيه برائحتها المعطرة، دق قلبه بجنون، وللحظة شعر بالدوار، ثم انحنىٰ علىٰ الصندوق الثمين يلامسه، يرفعه إلىٰ الضوء ويتفحصه، كان السحاب في سروال لينينا القصير من القطيفة والفسكوز الأخضر أمرًا محيرًا له في البداية، ثم شعر بالحبور عندما حل اللغز، وافتتن بالسحاب فأخذ يفتحه ويغلقه، أمَّا خفاها الأخضران فكانا أجمل شيء وقعت عليه عيناه، والتقط قطعةً من الثياب الداخلية التي لها سحاب هي الأخرىٰ ليحمر وجهه ويضعها جانبًا بسرعة، وقبَّل منديلًا معطرًا من الخلات، ولف حول عنقه وشاحًا، ثم فتح صندوقًا صغيرًا لتتناثر منه سحابة من مسحوق معطر انتثرت علىٰ يديه كالدقيق فمسح بهما علىٰ صدره وكتفيه وذراعيه العاريتين، ما أطيبه من عطر!

أغمض عينيه ومسد خده بذراعه المعطر، كانت اللمسة الناعمة علىٰ وجهه، ورائحة غبار المسك في أنفه يشيان بحضورها.

فكرر اسمها هامسًا: «لينينا ... لينينا».

وأفزعه صوت أخرجه من تأملاته فتلفت شاعرًا بالإثم، ودس سرقاته في حقيبة السفر علىٰ عجل، وأغلق الغطاء، تسمع مجددًا وتلفت حوله فلم يجد نأمة ولا أثرًا لحياة، ومع ذلك فهو واثقٌ من أنه سمع صوتًا، كما لو كان أحد يتنهد، أو صوت قرقعة الأرض الخشبية تحت وطء القدم، تسلل علىٰ أطراف أصابعه حتىٰ الباب وفتحه بحذر؛ ليجد أمامه بسطة رحبة وعلىٰ الناحية الأخرىٰ منها باب آخر موارب، فخطا نحوه وفتح الباب متلصصًا؛ ليجد أمامه لينينا مستغرقة في النوم علىٰ فراش منخفض وقد أزاحت الغطاء عنها، كانت ترتدي منامة من قطعة واحدة ذات سحاب، وردية اللون، وكانت فاتنة بلفائف شعرها المتموج، وشكلها الطفولي الذي يمس شغاف القلب بأظافر قدميها المتوردة وتعبير وجهها الجاد الرزين في سباتها، وقد أسلمت نفسها للنوم بلا حول ولا قوة بيديها المرتخيتين وأطرافها الساكنة، فترقرقت عيناه بالدموع.

وبحرص لا داعي له حيث لم يكن ليستدعي لينينا من عطلة سوما قبل ميعاد استيقاظها إلَّا طلقة بندقية علىٰ الأقل دلف إلىٰ الغرفة، وجثا بجانب الفراش محدقًا فيها وقد شبك يديه وتحركت شفتاه متمتمًا:

«يا لعينيها، وشعرها، ووجنتيها، ومشيتها، وصوتها؛

ويدها، آهٍ من يدها التي تذكرها في حديثك،
بيضاء يصير بجوارها أي بياض آخر حبرًا حالكًا،
كمداد يكتب مؤنبًا نفسه أن ظن شحوبه بياضًا،
أمَّا لين كفها فيبدو معه زغب صغير الأوز أشواكًا . . .»[1].

حامت حولها ذبابة تئز فهشها بيده، «ذبابةّ!»[2]. فتذكر:

«إذ يقدر أن يلمس،
تلك المعجزة البيضاء، يد فاتنتي جولييت،
أو أن يختلس الشهد الخالد من شفتيها،
وهما في طهر عذري وصفاء طوية،
تحمران من الخجل كأن القبلة بين الشفتين خطية»[3].

ببطء شديد مد يده مترددًا كمن يقترب من طائر خجول نافر وترك يده معلقة ترتجف فوق كفها المرتخي، هل يجرؤ علىٰ ملامستها؟ هل يجرؤ أن ينتهك بيده غير الجديرة تلك الـ . . . لا إنَّه لا يجرؤ، إنَّ هذا لطائر بري نافر، وتراجعت يده لتسقط بجانبه، ما أجملها، ما أجملها!

خطر له فجأة: أنَّه ما أيسر أن يمسك السحاب عند جيدها،

---

(١) «مسرحية ترويلوس وكريسيدا»، لشكسبير.

(٢) يسبق المقطع التالي تأملات (روميو) أنَّ الذباب في فيرونا سيرىٰ حبيبته (جولييت) بينما هو محروم من ذلك في منفاه.

(٣) مقطع من «مسرحية روميو وجولييت»، لشكسبير، ترجمة د. محمد عناني.

ويسحبه سحبة واحدة قوية ... أغمض عينيه، وهز رأسه بقوة ككلب ينفض عن أذنيه الماء، ما أنكرها من فكرة! شعر بالخجل من نفسه، كيف وهي العفيفة النقية الطاهرة ...

كان هناك طنين في الهواء، أذبابة أخرىٰ تحاول سرقة المزيد من النعم الخالدة؟ أم كان ذلك دبورًا؟ تلفت حوله لكنَّه لم يرَ شيئًا، ومع ذلك فقد تعالىٰ صوت الطنين، وتركز مصدر الصوت خارج النوافذ المغلقة.

إنَّها الطائرة!

هب مفزوعًا علىٰ قدميه وعدا إلىٰ الغرفة الأخرىٰ، ووثب خارج النافذة المفتوحة، وهرع في الممر بين شجيرات السلب ليلاقي برنارد ماركس وهو يهبط من المروحية في الوقت المناسب.

الفصل العاشر

أشارت العقارب العشرة في كُلٍّ من الأربع آلاف ساعة إلكترونية المتواجدة في الأربع آلاف غرفة في مركز بلومز بري إلىٰ الثانية وسبعٍ وعشرين دقيقة، وكانت خلية النحل الصناعية تلك -كما يحلو للمدير أن يُطلق عليها- تطن في ذروة العمل، كان الجميع منشغلًا، وكلٌّ يسير في نظام، وكانت الذيول الطويلة تحت المجاهر تتحرك بعنف، تجلد الهواء يمينًا ويسارًا، والنُطَف تخترق البيض متوغلة برأسها أولًا، وكان البيض المخصب يتمدد وينقسم، أو -إذا ما عولج بـ(عملية بوكانوفيسكي)- يتبرعم وتنشق عنه مجموعات سكانية كاملة من الأجنة المستقلة، ومن غرفة تعيين الأقدار الاجتماعية هدرت المصاعد هابطة إلىٰ القبو، وهناك في الظلام القِرمزي الرطب الدافئ، وعلىٰ حامل من الأغشية البريتونية المتخمة ببديل الدم والهرمونات كانت بعض الأجنة تنضج وتترعرع، وبعضها الآخر يتَسمَّم؛ ليتباطأ نموها، ويضعف متوقفًا عند مرحلة (الإبسيلون). وبهمهمة وقعقعة خافتة تتقدم الأرفف زاحفة بلطف لأسابيع وأسابيع في رحلة تختزل فيها الدهور إلىٰ غرفة التفريغ، حيث يطلق الأطفال حديثو التفريغ أولىٰ صرخاتهم المليئة بالدهشة والرعب.

وهدرت المولدات في منطقة أسفل القبو، واندفعت المصاعد صاعدة وهابطة، وحان وقت إطعام الأطفال في كل الطوابق الإحدىٰ عشر التي بها الحضَّانات، ومن ثمانمائة زجاجة شرع ثمانمائة رضيع مصنفين ومرقمين بعناية يمصون جرعاتهم المعتادة؛ نصف اللتر من الإفرازات الخارجية المبسترة.

وفوقهم علىٰ عشرة طوابق متتابعة في مهاجع الصبية والبنات صغار السن انشغلوا بدورهم في نشاط لا يدركونه أثناء قيلولتهم، وسجلت عقولهم الدروس التي تتلىٰ عليهم أثناء النوم، تتسلل إليهم في سُباتهم غير واعين، دروس عن النظافة الصحية، والاجتماعيات، والوعي الطبقي، والحياة العاطفية للطفل الصغير حديث العهد بالمشي، وفوق هذا وذاك: تقبع غرف اللعب، والتي يلتجئ إليها عندما يكون الطقس ماطرًا تسعمائة طفل أكبر سنًّا للهو والتسلية، واللعب بالمكعبات، والصلصال، ولعبة اصطياد السحَّاب، والألعاب الجنسية.

كانت خلية النحل تئز بهمة وفرح، وكان الغناء المرح العابث هو الأنشودة التي تسمعها الفتيات الصغيرات منذ تكوينهن في أنابيب الاختبار؛ فقد كان معينو الأقدار يصفرون بالألحان وهم يعملون، وفي غرفة التفريغ كانوا يلقون بالدعابات الظريفة بين الزجاجات المفرغة.

لكن وجه المدير عندما دلف إلىٰ غرفة التخصيب مع هنري فوستر كان جادًّا متخشبًا صارمًا، وهو يقول: «ليكن أمثولة وعبرة

عامة في هذه الغرفة؛ لأنَّ بها من عاملي الطبقة العُليا أكثر ممَّا يوجد في أي مكان آخر في المركز، وقد أخبرته أن يوافيني هنا في الثانية والنصف».

قال هنري بسخاء وسماحة مرائية: «إنَّه يُؤدِّي عمله علىٰ أحسن وجه».

«أعلم ذلك، وهذا أدعىٰ لالتزام الصرامة والحزم معه؛ فإنَّ ذكاءَه الوقاد يلزمه بمسئولية أخلاقية، فكلما عظمت مواهب الفرد؛ زادت قدرته علىٰ أن يُضِل ويُضَل، ولَأَنْ يُعاني فرد واحد خير من أن تفسد ثلة، فكر في الأمر بمعزل عن العاطفة يا سيد فوستر، وسترىٰ أنَّه لا يوجد ذنب أشنع من الخروج عن المألوف من السلوك، إنَّ جريمة القتل ينتج عنها هلاك فرد، وفي النهاية ماذا يساوي الفرد؟».

وبحركة واسعة من يده أشار إلىٰ صفوف المجاهر وأنابيب الاختبار والمحاضن . . .

«إنَّه لَمِن اليسير الهيِّن صنع فرد جديد، بل أي عدد نرغبه من الأفراد، أمَّا الإتيان بالبدع من القول والعمل؛ فهو يهدد أكثر من حياة الفرد، إنَّه يضرب قلب المجتمع، نعم؛ قلب المجتمع. آهٍ! ها هو ذا ».

دلف برنارد إلىٰ الغرفة، وتقدَّم بين صفوف المخصبات حتىٰ بلغهم، بالكاد غطت قشرة خارجية خادعة من الثقة البشوشة علىٰ توتره، كانت نبرة صوته وهو يحيي المدير مبالغ في علوها، ولمَّا

حاول تدارك خطأه جاء صوته ضعيفًا كالصرير بشكل يبعث علىٰ الضحك، وهو يقول: «طلبت مني ملاقاتك هنا».

أجابه المدير بلهجة منذرة: «نعم؛ يا سيد ماركس! طلبت منك مقابلتي هنا، لقد عدتَ من عطلتك بالأمس حسب علمي».

«هذا صحيح».

«صحيح!». ردد المدير وهو يضغط علىٰ حرف الحاء كالفحيح!

ثم رفع عقيرته فجأة صائحًا: «أيتها السيدات والسادة! أيتها السيدات والسادة!».

فإذا بغناء الفتيات أمام أنابيب الاختبار والصفير المنهمك للعاملين علىٰ المجاهر يتوقف فجأة؛ ليسود صمت تام، وتلفت الجميع حولهم.

وكرر المدير مجددًا: «أيتها السيدات والسادة! اسمحوا لي بمقاطعة عملكم، فهناك واجب مؤلم يطوقني، إنَّ أمن واستقرار المجتمع في خطر! نعم؛ في خطر سيداتي وسادتي! فهذا الرجل -وأشار متهمًا إلىٰ برنارد- هذا الرجل الذي يقف أمامكم الآن، هذا (الألفا موجب)، الذي مُنح الكثير والكثير، وكنا ننتظر منه الكثير بدورنا، إن زميلكم هذا . . . -أم يُسمح لي أن أستبق نفسي وأقول زميلكم السابق؟- قد خان الثقة الموكولة إليه خيانةً فادحة، بهرطقاته عن الرياضة، وعن سوما، وبسلوكه الجنسي الفاضح

المشين الغريب عن مجتمعنا، ورفضه طاعة تعاليم مولانا فورد، واتباع السلوك القويم خارج ساعات العمل، كالطفل الوديع -وأشار المدير علىٰ بطنه بعلامة حرف (T)- لقد برهن علىٰ عدائه للمجتمع، إنَّه مشاغب هدَّام أيتها السيدات والسادة! إنَّه عدو لدود لكل نظام واستقرار، متآمر علىٰ الحضارة نفسها، ولهذا أوصي بصرفه . . . أوصي بصرفه من عمله في المركز موصومًا بالخزي والعار، وأقترح نقله علىٰ الفور إلىٰ أدنىٰ المراكز الفرعية، فيكون عقابه ذاك خدمةً للمجتمع وفي صالحه، من أجل ذلك أوصينا أن ينفىٰ إلىٰ أبعد المراكز عن الكثافة السكانية، وأقلها أهمية، إلىٰ أيسلندا، حيث لن يحظىٰ بفرصة ذات بالٍ لإضلال الآخرين بمثاله البعيد عن طريق فورد القويم».

ثم توقف المدير هنينهة، وقد عقد ذراعيه أمام صدره، ثم التفت إلىٰ برنارد بحركة درامية مثيرة قائلًا: «ماركس! هل تستطيع أن تأتيني بحجة تقنعني بعدم تنفيذ الحكم الصادر ضدك؟!».

قال برنارد بنبرة عالية مرتفعة: «نعم أستطيع!».

أُخِذ المدير قليلًا! ولكنَّه قال بمهابة، وهو لا يزال سيد الموقف: «ائْتِني بها إذن إن كنت صادقًا!».

«حتمًا، لكنَّها في الممر، امنحني دقيقة». أسرع برنارد إلىٰ الباب ودفعه آمرًا: «تعالَي». وتقدمت حجته إلىٰ الداخل مظهرة نفسها للحضور.

انطلقت شهقة وكانت هناك الكثير من الهمهمات المذهولة

والمرتعبة، وأطلقت فتاة صغيرة صرخةً جزعةً، ووثب أحدهم فوق مقعد ليتمكن من الرؤية بشكل أفضل مقلقلًا أنبوبتي اختبار مملوءتين بالنطف.

تقدمت ليندا، منتفخة، مترهلة كوحش عجوز غريب ومرعب وسط تلك الأبدان البضة الرخصة الفَتيِّة، والوجوه الناعمة الخالية من التجاعيد، تقدَّمت مبتسمة ابتسامتها الكسيرة الشاحبة، والتي لم تخلُ من غنج متدحرجة مترجرجة من حيث أرادت أن تكون متمايلة مياسة، وسار برنارد بمحاذاتها وأشار إلىٰ المدير قائلًا: «ها هو ذا!».

فقالت ليندا محنقة: «أتظنني لم أتعرفه؟!».

ثم التفتت إلىٰ المدير قائلة: «بالطبع أعرفك يا توماكين، كنت سأعرفك في أي مكان، ولو كنت بين ألف من البشر، ولكن ربما تكون قد نسيتني، ألَا تذكر؟! ألَا تذكر يا توماكين؟ أنا صاحبتك ليندا!».

وقفت تنظر إليه وهي لا تزال مبتسمة، وقد مال رأسها إلىٰ جانب، ولكن أمام تعبير المدير المتجمد من التقزز المرعوب أخذت ابتسامتها في التلاشي مع ثقتها بنفسها، وارتجفت شفتاها بابتسامتها المتخافتة حتىٰ انطفأت تمامًا، ورددت بصوت متهدج: «ألَا تتذكر يا توماكين؟!».

توسلت عيناها القلقتان المعذبتان، والتوت الملامح المنتفخة المتهدلة بتعبير من الحزن العميق زادها قبحًا وبشاعة، ومدت

ذراعيها مستجدية: «توماكين!». وانطلقت ضحكة مكتومة من مكان ما.

صاح المدير: «ما معنىٰ هذا المقلب ...!».

هتفت وسط حديثه: «توماكين!». وهرعت إليه تجرجر حِرامها، وألقت ذراعيها حول عنقه، ودفنت رأسها في صدره.

فانطلقت عاصفة من الضحك يتعذر كبحها!

وأكمل المدير صارخًا: «... الفاحش؟».

حاول أن يخلص نفسه من عناقها، وقد احتقن وجهه، ولكنَّها تشبثت به باستماتة هاتفة: «ولكنَّني ليندا، ليندا». غطىٰ الضحك علىٰ صوتها، فصرخت فوق القهقهات: «لقد جعلتني أحمل منك».

فساد صمت مفاجئ مصدوم، وزاغت الأبصار. فلا تدري علىٰ أي شيء تستقر، وهربت الدماء من وجه المدير، وتجمد في مكانه متوقفًا عن مجاهدته لتخليص نفسه منها، وتيبست يداه علىٰ رسغيها وهو يحدِّق فيها مرعوبًا!

«نعم؛ هناك طفل، وكنت أنا أمه».

ألقت بالكلمة البذيئة وسط الصمت المخيم علىٰ الجميع، وكأنَّها تتحداهم، ثم بغتة أطلقته وخبأت وجهها بين كفيها، وقد غلبها شعور الخجل والخذي وأجهشت في البكاء: «لم يكن خطئي يا توماكين؛ لأنني كنت دائمًا أقوم بتمريناتي أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ دائمًا ... لذا: لا أعلم كيف ... لو أدركتَ كم كان الأمر سيئًا يا توماكين، ولكنَّه كان عزاءً لي وعِوضًا رغم كل شيء».

والتفتت نحو الباب منادية: «جون! جون!».

فظهر من فوره وتوقف لحظة عند الباب متفرسًا في وجوه الموجودين قبل أن يتقدَّم بسرعة وخفة في خفيه الجلديين إلىٰ المدير؛ ليجثو أمامه علىٰ ركبتيه ويقول بصوت واضح: «أبي!».

كانت لفظة الأب بعيدة في حمولتها التعبيرية عن معاني الحمل والولادة التي تتضمنها الكلمة البذيئة الفاحشة الأم؛ لذا: أثار ذكر اللفظ الفج المقرف والهزلي في آنٍ موجة من الضحك كسرت حدة التوتر غير المحتمل المخيم علىٰ المكان كعباءة ثقيلة خانقة، وانطلقت الضحكات عالية تكاد تكون هستيرية، وبدا وكأنَّها لن تنتهي، أبي ! إنَّه يقول للمدير يا أبي ! أبي ! فورد! فورد!

كان الموقف هزليًّا بدرجة لا تصدق، وتجددت الضحكات الصاخبة والقهقهات والشهقات، وقد بدت الوجوه علىٰ وشك التشقق من فرط الضحك وسالت دموع الضحك من العيون، وتقلقلت ستة أنابيب اختبار أخرىٰ، أبي !

حدق فيهم المدير غاضبًا شاحبًا، وقد بدا في عينيه تعبير يائس مذعور كحيوان بري وقع في مصيدة، كان يكابد عذاب المهانة والحيرة.

أبي! مرة أخرىٰ تجددت نوبة الضحك التي بدت لوهلة علىٰ وشك الانتهاء وارتفعت جلجلتها أعلىٰ من السابق، فخبط بكفيه علىٰ أذنيه يسدهما وانطلق من الغرفة هاربًا.

الفصل الحادي عشر

بعد المشهد الفاضح الذي وقع في غرفة التخصيب، ماجت الطبقة العُليا في لندن كلها بالشغف لرؤية هذا المخلوق الظريف الذي جثا علىٰ ركبتيه أمام مدير مركز التفريخ والتكييف، أو بالأحرىٰ المدير السابق، وذلك لأنَّ الرجل المسكين تقدَّم باستقالته علىٰ الفور، ولم تطأ قدمه المركز بعدها. لقد ارتمىٰ أرضًا ودعاه والدي! كانت النكتة أجمل من أن تكون حقيقية.

لكن ليندا لم تترك انطباعًا حسنًا، ولم يكن لأحدهم أدنىٰ رغبة في رؤيتها، فلأن توصف امرأة بأنَّها أم! ذلك يتجاوز كونه مجرد نكتة، بل هو قول فاحش، فضلًا عن أنَّها لم تكن بدائية حقًّا، ولكنَّها فُرِّخت من زجاجة، وكُيفت مثلها مثل الباقين؛ **لذا**: لم يكن لديها ما يُمكن أن تقدمه من أفكار طريفة أصيلة.

وأخيرًا وليس آخرًا، بل لعله أقوىٰ الأسباب لم يشأ الناس أن يروا ليندا المسكينة بسبب مظهرها، ببدانتها وشبابها المنقضي، وأسنانها النخرة، وبشرتها المبقعة، أمَّا عن قوامها ... فورد! ببساطة لا تقع عينا المرء عليها دون أن ينتابه الغثيان؛ **لذا**: كان عليتهم يحرصون علىٰ تجنبها، وكانت ليندا من جانبها لا حاجة لها

بهم، ولا برؤيتهم، كانت العودة إلىٰ الحضارة تتلخص عندها في العودة إلىٰ سوما، في الاستلقاء علىٰ الفراش والانطلاق في عطلة بعد الأخرىٰ من عطلات سوما تغيب فيها عن الوعي، ودون أن تضطر لمعاناة الصداع أو نوبات القيء، أو معاناة الآثار البغيضة التي كانت تعقب تعاطيها البيوتل، كأنَّما ارتكبت خطيئة مخزية في حق المجتمع لن تمكنها من رفع رأسها مرة أخرىٰ، أمَّا مع سوما؛ فلم تكن هناك مثل هذه الحمولات الثقيلة، كانت سوما تقدم العطلة المثالية الكاملة، وإذا حدث وكان اليوم التالي غير سارٍّ؛ فإنَّ ذلك يعود لمقارنة حالها مع سوما مع حالها من دونه، وليس لأنَّ اليوم كان سيئًا في ذاته؛ لذا: كان العلاج هو أن تمتد العطلة للأبد، فطالبت بجشع وصخب بجرعات أكبر علىٰ فترات أقرب، وقد تمنَّع الطبيب شو في البداية، ثم تركها تأخذ ما تريد، فكانت تتناول حوالي عشرين جرامًا يوميًّا.

وسارَّ الطبيب برنارد: «وهو ما سيقضي عليها في ظرف شهر أو شهرين، فيومًا ما سيشل مركز التنفس، ويعجز عن التنفس، وينتهي، وهذا أمر جيِّد، طبعًا لو كان بوسعنا الإنعاش لكان الأمر مختلفًا، ولكنَّنا لا نستطيع».

ولدهشة الجميع اعترض جون (فقد ظنُّوا أنَّ غياب ليندا في غيبوبة سوما يخرجها من المشهد، وهو الوضع المثالي): «ولكن ألَا يسوقها إلىٰ حتفها كل هذا الكم الذي تتناوله؟!».

اعترف الطبيب شو: «نعم؛ علىٰ وجه من الوجوه، لكن من

وجه آخر فنحن نطيل عمرها علىٰ الحقيقة».

حملق فيه الشاب غير فاهم، فاستطرد: «قد تجعلك سوما تفقد عدة سنوات من عمرك، لكن فكر في الحيوات اللَّا محدودة التي يمكنها أن تمنحك إيَّاها خارج الزمن، إن كل عطلة من عطلات سوما عبارة عمَّا كان أسلافنا يدعوه الخلود».

بدأ وجه جون يشرق بالفهم وتمتم: «كان الخلود علىٰ شفاهنا وفي أعيننا»[1].

«هه؟!».

«لا عليك».

ومضىٰ الطبيب شو في حديثه: «ولا يمكنك أن تدع الناس يغيبون في العدم إن كان لهم عمل مهم ينجزونه بالطبع، لكن بما أنَّه ليس لديها عمل مهم ...».

أصر جون: «رغم ذلك لا اعتقد أنَّ هذا صوابًا».

هز الطبيب كتفيه، وقال: «بالطبع لو أنَّك تفضل صراخها الهستيري طوال اليوم؛ فهذا شأنك».

في النهاية اضطر جون للانصياع للوضع، وحصلت ليندا علىٰ ما ترغبه من سوما، ومنذ ذلك الحين وهي معتكفة في غرفتها الصغيرة في الطابق السابع والثلاثين في مسكن برنارد، راقدة في الفراش بينما يعمل كل من المذياع والتلفاز دون توقف، وصنبور

(١) اقتباس من «مسرحية أنطونيو وكليوباترا»، لشكسبير

عطر الباتشول الهندي مفتوح طوال الوقت، وأقراص سوما في متناول يدها، هناك ظلت؛ ولكنَّها لم تكن هناك حقًّا، بل ذهبت بعيدًا في عطلة تجوب خلالها عالمًا آخر، تبدو فيه موسيقىٰ المذياع وكأنَّها متاهة من الألوان الصاخبة، متاهة خافقة طنانة زلاقة، وقد أدَّىٰ هذا (من خلال التعاريج الحسنة التي لا بُدَّ من المرور بها في المتاهة) إلىٰ قلب مشرق بالاقتناع المطلق بأنَّ الصور المتراقصة في صندوق التلفاز تُمثِّل مؤدين في فيلم غنائي شيق من الأفلام الحسية، وأنَّ عطر الباتشول الهندي المتقاطر هو أكثر من مجرد رائحة، إنَّه الشمس نفسها، إنَّه مليونًا من الساكسفونات الحسية، إنَّه البابا يمارس معها الحب، ولكن علىٰ نحو أفضل بما لا يقاس.

ختم الطبيب شو حديثه: «لا . . . لا يمكننا الإنعاش، ولكنَّني سعيد للغاية كوني حظيت بهذه الفرصة لأرىٰ هذا النموذج للشيخوخة في الإنسان، والشكر الجزيل لك أن دعوتني». وصافح برنارد بحرارة.

كان جون إذن هو قبلة سعيهم، وحيث إنَّ الوصول إليه لا بُدَّ أن يمر عبر طريق برنارد راعيه ووصيه المعتمد، وجد الأخير نفسه وللمرة الأولىٰ في حياته يعامل من الناس ليس فقط كفرد طبيعي، ولكن بالاهتمام اللائق بشخص عظيم القدر، ولم يعد هناك كلام عن الكحول في بديل الدم خاصته، ولا غمز ولمز علىٰ مظهره، واجتهد هنري فوستر في أن يكون ودودًا معه، وأهداه بنيتو هوفر ست حزم من لبان الهرمونات الجنسية، وهرع إليه مساعد معين

الأقدار يستجدي منه دعوة لواحدة من حفلاته المسائية، أمَّا عن النساء؛ فما كان عليه إلَّا أنْ يلمح فقط بإمكانية دعوة إحداهن فإذا هي طوع إشارته.

أعلنت فاني ظافرة: «لقد دعاني برنارد لمقابلة البدائي الأربعاء القادم».

فقالت لينينا: «ذلك يسعدني للغاية، والآن عليك الاعتراف بأنَّك كنت مخطئة بشأن برنارد، ألَا ترينه لطيفًا؟!».

فأومأت فاني برأسها وقالت: «عليَّ الاعتراف بأنَّني تفاجأت مفاجأة سارَّة!».

وتوسعت قائمة المشاهير من معارف برنارد الشخصيين بلا حدود، وحوت من عِلية القوم: (مدير التعبئة، ومدير تعيين الأقدار، وثلاثة نواب مساعدين لمديري التخصيب، وأستاذ جامعي في الأفلام الحسية من جامعة الهندسة الانفعالية، وعميد معهد الإنشاد المجتمعي بوستمنستر، والمشرف علىٰ عملية بوكانوفيسكي).

وأسرَّ برنارد لهيلمهولتز واتسون في تيه: «وقد نلتُ ست فتيات الأسبوع الفائت؛ واحدة يوم الاثنين واثنتين يوم الثلاثاء، واثنتين يوم الجمعة، وواحدة يوم السبت، ولو كان لدي الوقت أو الرغبة لاستجبت لدزينة أخرىٰ من الفتيات المتلهفات . . .».

استمع هيلمهولتز إلىٰ مباهاته في صمت واجم مستهجن شديد

العبوس، فاستاء برنارد قائلًا: «إنَّك تشعر بالغيرة!».

هز هيلمهولتز رأسه: «إنَّني فقط حزين، هذا كل شيء».

فذهب برنارد غاضبًا، وهو يقول لنفسه: «هذا فراق بيني وبينه».

ومرَّت الأيام، وسرت نشوة النجاح في قلب برنارد المترع بالسعادة، وقد صالحه هذا المخدر علىٰ العالم الذي لم يرضَ عنه قطُّ قبل تلك اللحظة، وهكذا ما دام العالم قد اعترف بأهميته فكل شيء علىٰ ما يرام.

لكن علىٰ الرغم من تصالحه مع العالم نتيجة نجاحه؛ إلَّا أنَّه رفض أن يتخلَّىٰ عن امتياز نقد النظام؛ وذلك لأنَّ فعل الانتقاد في ذاته يعزز من شعوره بأهميته، وأنَّه أكبر ممَّن حوله. هذا إلىٰ جانب أنَّه: يعتقد حقيقةً أنَّ هناك ما يستوجب النقد (في نفس الوقت الذي أحب فيه نجاحه في المجتمع، وقدرته علىٰ اجتذاب مَن شاء من فتيات).

وأمام أولئك الذين يتودَّدون ويتقرَّبون إليه من أجل البدائي؛ أخذ برنارد يستعرض أمامهم شذوذاته التي طالما عابوها عليه قبلًا، فكانوا يستمعون إليه متأدبين، ثم يهزون رؤوسهم وراء ظهره مستهجنين، ويقولون: «هذا الشاب ستكون نهايته سيئة». متنبئين بما سيكون لهم شخصيًا من يد في تحقيقه، «ولن يجد بدائيًا آخر ينقذه تلك المرة».

ولكن حتىٰ يحدث ذلك؛ فلا زال هناك هذا البدائي؛ **لذا**: كانوا متأدبين ظرفاء معه، وهو ما جعل برنارد يشعر أنَّه عملاق، وفي نفس الوقت يشعر كأنَّه أخف من الهواء من فرط زهوه.

وهتف برنارد وهو يفرد ذراعيه عاليًا: «أخف من الهواء».

كلؤلؤة عالية محلقة في السماء التمع شعاع الشمس علىٰ منطاد قسم الأرصاد الجوية.

كانت التعليمات التي تلقاها برنارد تقول: إنَّ عليه أن يطوف بالبدائي المذكور علىٰ مظاهر الحياة الحضرية؛ **لذا**: أتيح له أن يرىٰ من منظور علوي كعين الطائر مظاهر الحياة في لندن المتحضرة من علىٰ منصة إقلاع برج تشارنج (T)، كان مدير المحطة وعالم الأرصاد المقيم يعملان كأدلَّاء، لكن كان برنارد هو مَن يتولَّىٰ معظم الحديث، كان برنارد في نشوته يسلك وكأنَّه أحد مراقبي العالم الزائرين علىٰ أقل تقدير، نعم؛ كان أخف من الهواء.

هبط صاروخ بومباي الأخضر، وبدأ الركاب في النزول، وظهر ثمانية توائم متطابقين من الهنود يرتدون اللون الكاكي يطلون من نوافذ الكابينة، كان أولئك هم المضيفون. **وقال رئيس المحطة متفاخرًا**: «ألف ومائتان وخمسون كيلو مترًا في الساعة، ما رأيك في هذا يا سيد سافدج»[١].

كان جون يرىٰ الأمر ظريفًا للغاية، «ومع ذلك، فبإمكان

---

(١) سافدج بالإنجليزية تعني: (البدائي)، وهي تصلح كاسم ونعت معًا.

آريل[1] أن يلف الأرض في أربعين دقيقة».

وكتب برنارد في تقريره إلىٰ مصطفىٰ موند: «الأمر المثير للدهشة هو أنَّ البدائي لا يكاد يُبدي شيئًا من مظاهر الإعجاب والتهيب من المخترعات الحضارية، ولا ريب أنَّ ذلك يعود جزئيًّا إلىٰ أنَّه قد سمع عنها من تلك المرأة ليندا أ . . . ه . . .».

عند ذلك قطب مصطفىٰ موند حاجبيه، وقال: «أيظنُّ المغفل أنَّني لن أتحمل رؤية الكلمة مكتوبة كاملة دون أن تنقلب معدتي؟!».

«ويعود من الناحية الأخرىٰ إلىٰ تركيزه الشديد علىٰ ما يدعوه (الروح)، والتي يصر علىٰ النظر إليها ككيان مُستقلٌ بمعزل عن البيئة المادية، في حين أنَّني حين حاولت تنبيهه . . .».

تجاوز المراقب الجمل التالية، وكان علىٰ وشك قلب الصفحة باحثًا عن شيء أكثر أهمية من آراء برنارد عندما وقعت عيناه علىٰ كلمات مدهشة: «. . . رغم أنَّه عليَّ الاعتراف أنَّني أجد البدائي مُحقًّا في نظره إلىٰ الطفولة الحضارية علىٰ أنَّ أمرها يسير هيِّن، أوكما يقول: ليست قيِّمة بما فيه الكفاية؛ وأود أن انتهز الفرصة لألفت نظر فخامتكم إلىٰ . . .».

---

(١) شخصية من شخصيات شكسبير ظهرت في «مسرحية العاصفة»، لكن من وصفه لما يمكن أن تقوم به يبدو أنَّ جون (أو هكسلي) قد خلط بين: «مسرحية العاصفة»، و«مسرحية حلم ليلة صيف».

انقلب الغضب اللحظي الذي شعر به مصطفىٰ موند إلىٰ فكاهة، كان التفكير في أنَّ هذا الكائن السخيف يحاضره هو، مصطفىٰ موند برصانة عن النظام الاجتماعي يدعو للسخرية، كان أمرًا بالغ التشوه والشذوذ بما لا يقاس، لا بُدَّ أنَّ الرجل قد جُنَّ جنونه.

وقال في نفسه: «لا بُدَّ أن ألقِّنَه درسًا».

ثم طوَّح رأسه إلىٰ الوراء وقهقه عاليًا، ولكنَّه لن يعطيه الدرس في الوقت الراهن علىٰ الأقل.

كان مصنعًا صغيرًا لإنتاج كشافات المروحيات، وهو فرع من فروع شركة المعدات الكهربائية، واستقبلهم علىٰ السطح رئيس الفنيين ومدير العنصر البشري (كان لخطاب التوصية من المراقب تأثير السحر)، وهبطوا الدرج إلىٰ المصنع.

وشرح لهم مدير العنصر البشري: «يقوم بتنفيذ كل عملية من العمليات مجموعة واحدة من (مجموعات بوكانوفيسكي) ما أمكننا ذلك».

نتيجة لذلك: كان هناك ثلاثة وثمانون من الملونين فطس الأنوف قصيري الرؤوس من (سلالة دلتا) يقومون بالعصر علىٰ البارد، بينما يُشغِّل الست وخمسين ماكينة ذوات محاور الدوران الأربعة التي تقوم بالخرط واللف ستة وخمسين من (الجاما) ذوي الأنوف المعقوفة، والشعور البنية الفاتحة بلون الزنجبيل، بينما يعمل مائة وسبعة من (الإبسيلون) السنغاليين المكيفين علىٰ احتمال

الحرارة العالية في المسبك، بينما قامت ثلاث وثلاثون امرأة (دلتا) رؤوسهنَّ طويلة شقراء ضيقات الحقوين، طولهن في حدود (١٦٩ سنتيمتر) لا يتعدينه زيادة ولا نقصانًا؛ إلَّا بما لا يجاوز العشرين ميلليمتر بتقطيع المسامير، وفي غرفة التجميع كان يجمِّع المولدات الكهربائية فريقان من أقزام (الجاما موجب)، حيث تواجه منضدتي العمل المنخفضتين إحداهما الأخرىٰ، وبينهما كان يزحف الناقل بحمولته من الأجزاء المنفصلة، وتقابل سبعة وأربعون رأسًا أشقرَ مع سبعة وأربعين رأسًا بنيًّا؛ سبعة وأربعون أنفًا أفطسَ، أمام سبعة وأربعين أنفًا معقوفًا، سبعة وأربعون فكًّا منحسرًا، أمام سبعة وأربعين فكًّا ناتئًا، وكان يختبر الآلية النهائية ثماني عشرة فتاة ذوات شعور كستنائية متموجة من فصيلة (الجاما) يرتدين الأخضر، ثم يعبئها في صناديق أربعة وثلاثون رجل من فصيلة (دلتا سالب) عُسْر قصيري السيقان، ثم يحملها علىٰ سيارات النقل ثلاث وستون من (الإبسيلون) أنصاف المعاتيه زرق العيون ممتقعي الوجوه، ذوي نمش.

انتقت ذاكرة البدائي بخبث كلمات ميراندا ووجد نفسه يرددها: «آهٍ! أيُّها العالم الجديد الشجاع الذي يعيش فيه مثل هؤلاء البشر».

وختم مدير العنصر البشري حديثه، وهم يغادرون المصنع قائلًا: «وأؤكد لك أنَّنا بالكاد لا نلاقي أي متاعب من عمالنا، فنحن دائمًا ما نجد . . .».

لكن البدائي انفصل بغتةً عن مرافقيه، حيث أصابته نوبة عنيفة من الغثيان وراء أجمة من الغار، وكأنَّما كانت الأرض المستوية مروحية تعبر به مطبًا هوائيًا.

وكتب **برنارد**: «يرفض البدائي تناول سوما، ويبدو شديد القلق؛ لأنَّ تلك المرأة ليندا أ . . . ه غارقة في عطلة سوما ممتدة، ومن الجدير بالملاحظة أنَّه رغم شيخوخة أ . . . ه الظاهرة، وقبحها المنفر؛ إلَّا أنَّ البدائي كثيرًا ما يذهب لزيارتها، ويبدو متعلقًا بها بشدة، وهذا مثال مثير للاهتمام لِمَا يمكن أن يقوم به التكييف المبكر لتعديل (بل ولغرس) ما هو مضاد للبواعث الطبيعية (في هذه الحالة غريزة الإجفال عن شيء كريه»).

وفي إيتون هبطوا علىٰ سطح المدرسة العُليا، وفي الناحية الأخرىٰ من فناء المدرسة لمع ضوء الشمس علىٰ المبنىٰ الأبيض لبرج لوبتون، كانت الكلية علىٰ يسارهم، بينما لاح في اليمين الركائز المهيبة لمبنىٰ المدرسة للإنشاد المجتمعي المكون من الخرسانة المسلحة والزجاج المعالج الذي يسمح بدخول الأطياف المفيدة من الأشعة فوق البنفسجية، وفي باحة المدرسة المربعة الشكل انتصب التمثال العتيق الطريف لمولانا فورد المنحوت من الصلب والكروم.

كان د. جافني المدير الأكاديمي للمدرسة، والآنسة كيت الناظرة في استقبالهم بمجرد هبوطهم من الطائرة، وسأل البدائيُّ

بتوجس وهم ينطلقون في جولة معاينة: «هل لديكم الكثير من التوائم هنا؟».

رد المدير الأكاديمي: «كلَّا ... كلَّا، إنَّ إيتون مخصصة حصريًّا لأولاد وبنات الطبقة العُليا، بالغ واحد من بيضة واحدة، وهذا يجعل التعليم أكثر صعوبة بالطبع، ولكن بما أنَّنا نُعدُّهم لتحمل المسئوليات والتعامل مع الطوارئ غير المتوقعة؛ فذلك أمر لا يمكن تجنبه». وتنهد المدير من ثقل العبء.

في تلك الأثناء كان برنارد قد أُخِذَ بالآنسة كيت، «لو لم تكوني مشغولة في أي من أمسيات الاثنين، أو الأربعاء، أو الجمعة، (وأشار إلىٰ البدائي) إنَّه فضولي كما تعلمين وطريف».

ابتسمت الآنسة كيت (وفكر برنارد كم أن بسمتها فاتنة) وشكرته قائلة إنَّه يسعدها أن تحضر إحدىٰ حفلاته.

وفتح المدير بابًا.

خمس دقائق قضاها جون في فصل من فصول (الألفا موجب) مزدوج تركته حائرًا شيئًا ما، وسأل برنارد هامسًا: «ما هي النسبية؟!» بدأ برنارد في محاولة الشرح، ثم غير رأيه واقترح أن يذهبا لزيارة فصل آخر.

ومن خلف باب في الرواق يقود إلىٰ القاعة التي يدرس بها (البيتا سالب) الجغرافيا، ارتفع صوت سوبرانو رنان يقول:

«واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة». ثم بصوت بدا فيه الكلال ونفاد الصبر: «كما كُنتُنَّ».

علقت الناظرة: «هذا هو التدريب المالتوسي، معظم بناتنا من العقيمات بالطبع، وأنا نفسي منهُنَّ، ولكن لدينا ما يقارب الثمانمائة من الفتيات أبقيت مبايضهن يحتجن إلىٰ تدريب مستمر».

وفي قاعة تعليم الجغرافيا لـ(البيتا سالب) تعلم جون أنَّ المحمية البدائية هي: مكان لم يستحق عناء التحديث والتحضر لأسباب ترجع لظروف مناخية، أو جغرافية غير مواتية، أو لفقر الموارد الطبيعية بتلك الأماكن. وبضغطة زر أظلمت القاعة، وفجأة ظهرت علىٰ الشاشة صورة تائبي أكوما راكعين أمام السيدة المقدسة، وهم يتفجعون كما كان جون يسمعهم يفعلون ويعترفون بخطاياهم للمسيح المصلوب أمام صورة الصقر التي تمثل بوكونج، وانطلقت القهقهات الصاخبة من الشبيبة طلاب إيتون، وهم يشاهدون التائبين ينهضون، وهم لا يزالون ينوحون، وقد خلعوا عنهم أرديتهم، وبأسواط مجدولة بدأوا يجلدون أنفسهم الضربة بعد الأخرىٰ، فتضاعف الضحك، حتىٰ غطىٰ ضجيجه علىٰ صوت الأنين القادم من مكبرات الصوت.

هنا سأل البدائي حائرًا متألمًا: «ولكن لماذا يضحكون؟!».

أدار إليه المدير وجهًا لا زالت الابتسامة العريضة تعلوه: «لماذا؟! . . . لأنَّ الأمر جد ظريف».

وسط الظلال التي تلقيها آلة عرض الأفلام جازف برنارد

بحركة لم يكن ليجرؤ علىٰ مثلها قديمًا حتىٰ في الظلام الدامس، أمَّا الآن شاعرًا بقوته الوليدة التي أمدته بها أهميته الجديدة أحاط خصر الناظرة بذراعه، فمالت نحوه طائعة، كان علىٰ وشك اختطاف قبلة أو اثنتين، وربما قرصها مداعبًا عندما فُتحت المصاريع مرة أخرىٰ واضعَة حدًّا لمداعباته.

قالت الآنسة كيت متجهة نحو الباب: «يحسن بنا أن ننصرف».

ثم قال المدير بعد برهة: «وهذه هي قاعة التحكم في سير عملية التعليم أثناء النوم».

كان هناك المئات من صناديق الموسيقىٰ الآلية، صندوق لكل مهجع، وقد تراصُّوا علىٰ أرفف في ثلاثة جوانب من القاعة، وفي الجانب الرابع تراصت كوات كصناديق البريد وضعت فيها لفائف أوراق مدون عليها نصوص الدروس المتنوعة للتعليم أثناء النوم.

شرح برنارد الأمر مقاطعًا د. جافني: «هنا تضع لفة الأوراق، ثم تضغط علىٰ هذا المفتاح الكهربائي . . .».

صحح له المدير الإداري متضايقًا: «بل ذاك المفتاح».

«ذاك المفتاح إذن! ثم تنفك اللفافة، ثم تحول خلايا السيلينيوم[1] النبضات الضوئية إلىٰ أمواج صوتية، ثم . . .».

واختتم د. جافني: «وهكذا يتم الأمر».

---

(١) عنصر (لا فلزي) سامٌّ، رقمه الذَّري: (٣٤).

وسأل البدائي وهم يسيرون في طريقهم إلىٰ معامل الكيمياء الحيوية مارين بمكتبة المدرسة: «هل يقرأون لشكسبير؟!».

فاحمر وجه الناظرة هاتفة: «كلَّا بالتأكيد!».

وقال د. جافني: «لا تحوي مكتبتنا إلَّا المراجع، أمَّا إذا احتاج شبيبتنا إلىٰ بعض اللهو؛ فلديهم الأفلام الحسية، فنحن لا نشجع أي تسلية فردية».

وتجاوزتهم علىٰ الطريق السريع المُزَجَّج خمس حافلات محملة بالأولاد والبنات انطلق بعضهم في الغناء بينما آثر البعض الآخر العناق الصامت.

علق د. جافني بينما كان برنارد يتفق هامسًا مع الناظرة علىٰ موعد لذلك المساء: «لقد عادوا لتوهم من محرقة سلو، حيث يبدأ التكييف علىٰ الموت من الشهر الثامن عشر، ويقضي كل طفل يومين أسبوعيًّا في مصحة للمشرفين علىٰ الموت، وتحفظ أفضل لعبهم هناك، ويمنحون مثلجات بالشيكولاتة في أيام الموت، هناك يتعلمون أن ينظروا للموت كأمر طبيعي».

أضافت الناظرة بموضوعية: «مثله مثل أي عملية فسيولوجية أخرىٰ».

قبل انصرافهما كان الموعد قد رُتِب في الثامنة مساءً في سافوي.

توقفا عند مصنع شركة التلفازات في برينتفورد في طريق

عودتهما إلىٰ لندن، وقال برنارد: «أتمانع في الانتظار هنا قليلًا ريثما أستخدم الهاتف؟».

انتظر البدائي وبينما كان ينتظر انشغل بالمراقبة، كان الدوام النهاري الرئيس قد انتهىٰ للتو، وتجمع العمال من الطبقات الأدنىٰ في طوابير أمام محطة القطار أحادي القضيب، كانوا ما بين السبعمائة والثمانمائة من (الجاما)، و(الدلتا)، و(الإبسيلون)، رجالًا ونساءً، ولكن التنوع البدني لم يزد عن الاثني عشر وجهًا، وقوامًا فيما بينهم، ولكل منهم دفع محصل التذاكر علبة صغيرة من الورق المقوىٰ مقابل تذكرته، وتحرك الطابور الجرار من الرجال والنساء إلىٰ الأمام ببطء.

متذكرًا «تاجر البندقية» سأل البدائي برنارد عندما عاد: «ما الذي يوجد في هذه العلب الصغيرة؟!».

أجابه برنارد بصوت غير واضح تمامًا: «الجرعة اليومية من سوما».

لم يكن صوت برنارد واضحًا تمامًا، وذلك لأنَّه كان يلوك إحدىٰ علكات بنيتو هوفر، «هم يحصلون عليها بعد انتهاء العمل، أربعة أقراص زنة نصف جرام، يزيدون إلىٰ ستة أيام السبت».

وتأبط ذراع جون بود ليسيرا عائدين إلىٰ المروحية.

دلفت لينينا إلىٰ غرفة تبديل الثياب وهي تغني، فقالت فاني: «تبدين راضية عن نفسك تمام الرضا».

ردت لينينا وهي تتخلص من ثيابها في جذبات سريعة متتابعة لسحابات زيها: «نعم، إنَّني كذلك، فقد هاتفني برنارد من نصف الساعة، وأخبرني أن لديه موعد غير متوقع، وسألني أن أرافق البدائي إلىٰ فيلم حسي هذا المساء، والآن عليَّ أن أطير». وهرعت إلىٰ الحمام.

تابعت فاني لينينا ببصرها قائلة في نفسها: «يا لها من فتاة محظوظة».

لم يكن في نفس فاني طيبةَ الطبع حسدٌ، بل كانت ببساطة تقرِّر واقعًا، كانت محظوظة أن شاركت برنارد في جزء من شهرة البدائي الواسعة، محظوظة أن انعكس علىٰ شخصها المتواضع جزء من مجد اللحظة بعد أن صار موضة، أفلم تتصل بها أمينة سر المؤسسة الفوردية للفتيات لتلقي محاضرة عن تجاربها؟ ألم تُدعَ إلىٰ العشاء السنوي في نادي الأفروديت؟ ألم تظهر بالفعل في نشرة أخبار السينما الحسية، حيث ظهرت بالصوت والصورة والملمس للملايين في مختلف أنحاء العالم؟

ولم يكن الاهتمام السافر الذي لاقته من الأفراد بأقل من اهتمام الجماهير، فقد دعاها المساعد الثاني لمراقب العالم المقيم إلىٰ العشاء والإفطار، كما أنَّها قضت أسبوعًا كاملًا مع رئيس قضاة فورد، وأسبوعًا آخر مع كبير المنشدين المجتمعيين بكانتربري، أمَّا رئيس مؤسسة الإفرازات الداخلية والخارجية فكان دائمًا وأبدًا علىٰ

الهاتف معها، كما أنَّها ذهبت إلىٰ دوفيل[1] مع نائب رئيس البنك الأوربي.

كانت لينينا قد اعترفت لفاني: «إنَّه لأمر رائع بالطبع، لكنِّي أشعر بوجه من الوجوه وكأنَّني حصلت علىٰ ميزة عن غير جدارة أو استحقاق؛ وذلك لأنَّ أول شيء يريدون معرفته هو كيف كانت تجربة ممارسة الحب مع بدائي، وحينها يجب أن أجيب بأنَّني لا أدري!».

وهزت رأسها مستطردة: «معظم الرجال لم يصدقوني حينما أخبرتهم بالطبع، ولكنَّها الحقيقة للأسف!».

وتنهدت قائلة: «إنَّه وسيم للغاية، أليس كذلك؟».

سألتها فاني: «لكن ألَا تعجبينه؟!».

أجابتها: «أحيانًا أظنُّ ذلك، وأحيانًا أخرىٰ لا أرىٰ ذلك، إنَّه يفعل ما بوسعه ليتجنبني دائمًا؛ يخرج من الغرفة عندما أدخلها، كما أنَّه لا يلمسني، بل ولا ينظر إليَّ حتىٰ، لكن أحيانًا عندما ألتفت فجأة أجده يحدق فيَّ، و... حسنًا أنت تدركين كيف ينظر إليك الرجل نظرة المعجب».

نعم؛ كانت فاني تدرك ذلك.

قالت لينينا: «لا استطيع فهم هذا الأمر».

---

(١) تقع بلدية دوفيل في منطقة النورماندي الفرنسية.

لم تستطع فهم الأمر، ولم يكن هذا الأمر مصدر حيرة لها وحسب، بل أزعجها أيضًا أيَّما إزعاج.

«وذلك يا فاني لأنَّه يعجبني».

وكان إعجابها به يزداد يومًا بعد يوم، واليوم لديها فرصة حقيقية، ضمخت نفسها بالعطر بعد استحمامها، نعم فرصة حقيقية، ارتفعت معنوياتها ووجدت منفذًا لمشاعرها المضطرمة في الغناء:

«ضُمَّني حتىٰ تخدرني يا محبوبي،
وقبِّلني حتىٰ أفقد وعيي،
ضُمَّني يا محبوبي،
كالأرنب الحبوب،
فالحب كالسوما يُحَب».

كان أُرجن الروائح يلعب نغمة خفيفة برائحة الأعشاب، تتصاعد منها أصوات تتابعية متماوجة بروائح الزعتر والخزامي، وروائح إكليل الجبل والريحان والآس والطرخون؛ وانطلقت سلسلة من الترنيمات الجريئة من خلال مفاتيح التوابل إلىٰ أن وصلت إلىٰ العنبر، ثم عودة بطيئة من خلال خشب الصندل والكافور والأَرز والقش المجزوز حديثًا (مع لمسات نشاذ خفيفة بين الفنية والأخرىٰ تحمل نفحة من بودنج الكلاوي ونفثة لا تكاد تميز من روث الخنازير)، ثم العودة إلىٰ الروائح العطرية البسيطة التي بدأت بها

المقطوعة. تلاشت آخر دفقة من دفقات الزعتر؛ فارتفع صوت التصفيق، وسطعت الأضواء، وبدأ ينفك قرص الصوت في آلة الموسيقىٰ الآلية.

كانت ثلاثية لفوق الكمان والتشيللو الفائق، وبديل الأبوا، وقد ملأت الجو باسترخاء حسن، وبعد ثلاثين أو أربعين مازورة انطلق يصدح بالتواءات أمام هذه الخلفية من الآلات العازفة صوت فوق البشري متفاوتًا في مخارجه من الحلق إلىٰ الرأس أو يبدو مجوفًا، وكأنَّه صوت ناي وقد شحن بتناغم ملتاع، وقد مر دون جهد من أدنىٰ طبقة وصل إليها جاسبارد فورستر ذو الصوت من طبقة الباص، حيث أقصىٰ حدود الطبقة الموسيقية وصولًا إلىٰ الحليّات من العلامة الموسيقية ذات السن (الكروش) أعلىٰ من أعلىٰ دو، والتي لم يصل إليها أحد من المغنيين في التاريخ سوىٰ لوكريشيا أجوري ذات مرة (عام: ١٧٧٠) في الأوبرا الدوقية في بارما لدهشة موتسارت الشديدة الذي كان حاضرًا آنذاك.

غارقين في مقاعدهم الهوائية الوثيرة، أخذ البدائي ولينينا يتشممان الهواء وهما يصغيان للموسيقىٰ، وحان وقت إشراك العينين والبشرة أيضًا في العرض، فانخفضت أضواء القاعة، وبرزت أحرف متوهجة صلبة بدت، وكأنَّما تقف وحدها في الظلام تقول:

(ثلاثة أسابيع في مروحية)،

فيلم حسي غنائي فائق . . .

ملون، ناطق مع موسيقىٰ آلية، مجسم، يصاحبه بالتزامن مع الأحداث أرغن الروائح.

وهمست لينينا: «اقبض بيديك علىٰ المقابض المعدنية الملحقة بمسندي مقعدك، وإلَّا لن يصل إليك أي من تأثيرات الفيلم الحسي».

ففعل البدائي كما أُمِر.

وفي تلك الأثناء اختفت الأحرف المتوقدة، ولعشر ثوانٍ ساد ظلام تام، ثم فجأة وبشكل مبهر ظهرت الصورة المجسمة أكثر جوهرية ممَّا لو كانت من لحم ودم، واقع أكبر من الحقيقة نفسها لاثنين غارقين في عناق، عملاق أسمر اللون وفتاة (بيتا موجب) ذهبية الشعر قصيرة الرأس.

أُخِذ البدائي، ما هذا الإحساس علىٰ شفتيه! رفع يدًا إلىٰ فمه، فتوقفت الدغدغة، فترك يده تسقط علىٰ المقبض المعدني مرة أخرىٰ، فعاد إحساس الدغدغة، وأثناء ذلك كان أرغن الروائح يفوح برائحة المسك النقي، وهدلت حمامة شادية ليتردد الصوت اثنين وثلاثين مرة في الثانية، ليجيبها صوت باص أغلظ من صوت الأفارقة متأوهًا، وتقابلت الشفاه المجسمة مرة أخرىٰ، ومرة ثانيَّة استشعر الستة آلاف من الجمهور الحاضر بدار قصر الحمراء بوخز خفيف في مناطق الإثارة بوجوههم كأنَّما سرىٰ تيار كهربي خفيف بها ممَّا أمدهم بمتعة لا تكاد تحتمل.

«آووه . . . !».

كانت حبكة الفيلم بسيطة للغاية، فبعد الدقائق الأولىٰ المنقضية في التأوه كانت هناك أغنية ثنائية، ومشهد غرامي علىٰ بساط فراء الدب الشهير -كان مساعد تعيين الأقدار مُحقًّا- حيث يمكنك الشعور بكل شعرة علىٰ هذا البساط بوضوح وعلىٰ حدة، ثم أصيب الأسود في حادثة مروحية، ووقع علىٰ رأسه؛ ليشعر بخبطة مكتومة! يا لها من وخزة في الجبهة، وانطلقت التأوهات من الجمهور كالجوقة.

وأدَّىٰ ارتجاج المخ الذي أصاب الأسود إلىٰ محو كل التكيف الذي مر به في حياته ليذهب أدراج الرياح، ونمت في وجدانه عاطفة مهووسة لفتاة (البيتا) الشقراء، وأصبح لا يرىٰ سواها، اعترضت الفتاة ولكنَّه أصر، وكانت هناك صراعات ومطاردات وتهجم علىٰ غريم له، **وأخيرًا**: كان هناك اختطاف مثير، حيث أخذها المخبول الأسود عنوة وطار بها في السماء، مبقيًا إيَّاها معلقة لثلاثة أسابيع في عزلة مجنونة معادية للمجتمع، وفي النهاية وبعد مغامرات متتابعة وألعاب هوائية بهلوانية نجح ثلاثة من شباب (الألفا) الوسيم في إنقاذها، وحُجز الفتىٰ الأسود في مركز لإعادة تكييف البالغين، وانتهىٰ الفيلم نهاية سعيدة لائقة، حيث أصبحت (البيتا) الشقراء خليلة الثلاثة منقذين (الألفا).

وقاطعوا أنفسهم لحظة يغنون فيها مقطع آلي رباعي بمصاحبة أوركسترا كاملة، وعطر زهرة الجاردينيا من أرغن الروائح، ثم ظهر فراء الدب للمرة الأخيرة وسط انطلاق آلات الساكسفون، واختفت

آخر القبلات المجسمة تدريجيًا في الظلام، وتلاشىٰ شعور الدغدغة والذبذبة علىٰ الشفاه كفراشة تموت فتختلج وترتعش في وهنٍ، وتظل تضعف حركتها تدريجيًّا حتىٰ تسكن تمامًا.

ولكن بالنسبة للينينا؛ فإنَّ الفراشة لم تمت تمامًا، حتىٰ مع عودة الإضاءة، حتىٰ مع انضمامهم للزحام محاولين الوصول ببطء إلىٰ المصاعد لازال شبح القبلة يرتعش علىٰ شفتيها، لا زال أثرها يسري عبر بشرتها في رجفة تحرُّق ونشوة، كان خداها متوردين وهي تلتقط ذراع البدائي وتضغطه برفق ليلتصق مرتخيًا بجانبها، وللحظة هبط بنظره إليها شاحبًا متألمًا مشتهيًّا وخجلًا من شهوته، إنَّه لم يكن جديرًا بها، لم ...، التقت عيناهما للحظة، ما ألذ الكنوز التي وعدته بها عيناها، كان مزاجها الرقراق يساوي فدية ملكة، لكنَّه أشاح بوجهه عنها بسرعة وحرر ذراعه المأسور، كان مرتعبًا يملؤه إحساس غامض بالخوف من أن تكف يومًا عن أن تكون شيئًا يشعر بعدم جدارته واستحقاقه إيَّاه، وقال مسارعًا في إبعاد اللوم عن لينينا نفسها إلىٰ الظروف المحيطة بها في أي عثرة سالفة أو مستقبلية، كانت أو محتملة تزحزحها عن نُصُب الكمال الذي شيده لها: «لا أظنُّ أنَّه ينبغي أن يقع ناظريك علىٰ مثل هذه الأشياء».

«أي أشياء يا جون؟!».

«أشياء مثل هذا الفيلم البغيض».

كانت لينينا صادقة في دهشتها: «بغيضًا؟! ولكنني ظننته لطيفًا».

رد **منفعلًا**: «بل كان منحطًا رذيلًا».

هزت رأسها: «لا أدري ماذا تعني!». «لماذا هو غريب الأطوار لهذه الدرجة؟! ولماذا يبدو كما لو كان يبذل وسعه ليفسد متعة الأشياء عمدًا؟!».

جلس مشيحًا عنها صامتًا في مركبة الأجرة الطائرة لا يكاد ينظر إليها، موثقًا بعهود قوية لم يلفظ بها يومًا، ومسلمًا لقوانين لم تعد جارية منذ زمن، وكان بين الفينة والأخرىٰ يرتعد برجفة عصبية مفاجئة كأنَّما هناك يد خفية تجذب خيوطًا مشدودة بأعصابه.

حطت المروحية علىٰ سطح المبنىٰ الذي يقل منزل لينينا، وفكرت لينينا جذلة وهي تخطو خارجًا أخيرًا! نعم أخيرًا رغم غرابة مسلكه الليلة، وقفت تحت عمود إنارة وأخرجت مرآة يدها تتطلع فيها، وهي تفكر مجددًا أخيرًا، كان أنفها لامعًا فالتقطت أسفنجة مسحوق التجميل من حقيبة السهرة منتهزة فرصة انشغاله بدفع أجرة المركبة، مسحت اللمعة عن أنفها وهي تفكر: ما أوسمه! كما أنَّه لا مدعاة هناك لأن يكون خجولًا كبرنارد، ومع ذلك . . . أي رجل آخر لم يكن ليتريث كل هذا الوقت، ولكن الآن قد حان الوقت أخيرًا.

وابتسم لها الوجه المطل عليها من المرآة.

ثم أتاها صوته مختنقًا من خلفها: «تصبحين علىٰ خير».

فالتفتت لينينا بحركة حادة، كان يقف علىٰ باب المروحية

وعيناه مثبتة عليها محدقة فيها، كان واضحًا أنَّه ظل يتطلع إليها طوال الوقت الذي كانت تعدل فيه زينتها، منتظرًا ... ماذا؟ أو مترددًا؟ يحاول أن يحزم أمره؟ ويفكر، طوال الوقت يفكر في أفكارٍ عجيبة لا يمكنها تخيلها.

«تصبحين علىٰ خير يا لينينا». والتوت شفتاه بما أراده أن يكون ابتسامًا.

«ولكن يا جون ... لقد ظننت أنك ... أعني ألن ...؟!».

لكنَّه أغلق الباب ومال إلىٰ الأمام ليقول شيئًا ما للسائق الذي أقلع بالمروحية.

ومن الكوة الزجاجية بقاع المروحية شاهد جون وجه لينينا المرفوع شاحبًا في الضوء الأبيض البارد للمصابيح، كان فمها منفرجًا وكأنَّها كانت تناديه، بينما أخذ جسمها في التضاؤل مع ابتعاده، وبدت رقعة السطح المربعة، وكأنَّها تتهاوىٰ في الظلام.

وصل إلىٰ غرفته بعد مرور خمس دقائق، ومن مخبأه أخرج الكتاب الذي قرضت الفئران جلدته، يقلب صفحاته المغضنة الملطخة بإجلال وتبجيل، وشرع يقرأ عطيل، كان قد تذكر عطيل ورآه مثل بطل «**ثلاثة أسابيع في مروحية**» رجلًا أسمر مثله.

كفكفت لينينا دموعها، وعبرت السطح إلىٰ المصعد، وهي تهبط إلىٰ الطابق السابع والعشرين أخرجت قنينة سوما، لن يكفي جرامًا واحدًا، كان مصابها أكبر من أن يذهبه جرام من سوما،

ولكنَّها لو تناولت جرامين فستخاطر بالتأخر عن موعد استيقاظها غدًا صباحًا، استقرت علىٰ حلٍ وسط، رجت القنينة وفي يدها اليسرىٰ قبعت ثلاث حبات زنة نصف جرام.

الفصل الثاني عشر

اضطر برنارد إلىٰ اللجوء للصياح من خلف الباب المغلق بعد أن رفض البدائي فتح الباب: «ولكن الجميع هناك في انتظارك!».

فجاءه الرد المكتوم من وراء الباب: «دعهم ينتظرون».

«ولكنَّك تعلم جيِّدًا يا جون أنَّني دعوتهم خصيصًا لمقابلتك».

(ما أصعب أن تحاول أن تبدو مقنعًا، وأنت تصيح بأعلىٰ صوتك!).

«كان عليك أن تسألني أولًا إن كنت أود مقابلتهم».

«ولكنَّك -دائمًا- ما كنت تأتي يا جون».

«وهذا بالضبط هو سبب رفضي للذهاب مرة أخرىٰ».

صاح برنارد متملقًا: «افعل ذلك من أجلي! ألن تفعله من أجلي؟!».

«كلَّا!».

«هل تعني ذلك حقًّا؟!».

«نعم!».

فارتفع عويل برنارد يائسًا: «لكن ماذا عساي أصنع؟!».

فزعق الصوت المحتنق من الداخل: «تذهب إلىٰ الجحيم».

فأوشك برنارد علىٰ البكاء: «لكن كبير منشدي كانتربري سيكون هناك الليلة».

كان جون غاضبًا لدرجة أنَّه انتقل للغة الزوني كي يستطيع التعبير عن غضبه مبديًا رأيه غير اللائق في كبير منشدي كانتربري، قبل أن يبصق علىٰ الأرض تمامًا، كما كان البابا سيفعل لو كان مكانه.

في النهاية اضطر برنارد أن ينسل راجعًا متضائلًا إلىٰ غُرَفِه، ويُعلم الجمع المتبرم أنَّ البدائي لن يظهر هذه الليلة. استُقبل النبأ باستياء، وغضب الرجال غضبًا شديدًا أن اضطروا إلىٰ التأدب مع هذا النكرة ذي السمعة الرديئة والآراء المهرطقة دون جدوىٰ، وكان أكثرهم حنقًا بطبيعة الحال أعلاهم شأنًا.

وما فتئ كبير منشدي كانتربري يكرر: «كيف يجرؤ علىٰ الاستهانة بي أنا بهذا الشكل؟!».

أمَّا النساء؛ فقد شعرنَ بالغيظ، وأنَّه تم الإيقاع بهنَّ، وأنَّ رجلًا ضئيلًا بائسًا صُب الكحول في زجاجته بطريق الخطأ له قامة فرد (جاما سالب) قد نالهنَّ بادعاءات كاذبة، كانت تلك إهانة بالغة، وقد أعلنَّ هذا بأصوات متزايدة في الارتفاع، وكانت ناظرة إيتون أكثرهن انتقادًا مريرًا.

فقط لينينا ظلَّت صامتة شاحبة تغشىٰ عينيها الزرقاوين سحابة

كآبة نادرة، وقد انتحت جانبًا يفصلها عمَّن أحاط بها شعور لم يشاركوها إيَّاه، لقد جاءت الحفل يحدوها إحساس غريب من الابتهاج القلق وهي تحدث نفسها، وهي تدلف إلىٰ القاعة: «بعد بضع دقائق سأراه وأحادثه، ولسوف أخبره (لأنَّها كانت قد حزمت أمرها) أنَّه يعجبني كما لم يعجبني أحد من قبل، وربما يخبرني حينئذٍ ...».

«تُرىٰ ما الذي سيقوله؟!». واندفعت الدماء إلىٰ وجنتيها.

«لماذا كان غريب الأطوار بالغ الشذوذ تلك الليلة بعد الذهاب إلىٰ الفيلم الحسي؟ ومع ذلك؛ فإنِّي واثقة تمامًا من إعجابه بي كل الثقة ...».

أفاقت من تأملاتها في تلك اللحظة علىٰ إعلان برنارد عن تصريحه أنَّ البدائي لن يحضر الحفل.

شعرت لينينا فجأة بما يشعر به المتعرضون لبدايات معالجة بديل الانفعالات العنيفة؛ شعور بخواء مروع، وتخوف لاهث مترقب، وغثيان، وبدا قلبها وكأنَّه علىٰ وشك التوقف عن النبض.

قالت لنفسها: «ربما فعل ذلك لأنَّني لا أعجبه».

وفي الحال أصبحت تلك الفكرة حقيقة يقينية، إنَّ جون لم يأتِ إلىٰ الحفل لأنَّها لا تعجبه.

إنَّها لم تعجبه ...!

كانت ناظرة إيتون تخبر مدير المحرقة واستصلاح الفوسفور:

«أشعر بالغباء حينما أفكر أنَّني بالفعل . . .».

ووصل إليها صوت فاني كراون: «نعم، الأمر المتعلق بالكحول في بديل دمه صحيح تمامًا، إن أحد أصدقائي له صديقة كانت تعمل في متجر الأجنة حينها، وهي التي أخبرتْ صديقي الذي أخبرني بدوره».

وكان هنري فوستر يقول متعاطفًا مع كبير المنشدين المجتمعيين: «هذا سيئ للغاية، سيئ للغاية، وقد يثير اهتمامك أن تعلم أن مديرنا السابق كان علىٰ وشك نقله إلىٰ أيسلندا».

كانت كل كلمة توخزه وخزات تثقب بالون السعادة والثقة الذي أحاط به نفسه، وقد امتلأ بآلاف الجروح النازفة، وأخذ يتنقل بين مدعويه شاحبًا مضطربًا خنوعًا منفعلًا، يلقي بالاعتذارات المتلعثمة غير المفهومة هنا وهناك، مؤكدًا لهم أنَّ البدائي سيكون حاضرًا المرة القادمة، ويتوسَّل إليهم أن يبقوا ويتناولوا شطيرة كاروتين، أو قطعة من مخبوزات (فيتامين أ)، أو كأسًا من بديل الشامبانيا، وقد أكلوا جيدًا، ولكنَّهم تجاهلوه، وشربوا ولكنَّهم إمَّا كانوا وقحين معه أو تبادلوا الحديث عنه بين بعضهم البعض بصوت مرتفع وأسلوب مهين، كأنَّما لا وجود له بينهم.

وقال كبير منشدي كانتربري بصوته الجميل الرنان الذي يقود به مراسيم احتفالات يوم فورد: «والآن يا أصدقائي أعتقد أنَّه قد حان الوقت لـ . . .». ونهض ثُمَّ وضع كأسه ونفض عن صديري بذلته الفسكوز فتات الوجبة التي التهمها واتجه نحو الباب.

واندفع برنارد ليعترض طريقه: «أينبغي حقًّا أن تذهب يا سيدي؟ . . . لا زال الوقت مبكرًا، وقد رجوتُ أنَّك ربما . . .».

ما لم يكن يرجوه برنارد عندما أخبرته لينينا سرًّا بأنَّ كبير منشدي كانتربري سيقبل دعوته إذا أرسل يدعوه، «حيث إنَّه حقًّا لطيف المعشر». وأطلعت برنارد علىٰ رأس السحاب الذي يُمثل حرف (T) الذي أهداه إيَّاها نيافته كتذكار لعطلة نهاية الأسبوع التي قضياها معًا في لامبث، ممَّا جعل برنارد يعلن فخورًا ظافرًا في بطاقة الدعوة: «للقاء كبير منشدي كانتربري والسيد سافدج».

هو أن يختار البدائي هذه الليلة من كل الليالي كي يحبس نفسه في غرفته، صائحًا بعبارات جعلت برنارد يشكر حظه الحسن أنَّه لا يفهم لغة الزوني، وهكذا تحوَّل ما كان ينبغي أن يكون لحظة التتويج في حياة برنارد العملية إلىٰ أكبر خزي أصابه.

كرر متلعثمًا: «لقد رجوت حقًّا . . .».

ورفع عينين مستجديتين مرتبكتين إلىٰ ذي المكانة الرفيعة في مواجهته.

ارتفع صوت كبير منشدي كانتربري فساد الصمت ليُسمَع صوته رصينًا صارمًا وهو يلوح بإصبعه في وجه برنارد: «يا صديقي الصغير دعني أوجه لك النصح قبل أن يفوت الوقت، إليك هذه النصيحة الجيدة».

واكتسب صوته رنة كئيبة وهو يستطرد: «أصلح مسلكك

يا صديقي الصغير، أصلح مسلكك».

وأشار بعلامة حرف (T) علىٰ جسده والتفت عنه قائلًا بنبرة مغايرة: «هلُمِّي معي يا لينينا العزيزة».

سارت لينينا خلفه طائعة، وإن لم تبتسم، ولم يبدُ عليها الزهو بالشرف الذي أغدقه عليها، وتبعهما الضيوف الآخرون علىٰ مسافة ملائمة، وصفق آخرهم الباب وراءه تاركين برنارد وحيدًا.

تهالك برنارد علىٰ مقعد ممزقًا وخاويًا تمامًا، وأخفىٰ وجهه في راحتيه وشرع في البكاء، لكنَّه بعد عدة دقائق فكر مليًّا وتناول أربع حبوب من سوما.

في تلك الأثناء كان البدائي في الطابق الأعلىٰ يقرأ «روميو **وجولييت**».

ترجَّل كبير منشدي كانتربري ولينينا إلىٰ سطح قصر لامبث[١] . . .

وصاح بصبر نافد من أمام أبواب المصعد: «أسرعي يا صديقتي الصغيرة، أعني: يا لينينا».

كانت لينينا قد تمهلت لتتطلع إلىٰ القمر، فخفضت رأسها، وهرعت عبر السطح لتنضم إليه.

كان عنوان الورقة البحثية التي فرغ مصطفىٰ موند لتوِّه من قراءتها: «نظرية جديدة في علم الأحياء».

---

(١) (قصر لامبث): هو المقر الرسمي اللندني لرئيس أساقفة كانتربري.

وجلس لبرهة مُقطِّبًا مُتأمِّلًا، ثم التقط قلمه وكتب علىٰ صفحة العنوان: «معالجة المؤلف الحسابية لمفهوم الهدف جديدة، ومبدعة للغاية، ولكنَّها هرطقة وخطر علىٰ النظام الاجتماعي الحالي، وتحمل قوىٰ هدامة كامنة».

ووضع خطًّا تحت جملة: «غير صالحة للنشر»، ثم: «يوضع المؤلف تحت المراقبة، وقد يصبح من الضروري نقله إلىٰ محطة الأحياء البحرية بسانت هيلينا».

شعر بالأسف وهو يوقع باسمه، فقد كان عملًا متقنًا، لكنَّك ما أن تبدأ في السماح بوضع تفسيرات في سياق الغرض والهدف حتىٰ تخرج الأمور عن سيطرتك، ولن يمكنك التنبؤ بالنتيجة.

إنَّ مثل هذه الفكرة كفيلة بالتسبب بانتكاسة في تكييف العقول غير المستقرة في الطبقات العُليا، وهذا قد يجعلهم يفقدون إيمانهم بالسعادة كغاية عُليا، ويبدأون بدلًا من ذلك في الاعتقاد بأنَّ هناك غاية فوقية أبعد من المحيط الإنساني الحالي، وأنَّ الهدف من الحياة ليس الحفاظ علىٰ رفاهية الإنسان، ولكن شحذ وعيه وتطهير شعوره وتوسيع مداركه، وهو ما يرجح المراقب أنه الحق فعلًا، ولكنَّه حقٌّ لا يصلح في الظروف الراهنة.

تناول قلمه مُجدَّدًا، وخطَّ خطًّا آخر أغلظ وأعرض تحت عبارة: «غير صالحة للنشر»، **ثم تنهد مفكرًا:** «كم كان سيكون الأمر ممتعًا لو كان بمقدور المرء ألَّا يفكر في السعادة!».

بعينين مغمضتين ووجه يشع بالنشوة، خاطب جون الفراغ حوله هامسًا:

«أوه! إنَّها تُعلِّم المصابيح كيف تُضيء،
كأنَّما علقت علىٰ صفحة خد الليل،
كجوهرة متدلية من أذن حبشية،
جمال أجلُّ من أن يُتناول،
وأغلىٰ من أن يمسه مخلوق أرضي»[1].

رقد حرف (T) الذهبي متألقًا فوق صدر لينينا، فالتقطه كبير منشدي كانتربري يوفر عليها عناء فتح السحاب وشده لأسفل، فقالت لينينا فجأة قاطعة صمتًا طويلًا: «ربما كان من الأفضل أن أتناول جرامين من سوما».

كان برنارد في تلك الأثناء نائمًا، والابتسامة تعلو وجهه، وقد صورت له أحلامه جنة خاصة، لكن عقارب الساعة الإلكترونية فوق فراشه كانت تزحف للأمام في حركتها الأبدية معلنة بدقاتها عن كل خطوة تخطوها، حتىٰ طلع الصباح؛ ليعود برنارد إلىٰ بؤس المكان والزمان، كانت نفسيته في أسوأ حالاتها عندما استقل مركبة أجرة طائرة إلىٰ عمله في مركز التكييف، وقد تبخرت نشوة النجاح، وفاء إلىٰ طبيعته القديمة المناقضة للبالون المؤقت الذي عاش داخله تلك الأسابيع الأخيرة، وقد بدت نفسه القديمة تلك أثقل من الهواء

(١) «روميو وجوليت».

المحيط بها كما لم تكن من قبل.

وقابل البدائي برنارد في حاله ذاك بتعاطف غير متوقع، وعلَّق قائلًا عندما أخبره برنارد بقصته الحزينة: «إنَّك تبدو الآن أقرب لِمَا كنت عليه في الماليز، أتتذكر محادثتنا الأولىٰ خارج المنزل الصغير؟ إنَّك الآن تبدو كما كنتَ آنذاك».

«لأنَّني تعيس مجددًا، هذا هو السبب».

«التعاسة أحب إلي من تلك السعادة الكاذبة الزائفة التي نلتَها هنا».

قال برنارد بمرارة: «ما أجمل ذلك! حيث إنَّك سبب كل ما حدث برفضك الحضور لحفلتي وبذلك حولتهم كلهم ضدي».

كان يعلم أنَّ قوله غبن بيِّن وهو ما اعترف به لنفسه، بل وفي النهاية ذكر جهارًا حقيقة تفاهة أولئك الأصدقاء الذين يمكن أن يتحوَّلوا إلىٰ أعداء وجلادين عند أقل استفزاز، لكن رغم هذا الإدراك وهذه الاعترافات، ورغم أنَّ دعم صديقه وتعاطفه أصبحا سلواه الوحيدة الآن؛ إلَّا أنَّ قلب برنارد استمر ينطوي علىٰ ضغينة مستترة علىٰ البدائي رغم الود الحقيقي الذي يكنه له، وشرع في التخطيط لعدة انتقامات صغيرة.

كان تغذية شعور الضيم والاحتقان ضد كبير منشدي كانتربري لا طائل من ورائه، ولم تكن هناك أدنىٰ فرصة لشفاء غليله من رئيس التعبئة أو من مساعد معين الأقدار، ولكن البدائي كان يملك

كضحية تفوُّقًا هائلًا علىٰ الآخرين؛ ألَا وهي القدرة علىٰ النيل منه، وهذه إحدىٰ مهام الأصدقاء الرئيسة، ألَا وهي تحمُّل (بشكل خفيف ورمزي) العقوبات التي نحب، ولكن لا نستطيع أن نوقعها علىٰ أعدائنا.

وكان هيلمهولتز هو الصديق الضحية الآخر لبرنارد، والذي ذهب إليه مرة أخرىٰ في ارتباكه وحيرته يسأله الصداقة التي لم يجدها جديرة بالحفاظ عليها في رخائه، وقد منحه إيَّاها هيلمهولتز، منحه إيَّاها دون تأنيب أو حتىٰ تعليق، كأنَّما نسي ما حدث بينهما يومًا، وبينما شعر برنارد بالتأثر راوده شعور آخر بالمهانة من هذا الكرم، وهو كرم بالغ لا فضل فيه لسوما، بل يعود كله إلىٰ شخصية هيلمهولتز؛ ولذلك: كان شعور المهانة علىٰ قدر الكرم، لقد كان هيلمهولتز في حالته اليومية المعتادة هو الذي نسىٰ وغفر وليس هيلمهولتز الخاضع لتأثير عطلة سوما. وكان برنارد ممتنًا امتنانًا وافيًا (فقد كان عزاءً بالغًا له أن يستعيد صديقه ثانيَة)، ولكنَّه كان مغتاظًا ناقمًا عليه كذلك، (ولسوف يسعده أن يوجه شيئًا من انتقامه إلىٰ هيلمهولتز بسبب كرمه).

وفي لقائهما الأول بعد افتراقهما أفضىٰ برنارد إلىٰ صديقه بمآسيه وتقبل مواساته، ولم يعلم أنَّه ليس وحده الذي يواجه مشاكل إلَّا بعد مرور عدة أيام لدهشته وخجله، حيث علم أنَّ هيلمهولتز اصطدم أيضًا مع السلطة.

وأخبره هيلمهولتز: «كان الأمر يتعلَّق ببعض الأبيات المقفاة،

حيث كنت ألقي إحدىٰ محاضراتي في الدورة المعتادة للهندسة الانفعالية المتقدمة، لطلبة السنة الثالثة المكونة من اثنتي عشرة محاضرة، وكانت المحاضرة السابعة عن الأبيات المقفاة، ولو شئت التفصيل كان موضوعها عن: استخدام الأبيات المقفاة في الدعاية الأخلاقية والإعلان.

وأنا دائمًا ما أطعم محاضراتي بالكثير من النماذج العملية، وتلك المرة فكرت في أن أقدم لهم مثالًا كتبته بنفسي، كان ذلك جنونًا مطبقًا بالطبع، ولكنني لم أستطع المقاومة».

وضحك قبل أن يستطرد: «تملكني الفضول لرؤية ردود أفعالهم».

وعاد لوقاره مرة أخرىٰ وهو يقول: «إلىٰ جانب أنَّني أردت القيام بشيء من الدعاية، وكنت أحاول أن أعدَّهم ليشعروا بما شعرت به عند كتابة القافية، فورد!».

وضحك مجددًا: «أي جعجعة حدثت آنذاك! لقد استدعاني المدير وهدد بإقالتي علىٰ الفور، وأصبحت مستهدفًا».

«ولكن عم كانت الأبيات؟».

«كانت عن الوحدة».

ارتفع حاجبا برنارد!

«سأتلوها عليك لو رغبت».

وشرع هيلمهولتز ينشده:

«كان اجتماع الأمس،
عصي لكن طبولها ممزقة،
ومنتصف الليل في المدينة،
ناي ينفخ في فراغ،
الشفاه مطبقة، والوجوه نائمة،
وكل الآلات ساكنة،
والأماكن الخرساء الخربة،
حيث كانت الجموع: . . .
ابتهج كل السكوت،
فابك (خافتًا أو بأعلىٰ حس)،
وتكلم مع الصوت،
لكن صوت من؟
لا أدري!
ربما غياب سوزان!
أو غياب ألجيريا!
ذراعي وصدري هذه وتلك،
والشفاه والأرداف،
يكونون ببطء كيان،
لكن لمن؟ إنِّي لأسأل ما كنهه؟

إنَّه لجوهر شاذ المعنىٰ،
جوهر أحيانًا بلا وجود
ومع ذلك؛ فإنه يعمر . . .
الليل الفارغ،
بوجود حيوي لا تضاهيه حيويتنا الجنسية،
ولكن!
لماذا يبدو هذا مستقذرًا؟!».

«حسنًا لقد أعطيتهم هذا كمثال، فأبلغوا عني المدير!».

قال برنارد: «ليس ذلك بمستغرب، فما قلته يناقض كل ما تعلموه أثناء النوم، تذكر أنَّهم تلقوا علىٰ الأقل ربع مليون تحذير ضد الخلوة بالنفس».

«نعم أعلم! لكنِّي أردت أن أعلم تأثير ذلك عليهم».

«وها قد علمت».

فما كان من هيلمهولتز؛ إلَّا أن ضحك، ثم قال بعد هنيهة: «أشعر الآن أنَّ لدي ما أكتب بشأنه، وكأنني أستطيع الآن أن أستخدم تلك القوة التي أشعر بها بداخلي، تلك القوة الكامنة الفائضة، كما يلوح لي شيء قادم في الأفق».

وبدا لبرنارد أن هيلمهولتز يبدو سعيدًا حقًّا رغم كل متاعبه.

انعقدت الصداقة بين هيلمهولتز والبدائي علىٰ الفور، وتوادًّا

وُدًّا خالصًا، حتىٰ إنَّ برنارد شعر بوخز الغيرة، ففي كل الأسابيع الماضية لم يحقق هو والبدائي ذلك التقارب الذي بدا أنَّ هيلمهولتز وصل إليه مع البدائي علىٰ الفور، ووجد نفسه أحيانًا وهو يشاهدهما ويسمعهما يتحدثان يتمنىٰ بشيء من الحنق لو لم يعرِّفهما علىٰ بعضهما البعض، كان يشعر بالخجل من غيرته، وحاول التغلب عليها بالإرادة تارة وبمعاونة سوما تارة أخرىٰ، لكن مساعيه لم تكلل بالنجاح تمامًا، وحتىٰ مع عطلات سوما كان لا بُدَّ أن تتخللها فترات يعاوده فيها ذلك الشعور المقيت».

وفي لقائه الثالث بالبدائي تلا عليه هيلمهولتز أبياته المقفاة عن العزلة، وسأله حين انتهائه: «ما رأيك؟».

فهز البدائي رأسه وكانت إجابته: «استمع إلىٰ هذا».

وفتح درجًا يحتفظ فيه بنسخته التي قرضتها الفئران وشرع في القراءة:

«دع الطائر الصادح بأعلىٰ صوته،
علىٰ الشجرة العربية الوحيدة،
كنذير حزين وبوق منطلق . . .»[1].

أصغىٰ هيلمهولتز بحماس متزايد، وتعاقبت مشاعره علىٰ وجهه مع كل فقرة جديدة، فلاحت عليه المفاجأة مع: «الشجرة العربية الوحيدة»!

---

(١) من قصيدة لشكسبير بعنوان: «العنقاء والسلحفاة».

ثم ابتسم بسرور ظاهر عند سماعه: «صياحك المنذر»!

بينما اندفعت الدماء إلىٰ وجنتيه مع: «كل داجن ذي جناح طاغ»!

لكن وجهه شحب وارتجف بمشاعر لم يسبق له الإحساس بها عند سماعه: «الموسيقىٰ الجنائزية»!

واستمر البدائي في القراءة:

«وهكذا صدمت الشيم اللائقة،

لأنَّ النفس لم تعد كسابق عهدها،

وأصبح للنفس المفردة اسم مزدوج،

لا هي تدعىٰ واحدة ولا هي اثنتين،

وتَحير العقل عندما؛

رأي الشتيتين يتحدا ...

هنا قاطع برنارد القراءة بضحكة عالية مستهجَنة قائلًا: «طقس العربدة. إنَّها ليست أكثر من ترنيمة لخدمة مجتمعية». كان ينتقم من صديقيه؛ لأنَّهما كانا أحب إلىٰ بعضهما البعض منه، وهو ما كرره برنارد كثيرًا في مقابلاتهم التالية: تلك الأفعال الانتقامية البسيطة، كان انتقامًا سهلًا هيِّنًا؛ لأنَّ كلًّا من هيلمهولتز والبدائي قد تألم بشدة من تحطيم وتدنيس تلك القطعة المفضلة لهما من الصفاء الشعري.

وفي النهاية هدد هيلمهولتز بإلقائه خارج الغرفة إذا جرؤ علىٰ

المقاطعة ثانية، ومع ذلك وللغرابة؛ فإن المقاطعة التالية وأكثرها شناعة أتت من هيلمهولتز نفسه.

كان البدائي يقرأ «روميو وجولييت» بصوت مسموع يموج بالعاطفة متخيلًا نفسه طوال الوقت روميو، ولينينا جولييت، واستمع هيلمهولتز إلىٰ لقاء العاشقين الأول باهتمام متحير، كان مشهد البستان قد خلب لبه بشاعريته الرقراقة؛ لكن المشاعر التي وصفها المشهد جعلته يبتسم؛ فقد بَدَا له من السخف أن يصل المرء إلىٰ مثل هذه الحالة لمجرد رغبته في فتاة، لكنَّه تمعن في التفاصيل اللفظية وتركيباتها، التي شكلت قطعة فريدة من الهندسة الانفعالية: «إنَّ هذا الزميل التليد يجعل أفضل تقنيينا الدعائيين يبدون تافهين تمامًا إذا ما قورنوا به».

فابتسم البدائي ظافرًا، واستأنف قراءته، وسار الأمر علىٰ ما يرام حتىٰ المشهد الأخير في (الفصل الثالث)، عندما بدأ كابوليت وزوجته يضغطان علىٰ جولييت للزواج من باريس، ظل هيلمهولتز متململًا طوال المشهد، ولكن عندما قلد البدائي صوت جولييت تقليدًا سيئًا، وهي تقول:

«أليست هناك شفقة بين السحاب،
تنظر إلىٰ أعماق حزني؟
يا أمي الحبيبة لا تنبذيني!
فلتُرجئي هذا الزواج

شهرًا أو أسبوعًا؛
فإن لم تفعلي؛ فاجعلي فراش العرس
علىٰ ذاك الضريح المعتم
حيث يرقد تيبوليت . . .».

عند ذلك انفجر هيلمهولتز مقهقهًا.

إذن؛ فالأم والأب (ما أبشعها من ألقاب) يرغمان الابنة علىٰ شخص لا تريده!

والفتاة الحمقاء لا تصرح أنَّها تؤثر شخصًا آخر (في هذه المرحلة علىٰ الأقل)، كان الموقف كوميديًا لا تملك؛ إلَّا أن تضحك من لا معقوليته البذيئة، ولكنَّه استطاع بجهد بطولي أن يحجِّم من نوبة الفكاهة المتصاعدة التي انتابته، ولكن سماعه للفظة «أمي الحبيبة» ينطقها البدائي برنته المرتجفة التي تموج باللوعة، والإشارة إلىٰ تيبوليت الذي يرقد ميتًا دون إحراق مضيعًا مخزونه من الفوسفور هباءً في مقبرة معتمة كانا أكثر ممَّا يمكنه تحمله، فأغرق في الضحك حتىٰ سالت الدموع متساقطة من وجهه، كان يضحك دون كبت بينما البدائي ينظر إليه من فوق حافة كتابه شاحبًا شاعرًا بالإهانة، ولمَّا استمر الضحك أغلق كتابه حانقًا، ونهض وبلفتة من يبعد درته الثمينة عن خنزير أغلق عليه الدرج بعيدًا عن العيون.

ولمَّا استعاد هيلمهولتز شيئًا من أنفاسه؛ ليعتذر ويطيب من خاطر البدائي شيئًا ما يجعله يستمع إلىٰ تفسيره قال: «ومع ذلك

أعلم جيِّدًا أنَّ الإنسان يحتاج إلىٰ مواقف سخيفة ومجنونة كتلك؛ فالمرء لا يستطيع الكتابة الجيدة حقًّا فيما سوىٰ ذلك. هل تعلم لماذا كان هذا الزميل فني دعاية رائعًا؟ لأنَّه يملك العديد من الأشياء المجنونة والألم الممض الذي يثير المشاعر، ولكي تحصل علىٰ مثل هذا يجب أن تكابد الألم والاضطراب والهم، بغير ذلك لا يمكنك أن تصل إلىٰ العبارات التي تخترق الوجدان كما تخترق الأشعة السينية الأجسام. لكن آباء ووالدات! (وهز رأسه).

أنت لا تتوقع مني أن أظل جدِّيًّا وأنت تحكي عن الآباء والوالدات!

ومَن يهمه إن حصل فتىٰ علىٰ فتاة أم لا؟!».

جفل البدائي، ولكن هيلمهولتز الذي كان يحدق باستغراق في الأرض فاته ذلك، وختم حديثه متنهدًا: «كلَّا، هذا لن يفلح. نحن في حاجة إلىٰ نوع آخر من أنواع الجنون والعنف، ولكن ماذا يكون يا ترىٰ؟ ماذا يكون؟ وأين للمرء أن يجد مثل هذا النوع؟».

وصمت برهة ثم هز رأسه وقال أخيرًا: «لست أدري، حقًّا لست أدري!».

الفصل الثالث عشر

لاح طيف هنري فوستر خلال إضاءة متجر الأجنة التي تبدو كالشفق، وسألها:

«أتودين الذهاب إلىٰ فيلم حسي هذا المساء؟».

فهزت لينينا رأسها رافضة دون كلام!

«هل ستواعدين شخصًا آخر؟».

كان يتنابه الفضول لمعرفة أي من زملائه يواعد من، فسألها ملحًا: «أهو بنيتو؟».

فهزت رأسها مرة أخرىٰ، ولاحظ هنري الإرهاق حول عينيها الأرجوانيتين، والشحوب الظاهر تحت لمعة الذئبة، وتعبير الحزن البادي علىٰ ركني الشفتين القرمزيتين، فسألها بشيء من القلق وقد خشي أن يكون قد أصابها مرض من الأمراض المعدية القليلة المتبقية في العالم: «إنَّك لا تشعرين بوعكة، أليس كذلك؟».

ولكن لينينا عادت لتهز رأسها.

«ومع ذلك ينبغي عليك زيارة الطبيب».

وتلا عليها متحمسًا مقولة من مقولات التعليم أثناء النوم:

«زيارة يومية للطبيب تذهب بالتوتر العصبي الشديد». وربت علىٰ كتفها مقترحًا عليها: «ربما تحتاجين إلىٰ بديل الحمل، أو ربما بديل الأحاسيس العنيفة، فأحيانًا لا يكون بديل العواطف التقليدي كافيًا . . .».

فهتفت لينينا قاطعة صمتها العنيد وقد نفد صبرها: «أوه! لأجل فورد! صهِ!».

والتفتت إلىٰ أجنتها التي أهملتها.

بديل الأحاسيس العنيفة! كانت لتضحك لو لم تكن علىٰ وشك البكاء، وكأنَّما تنقصها الأحاسيس العنيفة! وتنهدت بعمق وهي تملأ محقنها، وتمتمت لنفسها باسم جون مرارًا.

ثم تساءلت: «بحق فورد! هل منحت هذا الجنين حقنة مرض النوم أم لا؟!».

لم تستطع التذكر، وفي النهاية قررت ألا تخاطر بإعطائه جرعة ثانية، وتحركت باتجاه الزجاجة التالية.

بعد مرور اثنين وعشرين عامًا وثمانية أشهر وأربعة أيام سيموت مدير ناجح من سلالة ألفا سالب في موانزا - موانزا بمرض النوم؛ لتكون الإصابة الأولىٰ التي تحدث بهذا المرض منذ نصف قرن.

وتنهدت لينينا وهي تكمل عملها.

بعد ساعة في غرفة تبديل الثياب كانت فاني تعترض بحماسة:

«ولكن من السخافة أن تدعي نفسك لتلك الحالة، وبسبب ماذا؟ بسبب رجل! رجل واحد!».

«ولكنَّه الرجل الذي أريد».

«وكأنَّه لا يوجد الملايين غيره في الدنيا!».

«ولكنَّني لا أريدهم».

«وكيف تعرفين هذا قبل أن تجربي؟».

«قد جربت».

فسألت فاني وهي تهز كتفيها مستهينة: «ولكن كم جربت؟! واحد؟! اثنين؟!».

«عشرات؟!».

ثم هزت رأسها واستطردت: «ولكن لم يكن أيهم ذا بال!».

فوعظتها فاني: «عليك بالمثابرة».

لكن بدا واضحًا أن ثقتها في علاجها قد اهتزت!

«لا شيء يتحقق دون مثابرة».

«لكن في تلك الأثناء . . .».

«لا تفكري فيه».

«ليس الأمر بيدي».

«تناولي سوما إذن!».

«هذا ما أفعله».

«حسنًا . . . فلتستمري!».

«ولكن في فترات الإفاقة بين الجرعة والأخرىٰ أجدني أميل إليه! ولسوف يستمر هذا الشعور دائمًا!».

فقالت فاني حازمة: «إذا كان هذا هو حقيقة الحال؛ فلِمَ لا تذهبين إليه وتحصلين عليه، سواء أراد، أم لم يرد؟!».

«ولكن لو تعلمين كم هو غريب الطباع!».

«هذا أدعىٰ للحزم».

«ما أسهل القول!».

«فقط لا تتحملي أي هراء منه، وبادري بالفعل».

كان صوت فاني رنانًا كالبوق وكأنها تحاضر مراهقًا من سلالة بيتا سالب!

«نعم؛ بادري علىٰ الفور، الآن!».

قالت لينينا: «أشعر بالخوف».

«كل ما تحتاجيه هو تناول نصف جرام من سوما أولًا، والآن سأذهب لأستحم».

وغادرت وهي تسحب وراءها منشفتها.

انطلق الجرس، فقفز البدائي الذي كان ينتظر آملًا زيارة هيلمهولتز بعد الظهيرة بفارغ الصبر (حيث إنَّه قد حزم أمره علىٰ مصارحة هيلمهولتز بأمر لينينا، ولم يعد يحتمل البقاء صامتًا للحظة أخرىٰ).

وهرع إلىٰ الباب يفتحه وهو يهتف: «كان لدي إحساس أنَّك ستأتي الآن يا هيلمهولتز».

ليجد علىٰ عتبة الباب لينينا واقفة في رداء يشبه زي البحارة من الحرير الصناعي الأبيض، وقد ارتدت قبعة بيضاء مستديرة أمالتها بأناقة ناحية أذنها اليسرىٰ!

«أوه!».

نطقها البدائي، وكأنَّما عاجله أحدهم بضربة ثقيلة.

كان نصف جرام من سوما كافيًا؛ لتنسىٰ لينينا مخاوفها وارتباكها، فقالت مبتسمة: «مرحبًا يا جون!».

وتجاوزته إلىٰ داخل الغرفة، فأغلق الباب وتبعها بحركة آلية، جلست لينينا وتبع ذلك صمت طويل، قبل أن تقطعه قائلة: «لا تبدو سعيدًا لرؤيتي».

نظر إليها البدائي معاتبًا: «لست سعيدًا؟!».

ثم فجأة خر علىٰ ركبتيه أمامها وتناول يدها ليقبلها بإجلال.

«لست سعيدًا؟!

آهٍ! لو تعلمين!».

وتجرأ علىٰ رفع عينيه إلىٰ وجهها مستطردًا: «يا لينينا المحبوبة، يا أعز ما في الوجود!».

فابتسمت له ابتسامة حلوة حنونة: «آوه، كم أنت بديع!».

ومالت نحوه وقد انفرجت شفتاها . . .

«بديع ولا مثيل لك».

واقتربت أكثر وأكثر . . .

«لقد أخذتَ من كل مخلوق أفضل ما فيه».

ولا زالت تقترب؛ لتفاجأ بالبدائي يهب واقفًا، ويقول لها وهو مشيح بوجهه: «لذلك: أردت أن أقوم بعمل شيء أولًا . . . أعني: أن أثبت جدارتي واستحقاقي لك، وهذا مطلب مستحيل المنال، ولكن ما طمعت فيه هو أن أثبت أنَّني لست عديم الجدارة في المطلق؛ لذا: أردت أن أقوم بشيء ما».

بدأت لينينا تقول: «ولماذا تظنُّ أنَّه يجب عليك . . .».

ولكنَّها تركت جملتها دون إنهاء، كان يتخلل نبرة صوتها شيء من الحنق، فعندما يميل الشخص إلىٰ الأمام رويدًا رويدًا بشفاه داعية؛ ليجد نفسه كالأخرق مائلًا نحو لا شيء؛ فإنَّ هذا يكون مدعاة حقيقية للحنق حتىٰ مع وجود نصف جرام من سوما تسبح في عروقه.

كان البدائي يغمغم دون ترابط: «في المالبيز يكون عليك إمَّا أن تحضر لها جلد أسد جبلي -أعني: عندما تريد الزواج من شخص ما- وإمَّا جلد ذئب».

فردت لينينا ببعض الحدة: «ليس هناك أسود في انجلترا».

فقال البدائي بغتةً باستياء مزدرٍ: «وحتىٰ لو كان هناك، سيقوم الناس بقتلهم من المروحيات علىٰ ما أظنُّ باستخدام غاز

سام أو شيء مماثل. ولكن ليست هذه طريقتي يا لينينا».

وأرجع كتفيه للوراء، ثم استرق النظر إليها لتقابله نظرة عدم فهم محنقة.

ازداد ارتباكه واستمر في دمدمته وقد ازداد حديثه غموضًا: «(سأفعل أي شيء، أي شيء تطلبينه، هناك بعض الرياضات الشاقة المؤلمة، ولكنَّها مشقة عذبة، أعني: أنَّني قد أكنس الأرضيات إذا ما طلبت».

ردت لينينا بحيرة: «لن يكون هذا ضروريًّا فنحن نملك مكانس كهربية هنا».

«نعم؛ ليس ضروريًّا بالطبع، ولكن تحمُّل بعض العمل الوضيع يحمل في طياته نبلًا، وأنا أريد أن أقوم بشيء نبيل، ألا ترين ذلك؟!».

«ولكن إذا كانت هناك مكانس كهربية . . .».

«ليس هذا هو المقصود».

«وهناك أفراد (إبسيلون) نصف معتوهين يقومون بتشغيلها، فلماذا إذن؟»

«لماذا؟! من أجلك يا لينينا، من أجلك، فقط لأبين لك أنَّني . . .».

«وما العلاقة بين الأسود والمكانس الكهربية بحق أي شيء؟!».

«لأبين لأي مدىً . . .».

«أو العلاقة بين الأسود وكونك سعيدًا برؤيتي؟».

كان حنقها في تزايد!

قال في استماتة: «لأنَّه يظهر مدىٰ حبي لك يا لينينا».

اندفعت الدماء إلىٰ وجه لينينا علامةً علىٰ زهوها وغبطتها الداخلية المشدوهة: «أحقًّا تعني هذا يا جون؟!».

هتف البدائي وهو يضغط بيديه علىٰ بعضهما معذَبًا: «لكنَّني لم أقصد أن أصرح عن ذلك. ليس قبل أن ... استمعي إلي يا لينينا، في الماليبز يقوم الناس بالزواج».

عاد الحنق يتسلل إلىٰ نبرة صوتها مجددًا: «يقومون بماذا؟!».

وفكرت في نفسها ما الذي يتحدث عنه الآن؟

«للأبد، إنَّهم يعدون بعضهم البعض بالعيش معًا إلىٰ الأبد».

أصيبت لينينا بصدمة حقيقية: «ما أفظعها من فكرة!».

«تجاوز الجمال السطحي إلىٰ العقل الذي تتجدد زينته بأسرع ممَّا يتهالك الجسد»[١].

«ماذا؟!».

«هكذا الأمر في عالم شكسبير أيضا، «إذا ما استحللتها بكرًا بموجب الطقوس الإلهية المقدسة، وبالمراسم المكرسة» ...»[٢].

---

(١) «مسرحية ترويلوس وكريسيدا»، لشكسبير.

(٢) «مسرحية العاصفة»، لشكسبير.

«بحق فورد يا جون! تحدث حديثًا ذا معنىٰ. أنا لا أفهم أيًّا ممَّا قلت، في البداية تهذي عن المكانس الكهربية ثم عن البكارة. إنَّك ستصيبني بالجنون!».

وهبت واقفة! وكأنَّما خشيت أن يفر منها ببدنه كما شرد عنها بفكره، فقبضت علىٰ رسغه قائلة: «أجبني عن هذا السؤال: هل أعجبك حقًّا أم لا؟!».

كانت هناك لحظة صمت، ثم في صوت خافت أجابها: «إنَّني أحبك أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم».

فهتفت: «إذن؛ لماذا لم تقل ذلك بحقك بدلًا من ترهاتك عن المكانس والبكارة والأسود وجعلي بائسة لأسابيع عديدة؟».

كان حنقها عظيمًا، حتىٰ إنَّها غرست أظافرها الحادة في رسغه، ثم أطلقت يده وألقتها بعيدًا غاضبة.

«لولا أنَّك تعجبني كثيرًا لغضبت منك غضبًا شديدًا!».

ثم أحاطت عنقه بذراعيها بغتةً، وشعر بشفتيها الناعمتين تلمس شفتيه، كانت شفتاها الشهية في غاية النعومة والدفء والعذوبة، وشعر وكأنَّما تيارًا كهربيًّا قد سرىٰ في جسده، حتىٰ إنَّه لم يملك أن يستدعي مشاهد العناق في فيلم (ثلاثة أسابيع في مروحية) . . . أواه! تلك الشقراء المجسمة، والزنجي الذي بدا حقيقيًا تمامًا، يا للشناعة! يا للشناعة! حاول أن يحرر نفسه من عناقها؛ لكن لينينا أحكمت ذراعيها حوله.

وهمست: «لماذا لم تخبرني؟!».

تراجع رأسها للوراء قليلًا لتتمكن من النظر إليه بعينين تحملان عتابًا حنونًا.

«إنَّ أكثر الأوكار عتمة ومواتاة، وأقوىٰ وسوسة يمكن أن يقوم بها أسوأ الشياطين لن تستطيع أن تذهب بشرفي تحت وطأة الشهوة أبدًا»[1]. كان يتحدث بتصميم، وكأنَّه صوت الضمير الهادر بهذه اللغة الشعرية.

وقالت: «يالك من صبي أحمق! لقد أردتك بشدة، وإذا كنت ترغبني بدورك فلماذا إذن لم . . . ؟!».

بدأ معترضًا: «ولكن يا لينينا . . . !».

شعر بها ترخي ذراعيها وتتراجع خطوة، فظنَّ لوهلة أنَّها وعت تلميحه غير الملفوظ، ولكنَّه عندما رآها تفك نطاقها الأبيض وتعلقه بحرص علىٰ مسند المقعد بدأ يشك في كونه مخطئًا.

فردد اسمها قلقًا: «لينينا!».

رفعت يدها إلىٰ عنقها، وشدت سحاب سترتها شدة رأسية طويلة، فتحت به قميصها الذي يشبه بزة البحارة حتىٰ الذيل، فتحول الشك إلىٰ يقين!

«لينينا ما هذا الذي تفعلينه؟!».

---

(١) «مسرحية العاصفة»، لشكسبير.

أجابته دون كلمات بشد سحاب ما تبقىٰ عليها من ثياب، فخلعت سروالها ذا الأرجل الواسعة، وكان ثوبها الداخلي المكون من قطعة واحدة وردي اللون، وقد تدلَّىٰ علىٰ صدرها رأس السحاب الذهبي المصاغ كحرف (T) الذي أهداه إيَّاها كبير منشدي كانتربري . . .

«تلك النهود المحملة باللبن ترنو إلىٰ عيون الرجال عبر قضبان النوافذ . . .».

كان الغناء الهادر بالكلمات الساحرة يجعلها تبدو أكثر خطورةً وفتنةً وإغواءً.

يا للنعومة النافذة التي تجرح في مقتل، تُنقِّب وتحفر وتهدم في أساس العقل والمنطق، تصنع لها نفقًا تجتاز من خلاله كل عزم وصمود!

«وما أغلظ الأيمان؛ إلَّا كالهشيم أمام النار التي تسري في الدماء، فلتكن أكثر اعتدالًا وإلَّا . . .».

سحبة أخرىٰ ونفر التكوين الوردي كتفاحة قسمت نصفين. تلوَّت الذراعان، وارتفعت ساق بعد الأخرىٰ؛ ليرقد بعدها الثوب الداخلي المكون من قطعة واحدة علىٰ الأرض كجسم فُرِّغ من الحياة.

وتقدمت نحوه وهي لا تزال ترتدي حذاءها وجوربها وقبعتها المستديرة البيضاء المائلة بأناقة علىٰ جانب، ومدت ذراعيها قائلة: «أيها الحبيب! لو أنَّكَ أخبرتني قبلًا».

ولكن بدلًا من أن يبادلها البدائي نداءها بنداء المُحبِّ، ويقابل ذراعيها الداعيتين بعناق؛ إذا به يتراجع إلىٰ الوراء مرعوبًا، ويلوح بيديه في وجهها كأنَّما يحاول أن يبعد عنه حيوانًا خطيرًا متطفلًا، وتراجع أربع خطوات حتىٰ أوقف الحائط فراره.

«يا محبوبي!».

وألصقت نفسها به واضعة يديها علىٰ كتفيه آمرة: «طوقني بذراعيك. عانقني حتىٰ أثمل يا حبيبي».

كان في جعبتها شيء من الشعر بدورها، وكان لديها من الكلمات المتراقصة علىٰ شفتيها ما يسحر، ويزيد دقات القلب كالطبول.

أغلقت عينيها وسألته بصوت ناعس أن يقبلها: «قبِّلني حتىٰ أغيب عن العالم، وضُمَّني إليك بقوة أيُّها الحبيب ...».

لكن البدائي قبض علىٰ رسغيها وانتزع يديها من علىٰ كتفيه، ودفعها بخشونة بعيدًا عنه قيد ذراع.

فتأوهت: «آي! إنَّك تُؤلمني ... إنَّك ... أوه!».

صمتت لينينا بغتة، وقد أنساها الرعبُ الألم، فقد فتحت عينيها علىٰ وجه غريب ضارٍ، كان وجهه شاحبًا مشوهًا ملتويًا بسورة عارمة غير مبررة ...

وبحيرة مذعورة سألته لينينا هامسة: «ولكن يا جون ماذا دهاك؟!».

لم يجبها، واكتفىٰ بالتحديق في وجهها بتلك النظرة الجامحة!

كانت اليدان القابضتان علىٰ رسغيها ترتعشان، وكان تنفسه مضطربًا ثقيلًا، ولذعرها سمعت الصوت الخافت الذي لا يكاد يبين لصرير أسنانه وهي تصطك ببعضها، فكررت صارخة: «ما الخطب؟!».

وكأنَّما أفاق علىٰ صرختها، فأمسك بكتفيها يهزها هزًا عنيفًا صائحًا: «بغيٌّ! ما أنت إلَّا بغي، فاجرة متهتكة».

اعترضت بصوت مرتجف راجع إلىٰ استمرار خضها: «اوه! لا ... لا تفعل».

«فاجرة!».

قالت بصوت متهدج: «أرجوك».

«فاجرة لعينة!».

بدأت تنصحه بإحدىٰ العبارات المأثورة بنفس الصوت المرتعش: «جرام أفضل من ...».

لم يمهلها البدائي ودفعها عنه دفعة قوية ممَّا جعلها تترنح ثم تقع أرضًا، ووقف فوقها مهددًا وقد جمع قبضتيه وصاح: «اذهبي! اغربي عن وجهي؛ وإلَّا قتلتك».

فرفعت لينينا ذراعها تحمي به وجهها وتوسلت: «لا يا جون أرجوك لا تفعل».

«هلمي وأسرعي إذن».

تعثرت في نهوضها بذراع واحدة بينما كانت الأخرىٰ لا تزال مرفوعة تحمي الوجه وعيناها الفرقتان لا تفارق حركاته وسكناته، ثم هرولت وهي لا تزال منحنية تحمي رأسها بذراعها إلىٰ الحمام.

وانطلق صوت الصفعة الهائلة التي عجلت بهروبها كالطلقة فشهقت، واندفعت للأمام.

بعدما أحكمت إغلاق الباب كانت لديها الفرصة لتتفحص إصابتها علىٰ مهل، فوقفت وظهرها للمرآة ولوت عنقها لتنظر من فوق كتفها الأيسر لترىٰ وسمة كف مطبوعة باللون القرمزي علىٰ البشرة البيضاء البضة، أخذت تدلكها برفق.

في حين أخذ البدائي في الخارج يقطع الغرفة جيئَة وذهابًا علىٰ أنغام طبول وموسيقىٰ الكلمات السحرية: «طائر النمنمة ينشئ صغارًا، والطير الذهبي الصغير يفسق أمام عيني»[1].

دوَّت الكلمات في ذهنه حتىٰ كادت تدفعه للجنون.

«لا يملك ابن عرس، أو فحل الخيل شهوة معربدة أكثر من تلك. تلك المخلوقات التي تبدو من تحت الخصر كالقنطورس أمَّا ما يعلو ذلك فشكل امرأة، إنَّ ما يعلو النطاق قد ورثته الآلهة، أمَّا ما أدنىٰ ذلك؛ فينتمي للشيطان، حيث الجحيم والظلام، وحفرة الكبريت الحارقة، والنتن والهلاك.

تبًّا! وسحقًا! يا للألم!

---

(١) «مسرحية الملك لير»، لشكسبير.

فلتعطني أوقية من الزباد[١] أيها الصيدلي الطيب عله يطيِّب خيالي»[٢].

وانبعث علىٰ حذر من الحمام صوت خافت مستعطف مناديًا:

«جون! ... جون!».

«تلك العشبة الضارة التي تبدو كأجمل الزهر ناعمة بيضاء رقراقة تفوح بأطيب العطر، ترىٰ أخُلق هذا الكتاب الطيب ليخط فيه كلمة فاسقة؟!»[٣].

لكن عطرها ما زال يحتويه، وقد ابيضَّ لون ردائه من المسحوق المعطر الذي نثرته علىٰ بشرتها المخملية، فأخذ يردد لنفسه كالمنشد: «فاجرة متهتكة ... فاجرة متهتكة ... فاجرة متهتكة ... فاجرة ...».

حتىٰ غلب الإيقاع العنيد نفسه.

«جون هل تسمح لي أن استعيد ثيابي؟!».

التقط ثيابها وأمرها وهو يركل الباب: «افتحي».

أتاه صوتها خائفًا ومتحديًا في آنٍ: «لا، لن أفعل».

«كيف تتوقعين أن أعطيكِ الثياب إذن؟!».

«ادفعهم عبر فتحة التهوية التي بأعلىٰ الباب».

---

(١) طِيبٌ تُفرزه بعض غدد حيوان (سِنَّوْرِ الزَّبَاد).

(٢) «مسرحية الملك لير»، لشكسبير.

(٣) «مسرحية عطيل»، لشكسبير.

فعل كما اقترحت؛ ليعود إلىٰ رواحه وغدوه المضطرب!

«إنَّ إغواء الشيطان يدغدغ بإصبعه كشق البطاطا وردفه السمين . . .»[1].

«جون!».

لم يجبها!

«إصبع البطاطا والردف السمين».

«جون!».

سأل بفظاظة: «ما الأمر؟!».

«ترىٰ أيمكنك أن تناولني حزامي المالتوسي؟!».

جلست لينينا تتسمع الخطوات الآتية من الحجرة الأخرىٰ متسائلة كم سيمر من الوقت قبل أن يكف عن ذرع الغرفة جيئة وذهابًا بهذا الشكل، وما إذا كان عليها الانتظار حتىٰ يغادر المسكن، أم هل سيكون التسلل خارج الحمام والعدو إلىٰ باب الشقة آمنًا بعد أن تنتظر وقتًا كافيًا لتسكن حدة سورته؟

قاطع رنين الهاتف تأملاتها القلقة لينقطع المسير الغاضب بغتة، ويتبادل علىٰ سمعها صوت البدائي، والصمت الآتي من الطرف الآخر من المحادثة.

«مرحبًا!».

---

(١) «مسرحية ترپلوس وكريسيدا»، لشكسبير.

«نعم».

. . . . .

«إن لم أكن قد اغتصبتُ هذه الكينونة فنعم ذاك أنا»[1].

. . . . .

«نعم؛ ألم تسمعني أقول هذا، معك السيد سافادج».

. . . . .

«ماذا؟ من الذي أصيب بالمرض؟ بالطبع الأمر يهمني».

. . . . .

«لكن هل الأمر خطير؟ هل حالتها سيئة؟ سأذهب على الفور».

. . . . .

«لم تعد تقيم في غرفها؟ أين أخذوها؟».

. . . . .

«يا إلهي! ما العنوان؟!».

. . . . .

«ثلاثة بارك لين؟ هل هذا هو الرقم؟ ثلاثة؟ شكرًا لك».

---

(١) «مسرحية الليلة الثانية عشرة»، لشكسبير.

سمعت لينينا صوت وضع السماعة، ثم وقع خطوات مسرعة، وصفق الباب، أتبعه صمت.

هل غادر حقًّا؟!

بحذر بالغ واحترازات متعددة فتحت الباب ربع بوصة وتلصصت من شقه، وتشجعت عندما لم تجد أحدًا، ففتحت الباب أكثر ومدت رأسها خارجه، ثم في النهاية تسللت علىٰ أطراف أصابعها إلىٰ داخل الغرفة، لتقف ساكنة لبضع ثوانٍ بقلب خافق بقوة تتسمع، قبل أن تندفع إلىٰ الباب الخارجي لتفتحه، وتنفلت هاربة صافقة إياه.

ولم تشعر بالأمان حتىٰ بدأ المصعد في التحرك.

الفصل الرابع عشر

كان مستشفىٰ بارك لين للمحتضرين برجًا من ستين طابقًا من القرميد الأصفر الشاحب، خطا البدائي خارج مركبة الأجرة الطائرة لتستقبله قافلة مركبات جوية زاهية الألوان لنقل الموتىٰ تقلع من السطح وتنطلق تجاه المنتزة جهة الغرب، قاصدة محرقة سلو. وعند أبواب المصعد أعطاه رئيس الحراس المعلومات المطلوبة، وذهب إلىٰ القسم (رقم ٨١)، وهو قسم المصابين بتسارع الشيخوخة كما أخبره الحارس ويقع في الطابق السابع عشر.

كانت الغرفة واسعة بهيجة مشرقة بأشعة الشمس وبلون الطلاء الأصفر، وتحتوي علىٰ عشرين من الأسرَّة جميعها مشغول، كانت ليندا تحتضر وسط صحبة تحوط بها كل وسائل الراحة الحديثة، وكان الجو ينبض بموسيقىٰ آلية مرحة لا تنقطع، بينما يقبع عند رأس كل فراش يشغله محتضر تلفاز يواجهه مباشرة، يترك مفتوحًا من الصباح حتىٰ المساء، وكذلك صنبور الروائح كانت تتغير رائحته التي تعبق الغرفة آليًّا كل ربع الساعة.

وفسرت ذلك الممرضة التي تولَّت قياد البدائي منذ خطوه داخل الباب قائلة: «إنَّنا نحاول خلق جو لطيف تمامًا، شيئًا يشبه

فندق من فنادق الدرجة الأولىٰ، أو قصرًا كالقصور التي تظهر في الأفلام الحسية إذا فهمت ما أعنيه».

سألها البدائي متجاهلًا تفسيراتها المهذبة: «أين هي؟!».

استاءت الممرضة وقالت مستنكرة: «إنَّك علىٰ عجلة من أمرك».

سألها: «أثمة أمل؟!».

«أتعني: في عدم موتها؟!».

فأومأ برأسه.

«كلَّا بالطبع، ليس ثمة أمل، عندما يرسَل شخص ما إلينا؛ فهذا يعني: أنَّه ليس هناك . . .».

قطعت كلامها بغتة مبهوتة من تعبير الكرب علىٰ وجهه الشاحب، وسألت: «ما بك؟! ما الخطب؟!».

لم تكن معتادة علىٰ مثل ردة الفعل تلك من الزوار (لا يعني ذلك أنَّ هناك الكثير من الزوار علىٰ أيه حال، أو أنَّه يوجد سبب يبرر وجود الكثير منهم).

«إنَّك لا تشعر بالإعياء أليس كذلك؟».

هز رأسه وقال مفسرًا في صوت لا يكاد يجاوز الهمس: «إنَّها أمي!».

جفلت الممرضة وتطلعت إليه بعينين مبهوتتين، ثم نظرت بعيدًا علىٰ الفور، وقد احتقنت من عنقها حتىٰ مفرق شعرها بلون أحمرٍ قانٍ.

قال البدائي في صوت جاهد أن يجعله طبيعيًا: «أرشديني إليها».

تقدَّمت الطريق عبر القسم، وهي لا تزال متوردة البشرة، والتفتت إليه وجوه المقيمين حيث عبرا، وجوه لازالت نضرة وغير مغضنة (فالشيخوخة تهرول في طريقها مسرعة، حتىٰ إنَّها لا تجد وقتًا لتحفر أعراض الزمن علىٰ الوجه، فتكتفي بأثرها علىٰ القلب والعقل).

وتابعت العيون الخاوية غير المهتمة في طفولتها الثانية تقدمهما، فارتعد البدائي من تلك النظرات.

كانت ليندا ترقد في آخر فراش في صف طويل من الأسرة قرب الحائط، وكانت تشاهد إعادة صامتة لمباراة نصف النهائي في بطولة تنس سطح رايمان بأمريكا الجنوبية المنبعثة من شاشة التلفاز المعلق في مؤخرة الفراش، واندفعت الأجسام الضئيلة تجري هنا وهناك في الملعب الزجاجي المضاء بلا صوت كأسماك في حوض زجاجي عملاق، كمخلوقات صامتة وإن كانت تجيش بالحركة تسكن عالمًا آخر.

رفعت ليندا ناظريها إليهما، وقد ابتسمت ابتسامة غير واعية تتناسب مع النظرة الخاوية في عينيها، وبدا علىٰ وجهها الشاحب المنتفخ تعبيرًا من السعادة البلهاء، بينما كانت جفونها تسقط بين الفينة والأخرىٰ، ولثوانٍ تبدو وكأنَّما استسلمت لإغفاءة خفيفة، قبل أن تجفل وتستيقظ مرة أخرىٰ، تستيقظ لتتابع طرائف حوض

الأسماك في بطولة التنس، أو النسخة المعدلة؛ لتناسب الموسيقىٰ الآلية من أغنية (**عانقني حتىٰ أثمل يا حبيبي**).

أو تشم العطر الحار القادم من فتحة التهوية فوق رأسها، إنَّها تستيقظ علىٰ أي من هذه الأشياء، أو بالأحرىٰ علىٰ حلم تكون فيه تلك الأشياء عناصره الرائعة الأكثر رونقًا، نتيجة تأثير عقار سوما الذي يسبح في عروقها؛ لتبتسم ابتسامتها الخابية الواهنة التي تحمل رضًا طفوليًّا.

قالت الممرضة: «حسنًا! عليَّ الذهاب، فهناك دفعة قادمة من أطفالي، كما أن رقم ثلاثة -وأشارت إلىٰ أقصىٰ القسم- قد يذهب في أي لحظة الآن، حسنًا؛ كن علىٰ راحتك».

وغادرت بخطوات نشيطة.

جلس البدائي قرب الفراش، وهمس باسم ليندا وهو يتناول يدها في راحته.

التفتت ليندا عند سماعها اسمها، ولمع في عينيها بريق الإدراك، فضغطت علىٰ يده، وابتسمت محركة شفتيها، ثم سقط رأسها علىٰ صدرها بغتة وقد استغرقت في النوم.

جلس يراقبها، ويبحث في طيات وجهها المرهق عن ذاك الوجه الشاب النضر، الذي طالعه في طفولته في المالبيز، حتىٰ وجده، وأغمض عينيه متذكرًا صوتها وحركاتها وسكناتها، وكل أحداث حياتهما معًا، وتذكر أغاني المهد التي كانت تهدهده بها في طفولته الأولىٰ.

كم كان صوتها حلوًا!

ويا لسحر وغموض أناشيد الطفوله تلك!

(أ، ب، سي، فيتامين دي، الدهن في الكبد والقد في اليم).

شعر بالدموع تطفر من عينيه وراء جفونه المغلقة، عندما استرجع الكلمات وصوت ليندا تشدو بها له، ثم دروس القراءة: «الهررة علىٰ الفرش والصغار في القدور». والتعليمات الأولية لعاملي بيتا في متجر الأجنة، والأمسيات الطويلة أمام نيران المدفأة، أو علىٰ سطح البيت الصغير في الليالي الصيفية عندما كانت تقص عليه حكايات عن ذلك المكان الآخر الذي يقبع خارج المحمية، ذلك المكان الباهر، الذي تبدو ذكراه كأنها الجنة، جنة الفضيلة والجمال، كان لا يزال علىٰ ما هو عليه سليمًا معافًا، لم يدنسه الاحتكاك مع لندن الحقيقية بواقعها الأقل مثالية، برجالها ونسائها المتحضرين.

طرق سمعه جلبة مفاجئة من أصوات عالية مزعجة ففتح عينيه، وبعد أن مسح دموعه سريعًا التفت إلىٰ مصدر الضوضاء؛ ليظهر له ما بدا كسيل لا نهاية له من توائم متطابقة من الأولاد في عمر الثامنة يتدفقون إلىٰ الغرفة، ظلوا ينسابون توأمًا بعد الآخر كالكابوس.

وقد أطلت من وجوههم -أو من وجههم، حيث إنَّ الجمع لم يحمل إلَّا وجهًا واحدًا مكررًا- نظرة محدقة بلا نهاية بعيونهم الفاتحة، كان زيهم كاكي اللون، وكانوا فاغري الأفواه بلا استثناء،

ودلفوا إلىٰ الغرفة وهم يثرثرون ويصيحون، وفي لحظة بدا القسم، وكأنَّما يشغي بهم كالنغف.

وانتشروا بين الأسرة يتسلقونها ويزحفون من تحتها ويتلصصون علىٰ أجهزة التلفاز، ويشاكسون المرضىٰ بتعبيرات وجوههم. وقد أذهلتهم ليندا وربما أصابتهم بشيء من الفزع، والتف حول فراشها ثلة منهم يتطلعون إليها، وفي عيونهم نظرة الحيوانات العجماوات الفضولية المتهيبة، التي تواجه المجهول لأول مرة.

تحدثوا بأصوات خفيضة متهيبة: «انظروا! انظروا! ما خطبها؟ لماذا هي بدينة هكذا؟».

وحقت لهم الدهشة فهم لم يروا وجهًا كوجهها من قبل؛ وجه لا يحمل نضارة الشباب، وجسدًا لم يعد رشيقًا ومعتدلًا، إنَّ كل هذه المحتضرات ممَّن تعدوا الستين يملكن مظهر الفتيات الصغيرات، أمَّا ليندا؛ فتبدو بالمقارنة -وهي في الرابعة والأربعين- كوحش عجوز مترهل ومشوه.

وجاءت التعليقات الهامسة: «ألا تبدو بشعة؟ انظروا إلىٰ أسنانها!».

فجأة قفز أحد التوائم الذي يبدو وجهه كوجه كلب البج من تحت الفراش واحتل المكان بين مقعد جون والحائط؛ ليتفرس في وجه ليندا النائم، وشرع قائلًا: «إنَّني أقول . . .». لكن كلامه قُطع بغتة بصياحه، فقد قبض البدائي علىٰ ياقته وجذبه جذبة شديدة رفعه

بها من فوق المقعد، وبقرصة شديدة لأذنه أرسله مولولًا.

جلب عواؤه رئيسة الممرضات إلىٰ القسم لإنقاذه، وسائلته معنفة: «ماذا فعلت به؟ لن أسمح لك بضرب الأطفال».

فأجابها البدائي وصوته يرتجف انفعالًا: «إذن أبعديهم عن هذا الفراش. وما الذي يفعله أولئك الصغار المزعجون القذرون هنا علىٰ أيه حال؟ هذا أمر شائن!».

«شائن؟! ولكن ما الذي تعنيه؟ إنَّهم يدرَبون علىٰ التكيف مع الموت».

واستطردت بلهجة لاذعة: «ودعني أخبرك: إنَّك إن تدخلت مرة أخرىٰ في تكييفهم، فسأرسل للحراس كي يلقوا بك خارجًا».

نهض البدائي علىٰ قدميه، وتقدَّم عدة خطوات منها، كانت حركاته والتعبير المرتسم علىٰ وجهه مُتوعدِين للدرجة التي جعلت الممرضة تتراجع في رعب، وبجهد جهيد تمالك البدائي نفسه وبدون أن ينبس بكلمة أخرىٰ أشاح عنها، وعاد إلىٰ مقعده بجانب الفراش.

عاد إلىٰ الممرضة اطمئنانها، فقالت بوقار -وإن تخلل نبرة صوتها صرير مزعج وخالطه شيء من التردد-: «قد أنذرتك! قد أنذرتك؛ فانتبه!».

إلَّا أنَّها قادت التوائم شديدي الفضول بعيدًا، وأشركتهم في

لعبة البحث عن السحاب، والتي نظمتها إحدىٰ زميلاتها في الطرف الآخر من الغرفة.

وقالت للممرضة الأخرىٰ: «انطلقي الآن لتناول محلول الكافايين خاصتك يا عزيزتي».

أعانتها إعادة ممارسة سلطتها علىٰ استرداد ثقتها ممَّا أشعرها بالراحة، وقالت: «هلمُّوا يا أطفال».

تقلقلت ليندا مضطربة، وفتحت عينيها للحظة تتطلع حولها بنظرة شاردة؛ لتقع بعدها مباشرة في النوم، كان البدائي الجالس بجوارها يحاول جاهدًا أن يستعيد مزاج الدقائق القليلة الماضية قبل مقاطعته، وأخذ يتمتم لنفسه: (أ، ب، سي، فيتامين دي . . .). كما لو كانت الكلمات تعويذة ستعيد الماضي إلىٰ الحياة، لكن التعويذة لم تكن ذات فعالية، ورفضت الذكريات الجميلة الظهور بعناد، ولم تبعث إلَّا مجموعة كريهة من ذكريات الغيرة والقبح والبؤس.

البابا والدماء تسيل من جرح كتفه؛ ونوم ليندا المروع، والذباب الذي يعف علىٰ شراب المسكال المسكوب علىٰ الأرض بجانب الفراش، والصبية يصيحون في وجه ليندا بألقاب كريهة عند مرورها . . .

آهٍ . . . كلَّا! كلا!

أغلق عينيه وهزَّ رأسه في إنكار مُضنٍ لتلك الذكريات، (أ، ب، سي، فيتامين دي . . .).

حاول أن يتذكر الأوقات التي كان يجلس فيها علىٰ ركبتيها بينما تحوطه بذراعيها، وتغني له مرارًا وتكرارًا، وهي تهدهده حتىٰ ينام (أ، ب، سي، فيتامين دي . . .، فيتامين دي . . .، فيتامين دي . . .).

تصاعد الغناء الملتاع الصادر من صندوق الموسيقىٰ الآلية في تعاظم تدريجي، بينما تغيَّرت رائحة العطر في نظام توزيع العطر الدوار إلىٰ رائحة البتشول الهندي النفاذة، وتقلقلت ليندا قبل أن تستيقظ وتحملق متعجبة لعدة ثوانٍ في المباراة الدائرة، ثم رفعت رأسها وتشممت الرائحة الجديدة مرة أو مرتين، ثم ابتسمت في جذل طفولي، ثم تمتمت باسم البابا وأغمضت عينيها، «نعم أحب هذا، أحبه كثيرًا . . .».

وتنهدت، ثم تركت رأسها يغوص في الوسادة.

هنا خاطبها البدائي متوسلًا: «لكن يا ليندا! ألا تعرفينني؟!».

لقد بذل جهدًا جهيدًا، وفعل ما بوسعه؛ فلِمَ لا تتركه ينسىٰ؟

اعتصر يدها المتراخية بشيء من القسوة، وكأنَّما ليجبرها علىٰ مغادرة حلم الملذات الدنيئة، والذكريات الخسيسة الكريهة إلىٰ الحاضر بواقعه؛ الحاضر المفزع والواقع القبيح، ومع ذلك؛ فهو سام وجليل، وفي غاية الأهمية، وذلك لدنو ذات السبب الذي يجعله مفزعًا.

«ألا تعرفينني يا ليندا؟!».

شعر بضغطة يدها الواهنة استجابةً لسؤاله، فطفرت الدموع في عينيه، ومال نحوها مقبلًا إيَّاها، فتحركت شفتاها مجددًا هامسة: «البابا!».

فشعر وكأنَّما قُذف في وجهه بسطل من القاذورات.

تفجر الغضب بداخله بغتةً، للمرة الثانية حيل بينه وبين إحساسه بالحزن، فتحول الانفعال المكبوت داخله من الحزن إلىٰ غضبة عارمة، وجعل يصرخ قائلًا: «ولكنني جون! جون!».

وفي ثورته البائسة وجد نفسه يمسك بكتفيها ويهزها.

ارتعش جفنا ليندا وانفتحا، فرأته وعرفته وهمست باسمه: «جون!».

ولكنها سكَّنَت وجهه ويديه العنيفتين الآتين من الواقع في عالم آخر خيالي يعبق ببديل داخلي خاص من رائحة البتشول، ونغمات الموسيقىٰ الآلية، بين الذكريات المُبَدَّلة والأحاسيس المعكوسة بغرابة، والتي تكون عالم أحلامها الخيالي.

كانت تدرك أنه جون، ابنها، ولكنَّها ظنته دخيلًا علىٰ نزهتها التي صنعتها أحلام السوما، حيث كانت تحلم بجنة المالبيز مع البابا، أمَّا غضبه فلتعلقها بالبابا، وهزه إيَّاها فلكون البابا يشاركها الفراش، وكأن هناك ما يسيء في ذلك! وكأنَّ هذا ليس ما يفعله كل الأناس المتحضرين.

«الكل ينتمي للجميع . . .».

فجأة خانها صوتها لينتهي إلىٰ حشرجة مكتومة، وانفرجت شفتاها، وجاهدت في محاولة يائسة لتأخذ شهيقًا تملأ به رئتيها بالهواء، ولكن بدا وكأنَّما نسيت كيف تتنفس، وعبثًا حاولت الصياح، فقط الرعب المطل من عينيها المحدقتين كان يشي بما تعانيه، وارتفعت يداها تحيط بحلقها، ثم نشبت أصابعها في الهواء، ذلك الهواء الذي لم تعد قادرة علىٰ استنشاقه، وكأنَّما كفَّ عن التواجد.

هب البدائي علىٰ قدميه وانحنىٰ عليها، «ما الخطب يا ليندا؟! ما الأمر؟!».

كان صوته متوسلًا، وكأنَّما يطلب منها طمأنته، لكن النظرة التي حدقته بها كانت مليئة برعب لا يوصف، ورأىٰ أيضًا ما بدا له كأنَّه اللوم.

وحاولت أن ترفع نفسها عن الفراش لتتهالك علىٰ وسادتها خائرة القوىٰ بوجه ملتوي القسمات بشكل مخيف وشفاه زرقاء اللون.

فالتفت البدائي وعدا إلىٰ أول القسم صارخًا: «أسرعوا! أسرعوا! أسرعوا!».

فالتفتت رئيسة الممرضات الواقفة وسط حلقة التوائم الذين يلعبون لعبة صيد السحاب، وسرعان ما تلاشىٰ تعبير الذهول من وجهها ليحل محله الاستهجان، وقالت مقطبة: «لا تَصِحْ مراعاةً للصغار، فقد تتسبب في إبطال التكيف . . . ، ولكن ما الذي تفعله؟!».

فقد اجتاز حلقة الأطفال، وصاح طفل: «احترس!».

ولكن لم يُبالِ وشد الممرضة من كم ردائها ساحبًا إياها خلفه هاتفًا: «أسرعي! أسرعي! لقد حدث خطب ما، لقد قتلتها».

وماتت ليندا في الوقت الذي استغرقهم للوصول إلىٰ نهاية القسم.

وقف البدائي مُسمَّرًا للحظة من الزمن قبل أن يجثو علىٰ ركبتيه منهارًا بجانب الفراش، ويدفن وجهه بين راحتيه ليجهش ببكاء حار.

وقفت الممرضة متحيرة تتطلع إلىٰ الشخص الجاثم بجانب الفراش (يا له من عرض فاضحٍ!).

والأطفال (يا للمساكين!) الذين توقفوا عن لعبة صيد السحاب محدقين في المشهد من آخر القسم، وقد اتسعت حدقاتهم ومناخرهم للمشهد الصادم الدائر حول (الفراش ٢٠)، وتفكَّرت أتحادثه وتحاول تذكيره بالتحلي بحس اللياقة والاحتشام وتذكره بالمكان الذي يوجد فيه، والضرر القاتل الذي قد يتسبب فيه لهؤلاء الصغار الأبرياء حينما يلغي كل تكييفهم النافع عن الموت بهذا الصراخ المثير للاشمئزاز؟

وكأن الموت شيئًا مروعًا!

وكأنَّما هناك شخص يستحق كل تلك الأهمية!

إنَّ هذا يمكنه أن يزرع في عقولهم البريئة أفكارًا كارثية عن

هذا الموضوع، وقد يصدمهم ويجعلهم يسلكون سلوكًا غير حميد معاديًا للمجتمع.

تقدَّمت خطوة للأمام ومسَّت كتفه مخاطبة إيَّاه بصوت خفيض غاضب: «ألا يمكنك أن تحسن التصرف؟!». ولكن بالالتفاف خلفها رأت نصف دزينة من الأطفال علىٰ الأقل ينهضون علىٰ أقدامهم ويتقدمون إلىٰ ناحيتهم من القسم، كانت حلقة الأطفال تتفكك، ولن يستغرق الأمر سوىٰ لحظات قليلة أخرىٰ و . . . كلَّا! إنَّها لمخاطرة كبيرة، هذا قد يؤدي لتدهور المجموعة لستة أو سبعة أشهر سابقة في مسار عملية تكيفهم، فهرعت عائدة إلىٰ مسئوليتها من الأطفال المهدَدين، وسألتهم بنبرة عالية مبتهجة: «والآن من الذي يرغب في قطعة من إكلير الشيكولاتة؟».

فصاحت مجموعة بوكانوفيسكي في صوت واحد: «أنا!».

وضرب الصفح عن (الفراش رقم ٢٠) تمامًا.

ظل البدائي يردد لنفسه بلا هوادة: «يا أيها الرب! يا أيها الرب! يا أيها الرب!»

كانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي لها معنىٰ في بلبلة الحزن والندم التي اجتاحت وجدانه: «يا أيها الرب!».

همس بها بصوت مسموع: «يا أيها الرب . . .!».

هنا سأل صوت قريب عالي النبرة وصل بوضوح متخطيًا الموجات الصادرة من صندوق الموسيقىٰ: «ما هذا الذي يقوله؟!»،

فجفل البدائي بعنف وكشف وجهه متلفتًا حوله، ليجد خمسة توائم يرتدون الزي الكاكي يحملون في أكفهم اليمنىٰ الدبقة أصابع الإكلير بينما تلطخت وجوههم المتطابقة بالشيكولاتة السائلة واقفين في صف يحملقون فيه.

قابلوا نظرته بابتسامة عريضة، وأشار أحدهم بطرف إصبع الإكلير سائلًا: «أهي ميتة؟!».

حدق فيهم البدائي للحظة صامتًا، قبل أن ينهض علىٰ قدميه ويتجه ببطء ناحية الباب وهو لا يزال علىٰ صمته.

تبعه التوأم الفضولي عدوًا، وهو يكرر سؤاله: «أهي ميتة؟!».

نظر البدائي إليه ودون أن يجيب دفعه عنه، ليسقط الطفل علىٰ الأرض ويبدأ علىٰ الفور في العواء، ومضىٰ البدائي دون أن ينظر خلفه.

الفصل الخامس عشر

كان فريق العاملين غير المتخصصين في مستشفىٰ بارك لين للمحتضرين يتكوَّن من مائة واثنين وستين فردًا من طبقة (دلتا) ينقسمون لمجموعتين من (مجموعات بوكانوفيسكي) تتكونان من: أربع وثمانين امرأة صهباء من التوائم، وثمانية وسبعين توأمًا من الذكور طوال الرأس بصورة واضحة.

وفي السادسة عندما تنتهي نوبة عملهم تتجمع المجموعتان في بهو المستشفىٰ ليوزع عليهم نائب أمين الصندوق جرعتهم من سوما.

لذا: عندما خطا البدائي خارج المصعد وجد نفسه وسطهم، لكن عقله كان في بعد آخر، مشغولًا بالموت، مستغرقًا في حزنه وندمه؛ لذا: تحرك آليًا دون وعي يشق طريقه وسط الجمع إلىٰ الخارج.

وانطلقت الصيحات والغمغمات المنزعجة: «من تدفع؟ أين تظن نفسك ذاهبًا؟!».

تتردد متكررة كانعكاسات لا تنتهي في مرايا متقابلة، فقط صوتين اثنتين يزمجرا أو يطلقا صوتًا كالصريف.

كان كل مَن التفت إليه غاضبًا يحمل فقط أحد وجهين؛ إمَّا أصهب مستدير أمرد به نمش أو نحيل أنفه كمنقار الطائر ذي لحية نابتة عمرها يومان.

أخيرًا: اخترقت كلماتهم ولكزاتهم الغاضبة وعيه الغائب بعيدًا؛ ليصحو مرة أخرىٰ علىٰ الواقع الخارجي، فتلفت حوله مستوعبًا ما يحدث، مستوعبًا إيَّاه بإحساس من الرعب والاشمئزاز المكتوم من الهذيان المتكرر المستمر لأيامه ولياليه، من ذلك الكابوس المكون من حشد متطابق لا يمكن تمييز أفراده، توائم، توائم . . . احتشدوا كالدود حول لغز موت ليندا، والآن دود آخر لكنَّه أكبر حجمًا وأكثر نضجًا يزحفون الآن متسللين متطفلين علىٰ حزنه وندمه.

توقف البدائي مبهوتًا، وبنظرة ذاهلة مذعورة تطلع إلىٰ الحشد المحيط به بلونه الكاكي، واقفًا وسطهم يعلو كتفه رؤوسهم!

«كم من مخلوقات طيبة وصلت إلىٰ هنا!».

كانت الكلمات الشاعرية تسخر منه متهكمة!

«ما أجمل جنس البشر أيُّها العالم الجديد الشجاع!».

وصاح صوت مرتفع النبرة: «توزيع السوما، فلننتظم من فضلكم، وأسرعوا إلىٰ ذاك الاتجاه».

وعلىٰ الفور انفتح باب، وحُملت طاولة ومقعد إلىٰ البهو، كان الصوت ينتمي لشاب مرح من طبقة (ألفا) الذي دخل حاملًا

خزانة حديدية سوداء اللون، فسَرَتْ غمغمة متلهفة من جمع التوائم المنتظر، ونسوا البدائي تمامًا، وتركزت كل حواسهم علىٰ الصندوق الأسود الذي وضعه الشاب علىٰ الطاولة وشرع يرفع غطاءه.

وانطلقت الآهات من مائة واثنين وستين دفعة واحدة، كما لو كانوا يشاهدون ألعابًا نارية.

التقط الشاب حفنة من الكبسولات وقال حازمًا: «والآن؛ تقدَّموا إلىٰ الأمام من فضلكم، الواحد بعد الآخر، دون تدافع».

واحدًا بعد الآخر، ودون تدافع؛ تقدَّم التوائم، اثنان من الذكور، ثم أنثىٰ، يليهم ذكر آخر، ثم ثلاث إناث، ثم . . .

وقف البدائي يمعن النظر!

«أيُّها العالم الجديد الشجاع! أيُّها العالم الجديد الشجاع!».

وبدت الكلمات المنشَدة تغير من إيقاعها في عقله. لكم هزئت منه تلك الكلمات في بؤسه وندمه، وتهكمت عليه بقسوة ساخرة، ضاحكة ضحكات شيطانية مصرة علىٰ الحفاظ علىٰ الدنس والقبح المقزز للكابوس.

والآن علىٰ حين غرة أَعلنت صيحة التعبئة: «أيُّها العالم الجديد الشجاع!».

كانت ميراندا تُعلن عن إمكانية الجمال، إمكانية تحويل حتىٰ الكابوس إلىٰ شيء جيد ونبيل.

كان «أيُّها العالم الجديد الشجاع!» صيحةَ تحدٍّ، كان أمرًا ومطلبًا.

صاح نائب أمين الصندوق ثائرًا: «لا تتدافعوا». وصفق غطاء الصندوق.

«لسوف أوقف التوزيع ما لم تحسنوا السلوك».

دمدمت مجموعة (الدلتا)، وتململت وتدافعوا بعض الشيء قبل أن يسكنوا، كان التهديد ناجعًا، فقد كان الحرمان من سوما فكرة مفزعة.

«نعم؛ هذا أفضل». قالها الشاب وهو يعيد فتح الخزانة.

كانت ليندا أمه، وقد ماتت؛ لكن علىٰ الآخرين أن يحيوا بحرية في عالم جميل. يجب أن يكون هناك إعداد، هذا أمرٌ واجب، وفجأة لاح للبدائي ما ينبغي عليه فعله، وكأنَّ حاجزًا قد رُفع، وانزاح ستار ثقيل.

قال نائب أمين الصندوق: «الآن». فتقدَّمت امرأة ترتدي الكاكي.

هنا صاح البدائي بصوت هادر رنان: «توقفوا! توقفوا!».

وشق طريقه إلىٰ الطاولة وسط نظرات الدلتا المندهشة.

وهتف نائب أمين الصندوق بصوت خفيض متوجسًا: «فورد! إنه البدائي».

وصاح البدائي بحرارة: «انصتوا إليَّ رجاءًا، أعيروني سمعكم».

لم يكن قد خاطب جمعًا قبل ذلك، وشق عليه التعبير عما يريد قوله: «لا تتناولوا تلك المادة الشنيعة، إنَّها سم، إنَّها سم».

قال نائب أمين الصندوق متبسمًا في تلطف: «دعني يا سيد سافدج إن لم تمانع . . .».

«إنَّها سم للروح كما هي سم للجسد».

«نعم؛ نعم؛ ولكن دعني أقوم بالتوزيع، يا لك من رفيق طيب».

وربت علىٰ ذراع البدائي بالرفق والحذر الذي يستخدمه من يقترب من حيوان معروف بشراسته!

«فقط دعني . . .».

صاح البدائي: «أبدًا!».

«ولكن انظر يا رجل . . .».

«ألق ذلك السم الشنيع بعيدًا».

اخترقت كلمة: «ألقه بعيدًا» الطبقات المتداخلة من البلادة ونفذت إلىٰ وعي أفراد دلتا المحتشدين فسرت همهمة غاضبة بينهم.

وقال البدائي وهو يلتفت إلىٰ التوائم: «لقد جئت أحمل لكم الحرية، جئت لـ . . .».

لم ينتظر نائب أمين الصندوق ليسمع ما تلا ذلك، بل انسل من الردهة ليبحث عن رقم هاتف في الدليل.

لخَّص برنارد الأمر قائلًا: «إنَّه ليس في حجراته، وليس عندي

ولا عندك، كما أنَّه لم يذهب إلىٰ نادي الأفروديت، وليس في مركز الكلية كذلك، فأين يمكن أن يكون؟».

هز هيلمهولتز كتفيه، كانا قد آبا من عملهما متوقعين أن يجدا البدائي منتظرًا إيَّاهما في إحدىٰ أماكن لقائهم المعتادة، ولكنَّهما لم يجدا أثرًا للفتىٰ، وهو ما أثار ضيقهما حيث أرادا الانطلاق إلىٰ بياريتز في مركبة هيلمهولتز الرياضية الطائرة ذات الأربعة مقاعد، ولسوف يتأخران عن موعد العشاء إن لم يأتِ قريبًا.

وقال هيلمهولتز: «لنمنحه خمس دقائق أخرىٰ، فإن لم يظهر بعدها فلنمضِ . . .».

قاطعه رنين الهاتف، فالتقط السماعة: «نعم؛ هذا أنا».

ثم بعد أن استمع لهنيهة سب قائلًا: «فورد في سيارة خردة! سوف آتي في الحال».

سأله برنارد: «ما الخطب؟».

أجابه هيلمهولتز: «أخبرني أحد معارفي يعمل في مستشفىٰ بارك لاين أنَّ البدائي هناك، ويبدو أنَّه أصيب بالجنون، علىٰ أي حال الأمر عاجل، أترافقني؟».

وهكذا هرع كلاهما في الرواق متجهين إلىٰ المصاعد.

كان أول ما سمعوه هو صوت البدائي وهو يقول: «هل تستطيبون العبودية إذن؟!».

كان وجهه محتقنًا وعيناه تلتمعان بالحماسة والسخط، وقاده

حنقه من غبائهم البهيمي إلىٰ إهانة أولئك الذين انبرىٰ لإنقاذهم مضيفًا: «هل يعجبكم أن تكونوا كالرضع؟ نعم كالرضع، تموءون وتتقيأون».

ولكن تلك الإهانات ارتدت عن درع الغباء الغليظ الذي يغلف عقولهم؛ فحملقوا فيه بنظرة خاوية تحمل استياءً باهتًا وعبوسًا بليدًا.

فكاد يصرخ: «نعم تقيئون!».

كانت أحاسيس الحزن والندم والشفقة والواجب قد طواهم النسيان تمامًا، حيث طغىٰ عليها شعور قوي بالكره الطاغي لتلك الوحوش شبه الآدمية.

«ألَا تودون أن تكونوا أحرارًا كالرجال؟ ألا تفهمون حتىٰ ماذا تعني الرجولة والحرية؟!».

أمده الغضب العارم ببلاغة جعلت الكلمات تتدفق إلىٰ فيه، وأعاد سؤالهم ولكن لم يجبه أحد، فاستطرد واجمًا: «حسنًا إذن. سوف أعلمكم أنا، ولسوف أجعلكم أحرارًا شئتم أم أبيتم»، ثم دفع مصراعي نافذة تطل علىٰ فناء المستشفىٰ، وبدأ يلقي أقراص السوما التي ملأ بها قبضته عبرها.

لوهلة ظلَّ الحشد الكاكي صامتًا متجمدًا مصدومًا يشاهدون ذلك التدنيس الوحشي بذهول مرتعب.

وهمس برنارد وقد اتسعت عيناه عن آخرهما: «إنَّه مجنون،

سوف يقتلونه، سوف . . .».

هنا انطلقت بغتة صرخة عظيمة من الحشد الذي تحرك في موجة هادرة اقتربت من البدائي مهددة، فقال برنارد وهو يشيح ببصره: «فلْيُعِنْهُ فورد».

أمَّا هيلمهولتز فرد بضحكة جذلة وهو يشق طريقه وسط الجموع: «يعين فورد أولئك الذين يعينون أنفسهم».

وصاح البدائي: «تحرروا! تحرروا!». بينما يقذف السوما بيد إلىٰ الباحة، وبالقبضة الأخرىٰ يلكم وجوه أقرب مهاجميه إليه يردهم عنه: «تحرروا!».

ثم فجأة وجد هيلمهولتز بجانبه، صديقه العزيز هيلمهولتز يضرب بجانبه، فصاح: «أخيرًا هناك رجال!».

وفي خلال ذلك استمر في إلقاء حفنات السم خارج النافذة المفتوحة هاتفًا «نعم رجال! رجال بحق!».

حتىٰ لم يبقَ من السم شيئًا، فالتقط الصندوق ليعرض أمامهم قاعه الأسود الفارغ قائلًا: «الآن تحررتم».

فزمجر حشد (الدلتا)، واشتدوا في الهجوم وقد ثارت ثائرتهم.

وتردد برنارد علىٰ حافة المعركة، وقال لنفسه: «لقد انتهىٰ أمرهم، سيقضون عليهم».

ودفعه وازعٌ خفي إلىٰ الاندفاع لمساعدتهم؛ لكنَّه عاود التفكير

فتوقف، ثم عاود التقدم حياءً؛ ليعود ويتوقَّف مرة أخرىٰ، ممعنًا في التفكير، هكذا ظلَّ في مكانه معذَبًا في حالة من التردد المزري يفكر أنَّهم ربما قُتلوا إن لم يمد لهم يد العون في حين أنَّه إن أعانهم، فربما قُتل هو الآخر، كان هذا حاله حين اندفعت -حمدًا لفورد!- قوات الشرطة في أقنعة الغاز بمناظيرها البارزة وأغطية الأنف التي تشبه خُطَم الخنازير.

وانطلق برنارد لملاقاتهم مُلوِّحًا بذراعيه، وقد ارتاح أخيرًا لقيامه بعمل ما، واستنجد صائحًا عدة مرات: «النجدة!». رافعًا صوته كل مرة عن سابقتها، كأنَّما ليعين نفسه علىٰ إيهامها بأنَّها تساعد.

«النجدة! النجدة! النجدة!».

دفعه رجال الشرطة مزيحين إيَّاه عن طريقهم؛ ليقوموا بعملهم، وضخ ثلاثة منهم سُحبًا كثيفة من أبخرة سوما يحملوها في آلات رش مثبتة علىٰ أكتافهم، بينما انشغل اثنان آخران بصندوق الموسيقىٰ الآلية المحمول، في حين اندفع أربعة آخرون يحملون مسدسات مائية عُبِّئَتْ بمخدر قوي وسط الحشد يطلقون أسلحتهم علىٰ أكثر المتقاتلين شراسة ليسقطوهم واحدًا بعد الآخر.

ولا يزال برنارد يصيح: «أسرعوا! أسرعوا! سوف يُقتلون إن لم تسرعوا، سوف .... آاه!».

كان أحد رجال الشرطة الذين أزعجهم صِياحه قد سدد إليه طلقة من مسدسه المائي، فترنح برنارد لثانية أو ثانيتين علىٰ رجلين

بدتا وكأنَّما فقدت عظامهما وأوتارهما وعضلاتهما؛ لتصبحا أقرب ما يكون إلىٰ قالبين من الهلام، ثم لم تعودا حتىٰ تحملان تماسك الهلام، بل أصبحتا إلىٰ الماء أقرب، فتهاوىٰ متكومًا علىٰ الأرض.

وانطلق بغتة من صندوق الموسيقىٰ الآلية صوت رجل يتحدث، صوت الحكمة، صوت الشعور الطيب.

كان التسجيل يفرغ نفسه آليًّا ليذهب إلىٰ الخطاب الآلي الثاني المضاد للشغب (متوسط القوة)، منطلقًا من أعماق قلب لا وجود له هتف الصوت: «أيها الأصدقاء! أيها الأصدقاء!».

كانت نبرة الصوت تمزق نياط القلب، وتحمل نبرة من العتاب الرفيق، حتىٰ إنَّ عيون رجال الشرطة قد ترقرقت بالدموع خلف الأقنعة الواقية!

«ماالذي يعنيه هذا؟ لماذا لستم سعداء وطيبين مع بعضكم البعض؟».

وكرر الصوت: «سعداء وطيبين».

ثم استطرد: «كونوا في سلام ... في سلام».

وتهدج الصوت وانخفض إلىٰ الهمس؛ ليخمد تمامًا مؤقتًا، قبل أن يرتفع مجددًا بإخلاص متلهف: «أوه! إنَّني أريد لكم السعادة جميعًا، كم أرغب في أن تكونوا طيبين، أرجوكم، أناشدكم أن تكونوا طيبين و ...».

مرت دقيقتان أحدثت فيها أبخرة السوما والخطاب أثرهما،

فشرع أفراد (دلتا) يعانقون ويقبلون بعضهم البعض، والدموع في مآقيهم، نصف دزينة من التوائم في المرة الواحدة في عناق جامع، حتىٰ هيلمهولتز والبدائي كادا يبكيان، وجيء بمؤنة جديدة من الكبسولات من الخزانة، ونُظم توزيع جديد علىٰ عجل، وعلىٰ نبرة الوداع العاطفي الحار للصوت الجهير انفرط عقد التوائم منتحبين كما لو كانت قلوبهم ستنفطر . . .

«إلىٰ اللقاء أيُّها الأعزاء، يا أعز الأصدقاء؛ فليحفظكم فورد، إلىٰ اللقاء أيُّها الأعزاء، يا أعز الأصدقاء، فليحفظكم فورد . . .».

وبذهاب آخر أفراد (دلتا) أغلق رجال الشرطة التيار الكهربي فسكت الصوت الملائكي.

وتساءل الرقيب: «هل ستأتي معنا في هدوء، أم ستضطرنا إلىٰ استخدام المخدر؟».

وأومأ بمسدسه المائي مهددًا.

فأجاب البدائي ويده تنتقل لتمسح برفق شفته المقطوعة تارة، وعنقه المخدوش تارة أخرىٰ، وكفه الأيسر المعضوض ثالثة: «أوه! بل سنأتي في هدوء».

بينما أومأ هيلمهولتز برأسه موافقًا، ويده تمسك بالمنديل علىٰ أنفه النازف.

أمَّا برنارد الذي استفاق واستعاد القدرة علىٰ استخدام ساقيه، فقد اختار هذه اللحظة ليتحرك بحذر نحو الباب محاولًا ألَّا يلفت

إليه الانتباه قدر المستطاع.

فناداه الرقيب: «يا هذا! عندك!».

وهرع شرطي يرتدي القناع الخنزيري عبر الغرفة؛ ليضع يده علىٰ كتف الشاب.

التفت برنارد وعلىٰ وجهه ارتسم تعبير البريء المحنق، الهرب؟ ذلك لم يخطر له علىٰ بال، **وقال للرقيب**: «رغم أنِّي لا استطيع تخيل ما الذي قد تريده مني؟».

«إنَّك صديق للسجين أليس كذلك؟».

هنا تردد برنارد: «حسنًا . . .».

لا . . . إنَّه صدقًا لا يستطيع الإنكار. فسأل: «وهل هناك ما يمنع؟».

قال الرقيب: «هلم إذن».

وقاد الطريق إلىٰ سيارة الشرطة المنتظرة خارجًا.

الفصل السادس عشر

كانت الغرفة التي اقتيد إليها ثلاثتهم هي غرفة المراقب.

وأخبرهم كبير الخدم الذي ينتمي لسلالة الجاما قبل أن يتركهم: «سوف ينزل المبجل باسم فورد بعد لحظات».

ضحك هيلمهولتز عاليًا، وقال: «هذا يبدو أشبه بحفلة من حفلات محلول الكافايين أكثر منها بالمحاكمة».

وترك نفسه يتهاوىٰ علىٰ أوثر المقاعد الهوائية، وأضاف وقد لمح وجه صديقه البائس المصفر: «ابتهج يا برنارد». ولكن برنارد رفض الابتهاج، ودون أن يجيبه، أو حتىٰ ينظر إليه اتجه إلىٰ أقل المقاعد راحة في الغرفة وكأنه باختياره إياه يتضرع للقوىٰ الأعلىٰ أن تقيه ثورتها.

في تلك الأثناء كان البدائي يتجول متململًا حول الغرفة متطلعًا بفضول سطحي غائم إلىٰ الكتب التي علىٰ الأرفف، ولفائف الموسيقىٰ، وبكرات ماكينة القراءة في عدد من صناديق الرسائل، وعلىٰ طاولة تحت النافذة وُضع مجلد ضخم ملفوف ببديل للجلد أسود اللون لينًا وقد ختم عليه بحرف (T) ذهبي اللون بشكل متكرر، فتناوله وفتحه، ليجد العنوان: حياتي وأعمالي، بقلم

المبجل فورد. كان الكتاب قد نشرته في ديترويت جمعية الدعاية للمعرفة الفوردية.

قلب بفتور في الصفحات، قارئًا جملة هنا وفقرة هناك، ليجد أن الكتاب لا يثير اهتمامه، في تلك اللحظة انفتح الباب ليسفر عن مراقب العالم المقيم لأوروبا الغربية، وهو يدلف إلىٰ الحجرة بخطوات نشطة.

صافح مصطفىٰ موند ثلاثتهم، ولكنَّه وجه حديثه إلىٰ البدائي قائلًا: «إذن؛ أنت لا تعجبك الحضارة كثيرًا يا سيد سافدج».

نظر البدائي إليه، وكان قد أعد نفسه للكذب، أو للتبجح والهذر، أو حتىٰ للتجهم وعدم الاستجابة؛ لكنه أمام الذكاء الفكه في وجه المراقب قرر أن يخبره بالحقيقة دون مواربة، فأومأ برأسه مجيبًا: «هذا صحيح! إنَّها لا تعجبني».

جفل برنارد، وبدا عليه الهلع، ترىٰ ماذا سيظن المراقب؟ أن يوسم كصديق للرجل الذي صرح بوضوح أنَّه لا تعجبه الحضارة وللمراقب نفسه دون الناس جميعًا! كان هذا مريعًا.

فشرع مستنكرًا: «لكن يا جون ...». لتسكته نظرة من مصطفىٰ موند هوت به إلىٰ صمت ذليل.

واستطرد البدائي معترفًا: «بالطبع هناك الكثير من الأشياء اللطيفة والرائعة، مثل كل تلك الموسيقىٰ الرائعة في الأثير ...».

«وفي بعض الأحيان يقرع أذنيَّ رنين آلاف الآلات، وفي

أحايين أخرىٰ تكون هناك أصوات»[١].

فأضاء وجه البدائي ببشر مباغت متسائلًا: «أقرأته أيضًا؟ ظننت لا أحد يدري شيئًا عن هذا الكتاب هنا في انجلترا».

«لا أحد تقريبًا، أنا واحد من قلة نادرة؛ لأنَّه محظور كما ترىٰ، ولكن بما أنَّني أصنع القوانين هنا فيمكنني كذلك خرقها، وذلك بالحصانة يا سيد ماركس -والتفت إلىٰ برنارد مضيفًا- تلك التي لا تملكها للأسف».

فغرق برنارد في مزيد من البؤس القانط.

وتساءل البدائي الذي نسي كل شيء آخر مؤقتًا في غمرة حماسه بمقابلة شخص قد قرأ لشكسبير: «لكن لماذا يُحظر؟».

هز المراقب كتفيه وأجاب: «لأنَّه قديم، هذا هو السبب الرئيس، ولا مكان للقديم هنا».

«وإن كان جميلًا؟».

«خاصَّةً لو كان جميلًا، فالجمال يجذب، ونحن لا نريد للناس أن ينجذبوا إلىٰ الأشياء القديمة، بل نريدهم أن يعجبوا بالجديد».

«ولكن الجديد في غاية السوء والبلادة، حيث تلك العروض التي لا توجد بها إلَّا مروحيات طائرة هنا وهناك، وحيث تشعر بقبلات الممثلين».

---

(١) «مسرحية العاصفة»، شكسبير.

والتوت ملامحه بتكشيرة، «ماعز وقردة»[1]!

فقط في كلمات عطيل أمكنه أن يجد وسيطًا بليغًا يحمل ازدراءه وكراهيته.

وتمتم المراقب عرضًا: «حيوانات أليفة لطيفة علىٰ أيه حال».

«لما لا تدعهم يرون عطيل بديلًا عن ذلك؟».

«لأنَّها قديمة كما أخبرتك، كما أنهم لن يفهموها».

نعم؛ كانت تلك هي الحقيقة، وتذكر كيف ضحك هيلمهولتز ساخرًا من روميو وجوليت، فقال بعد هنيهة: «حسنًا إذن، فليكن شيئًا جديدًا يمكنهم فهمه لكن علىٰ غرار عطيل».

هنا اشترك هيلمهولتز في الحديث قاطعًا صمته: «هذا ما كنا نرجو جميعًا أن نكتبه».

فرد المراقب: «وهو ما لن تكتبه أبدًا، وذلك لأنَّه لو كان حقًّا مثل عطيل فلن يفهمه أحد مهما بدا حديثًا، ولو كان علىٰ النسق الحديث فبالتأكيد لن يكون كعطيل».

«لم لا ؟».

وأعاد هيلمهولتز السؤال: «نعم؛ لم لا ؟».

وقد بدأ ينسىٰ هو أيضًا حقائق الموقف غير السارة، فلم يظلْ علىٰ انتباهه وتذكره إلَّا برنارد الذي كاد لونه الشاحب يميل

---

(١) «مسرحية عطيل»، شكسبير.

للاخضرار نتيجة قلقه ورهبته، لكن الآخرين تجاهلوه.

«لم لا ؟ لأنَّ عالمنا ليس كعالم عطيل، نحن لا نستطيع أن نصنع سيارات للاستهلاك دون الحديد الصلب، كذلك لا نستطيع صنع مآسي دون اضطرابات اجتماعية، لكن العالم مستقر الآن، والناس سعداء؛ يحصلون علىٰ ما يشتهون، ولا يتوقون لما لا يمكنهم نواله، فهم في رفاه؛ آمنين، لا يصيبهم مرض، ولا يخشون الموت، كما أنَّهم غُفْل عن كل عاطفة متقدة، منعمون بجهلهم بالشيخوخة، كما أنَّهم لم يرزءوا بوالدات ولا آباء، وليس لديهم زوجات، ولا أبناء، ولا عشاق لتضطرم عواطفهم تجاههم. لقد تم تكييفهم تمامًا، حتىٰ إنَّهم عمليًّا صاروا لا يملكون؛ إلَّا أن يسلكوا السلوك المرغوب منهم. وإن حدث خطب ما فلدينا سوما، تلك التي ألقيت بها من النافذة باسم الحرية يا سيد سافدج. الحرية!». وضحك. «أتتوقع من (سلالة دلتا) أن يعرفوا ما هي الحرية؟! والآن تنتظر منهم أن يفهموا عطيل يا فتاي الطيب!».

سكت البدائي هنيهة، ثم أصر معاندًا: «رغم ذلك يظل عطيل جيدًا، أفضل من تلك الأفلام الحسية».

وافقه المراقب: «بالطبع إنها كذلك، ولكنه الثمن الذي علينا دفعه في سبيل الاستقرار، فعليك أن تختار بين السعادة وما اصطلح الناس قديمًا علىٰ تسميتها بالفنون الجميلة، لقد ضحينا بالفنون الجميلة، وأصبح لدينا الأفلام الحسية وأرغن الروائح عوضًا عنها».

«ولكنَّهما لا يعنيان شيئًا».

«إنَّهما يعنيان ما هما عليه، ويعنيان الكثير من الأحاسيس لجمهورهم».

«ولكن . . .، ولكنَّها قصص بلهاء يرويها أحمق».

فضحك المراقب معلقًا: «إنَّك تهين صديقك السيد واتسون أحد أبرز مهندسينا الانفعاليين . . .».

فقاطعه هيلمهولتز واجمًا: «ولكنَّه محق، إنَّه حمق؛ الكتابة عندما لا يكون لديك ما تقوله حمق».

«بالضبط. لكن هذا يتطلب أصالة وإبداعًا، لكنَّك تصنع سيارات من أقل الخامات، من قطعة صلب، وكذلك تصنع قطعة فنية من أحاسيس سطحية مجردة».

هز البدائي رأسه: «كل هذا يبدو لي شنيعًا».

«بالطبع يبدو كذلك، إن السعادة الحقة دائمًا ما تبدو جديرة بالازدراء مقارنَة بما يعزي الإنسان ويعوضه عن بؤسه. كما أن مشاعر الاستقرار ليست بإثارة وتألق مشاعر عدم الاستقرار بالطبع، وشعور الرضا والاكتفاء لا يحمل فتنة الدخول في معركة حامية مع سوء الطالع والنائبات، وليس له تلك المشهدية الملحمية للصراع مع الفتن والإغواءات، أو تراجيديا السقوط المدوي بسبب العاطفة المتقدة أو الشك القاتل، إن السعادة لا تحمل عظمة البطولة».

رد البدائي بعد لحظة تأمل: «نعم؛ لا أظنُّها كذلك. ولكن

أيجب أن يكون الأمر بهذا السوء فيما يتعلق بأولئك التوائم؟».

ومسح بيده علىٰ عينيه كأنه يحاول مسح ذكرىٰ تلك الصفوف الطويلة من الأقزام المتطابقين حول طاولات التجميع، وتلك القطعان المتماثلة المصفوفة في طوابير علىٰ مدخل محطة برينتفورد للقطارات الأحادية القضبان، وتلك الديدان البشرية المتزاحمة حول ليندا علىٰ فراش الموت، والوجه المتكرر بلا نهاية لمهاجميه، ونظر إلىٰ يده اليسرىٰ المضمدة فأخذته رعدة هاتفًا: «هذا شنيع!».

«ومع ذلك فما أعظم فائدته! ولكنِّي أرىٰ أنَّه لا تعجبك مجموعات بوكانوفيسكي، ولكنِّي أؤكد لك أنَّهم الأساس الذي شيد عليه كل شيء آخر، إنَّهم الجيروسكوب[1] التي تحفظ توازن واستقرار الطائرة النفاثة التي تمثل الدولة في مسارها الذي لا يحيد».

كان الصوت العميق تتخلله رعشة إثارة وانفعال، وقد شملت إيماءات يده الفضاء الفسيح واندفاع الآلة التي لا تقاوم. كانت القدرات الخطابية لمصطفىٰ موند تكاد تصل إلىٰ مستوىٰ الموسيقىٰ الآلية.

وقال البدائي: «أتساءل ما الغرض من وجودهم وقد علمت أنَّكم تستطيعون إنتاج ما تريدونه من هذه الزجاجات، لم لا تجعلون الجميع من (سلالة الألفا موجب مزدوج)؟».

---

(١) البوصلة الكهربية.

فأجاب مصطفىٰ موند ضاحكًا: «لأنَّه لا رغبة لدينا في قطع أعناقنا. إنَّنا نؤمن بالسعادة وبالاستقرار، ووجود مجتمع كامل من (الألفا) لن يملك أفراده؛ إلَّا أن يكونوا مضطربين وبائسين، تخيل مصنعًا مكتظًّا بأفراد (ألفا)، وهو ما يعني وجود أفراد منفصلين لا قرابة بينهم، وهم مع ذلك يملكون صفات وراثية جيدة، وكُيِّفوا (لدرجة ما) علىٰ حرية الاختيار وتحمل المسئولية المترتبة علىٰ ذلك. فقط تخيل هذا».

حاول البدائي إطلاق العنان لخياله دون كثير نجاح.

«هذا أمر مخالف للمنطق ولطبائع الأمور، إنَّ رجل (ألفا) أفرغ من زجاجة وكُيِّف علىٰ هذا الأساس سيجن لو اضطر أن يقوم بعمل (إبسيلون) نصف معتوه، سوف يجن أو يبدأ في نوبة هياج وتدمير لما حوله، إنَّ (الألفا) يمكن دمجه في المجتمع شريطةَ أن يقوم بعمل الألفا. فلا أحد يتوقع أن يقوم بتضحيات الإبسيلون غيره، وذلك لسبب وجيه، وهو أنَّه لا يراها تضحيات؛ ولكنَّها الطريق الأقل مشقة، فقد أنشأ تكييفه قضبان علىٰ المسار الذي عليه قطعه، فهو لا يملك أمره، وقد جرت مقاديره قبل وجوده، وحتىٰ بعد تفريغه فهو لا يزال يعيش داخل الزجاجة، زجاجة غير مرئية جدرانها من الرغبات والتعلقات المهووسة ذات الطبيعة الطفولية والجنينية».

واستطرد المراقب متأملًا: «وكل منَّا بالطبع يتقدَّم في الحياة داخل زجاجة، ولكن في حال (الألفا) تكون الزجاجات ضخمة

نسبيًّا، ولسوف يُعاني بمرارة لو قُيد في محيط أصغر، وهو أمر مسلم به نظريًّا؛ فإنَّك لا تستطيع أن تسكب بديل الخمر الجيد في زجاجات للخمر الرديء، ومع ذلك؛ فقد أثبتنا ذلك عمليًّا أيضًا، وقد كانت نتائج تجربة قبرص حاسمة ومقنعة.

سأل البدائي: «وما كان ذاك؟».

ابتسم مصطفىٰ موند وأجاب: «يمكنك أن تدعوها تجربة إعادة تعبئة إن شئت، وقد بدأت (عام: ٤٧٣ بعد فورد)، حيث أخلىٰ المراقبون جزيرة قبرص من كل ساكنيها، ثم أعادوا إعمارها بدفعة معدة بعناية يبلغ تعدادها اثنين وعشرين ألفًا من (الألفا)، وقد زُودوا بكل المعدات الزراعية والصناعية اللازمة، وتُركوا ليديروا شئونهم، وقد طابقت النتيجة كل التنبؤات النظرية بدقة، فلم تستغل الأرض الاستغلال الأمثل؛ واجتاحت الإضرابات جميع المصانع؛ وأُجهضت القوانين؛ وعُصيت الأوامر؛ وكل من أسند إليه عمل أدنىٰ منزلة تطلع للأعمال الأعلىٰ درجة؛ في حين انشغل ذوو الوظائف العالية بما يتحملونه من تكاليف ليستقروا في مكانتهم تلك، وفي خلال ست سنوات قامت بينهم حرب أهلية طاحنة، قتل فيها تسعة عشر من الاثنين وعشرين ألفًا، عندها طالب الناجون بقرارٍ جماعيٍ أن يستأنف مراقبو العالم حكم الجزيرة، وهو ما حدث، وكانت تلك نهاية مجتمع (الألفا) الوحيد الذي شهده العالم».

تنهد البدائي بعمق!

وقال مصطفىٰ موند: «إنَّ الخريطة السكانية المثلىٰ هي تلك التي يكون فيها تسعة أعشار جبل الجليد تحت سطح البحر والعشر فقط هو الذي فوقه».

«وهل هم سعداء تحت سطح البحر؟».

«أسعد منهم ممَّا لو كانوا فوقه، أسعد من صديقك هذا -وأشار إليه- علىٰ سبيل المثال».

«رغم هذا العمل المريع؟».

«مريع؟! ولكنَّهم لا يجدونه كذلك، بل إنَّه علىٰ النقيض يعجبهم، فهو عمل خفيف، وبسيط كسذاجة الطفولة، بلا إجهاد للعقل أو العضلات، سبع ساعات ونصف من العمل الخفيف غير الشاق، يتبعه حصة من سوما، والألعاب، والجنس بلا قيود، والأفلام الحسية. فما الذي يمكن أن يطلبونه فوق ذلك؟ صحيح أنَّهم قد يطالبون بعدد ساعات أقل، وهو ما نستطيع أن نمنحهم إياه بالطبع. فمن الناحية التقنية ليس هناك أيسر من أن نقلل عدد ساعات عمل الطبقة الأدنىٰ لثلاث أو أربع ساعات يوميًا، ولكن هنا يكون السؤال: هل سيجعلهم ذلك أسعد حالًا؟ كلَّا، لن يكونوا أسعد حالًا. وقد قمنا بالتجربة من قرن ونصف أو يزيد، وطبق في أيرلندا كلها نظام الأربع ساعات عمل، فماذا كانت النتيجة؟ اضطرابات وزيادة ضخمة في استهلاك سوما؛ تلك هي النتيجة. لقد كانت تلك الساعات الثلاث ونصف الساعة من الراحة الزائدة أبعد ما تكون عن مصدر للسعادة، حتىٰ إنَّ الناس شعرت بحاجتها

لأخذ عطلة منها، إن مكتب الاختراعات مكدس بخطط . . . آلاف الخطط والإجراءات لتوفير الجهد والعمالة».

وأشار بيده في إيماءة فخيمة قبل أن يستطرد: «أمَّا لماذا لا نضعها موضع التنفيذ فذلك لمصلحة العمال أنفسهم، فسيكون من القسوة البالغة أن نبتلي هؤلاء الناس بذلك القدر الزائد من وقت الفراغ. والأمر نفسه يتكرر في مجال الزراعة، فنحن نستطيع أن نُصنِّع كيميائيًا كل لقمة غذاء تزرع لو شئنا، ولكننا لا نبغي هذا، بل نريد الإبقاء علىٰ ثلث السكان يكدحون في الأرض، وذلك من أجلهم، فاستخراج الغذاء من الأرض يستهلك وقتًا أكبر من استخلاصه من المصنع، كما أنَّ هناك شأن الاستقرار الذي يتطلب حرصًا للإبقاء عليه، فنحن لا نرغب في تغيير الحال، وهذا سبب آخر يجعلنا نقتصد في تطبيق الاختراعات الجديدة، وذلك لأنَّ كل اكتشاف علمي جديد يحمل خطر التخريب داخله، وهكذا حتىٰ العلم ينبغي أن يعامل أحيانًا كعدو محتمل، نعم؛ حتىٰ العلم».

وقطب البدائي! «العلم؟».

إنَّه يعرف الكلمة، ولكنَّه لم يدرك ما ترمي إليه تحديدًا، فلم يذكر شكسبير أو أيا من كهول المستعمرة الحكماء هذه الكلمة، ولم تمده لينذا إلَّا بأكثر التلميحات غموضًا: العلم هو الذي يمكِّنك من صنع المروحيات، وهو أيضًا السبب الذي يجعلك تضحك علىٰ رقصات حصاد الذرة، وهو أيضًا الشيء الذي يمنع ظهور التجاعيد علىٰ وجهك وأن تتساقط أسنانك.

بذل جهدًا جهيدًا كي يستوعب كلام المراقب.

وقال مصطفىٰ موند: «نعم؛ وذلك شيء آخر علينا تحمله ثمنًا للاستقرار، فليس الفن وحده الذي يتعارض مع السعادة، ولكن العلم أيضًا. إنَّ العلم خطر، وعلينا أن نبقيه مقيدًا وملجمًا بمنتهىٰ الحذر».

هتف هيلمهولتز في ذهول: «ماذا؟! ولكنَّنا دائمًا ما نقول إنَّ العلم هو كل شيء، إنَّها مقولة مأثورة من أقوال التعليم أثناء النوم».

وأضاف برنارد: «ثلاثة أيام أسبوعيًا من عمر الثالثة عشر حتىٰ السابعة عشر».

«وماذا عن كل الدعاية التي نقوم بها في الكلية عن العلم؟!».

فسأله مصطفىٰ موند بدوره ساخرًا: «بلىٰ، ولكن أي نوع من العلم؟ إنَّك لم تحظ بأي تدريب علمي؛ لذا: لا يمكنك الحكم علىٰ الأمر، أمَّا أنا؛ فكنت فيزيائيًّا بارعًا فيما مضىٰ، بارعًا كفاية لأدرك أنَّ العلم الذي تحت أيدينا الآن إنَّما هو ككتاب في فنِّ الطهي، يحمل نظرية تقليدية في الطهي غير مسموح بمساءلتها، وبقائمة من الوصفات لا يمكن الإضافة إليها إلَّا بموافقة خاصة من رئيس الطهاة، وأنا رئيس الطهاة الآن، ولكنني كنت مساعدًا فضوليًّا ذات يوم، فبدأت أطهو بنفسي بعض الشيء، طهي غير تقليدي ومحظور، وكان ذلك في حقيقة الأمر شيء من العلم الحقيقي».

فسأل هيلمهولتز واتسون: «وماذا حدث؟».

تنهد المراقب قبل أن يجيب: «قريب لما سيحدث لكم أيها الفتيان، كدت أنفىٰ إلىٰ إحدىٰ الجزر».

دفعت الكلمات الأخيرة برنارد إلىٰ رد فعل عنيف وغير لائق، فهب واقفًا وهرع عبر الغرفة ليقف أمام المراقب مشوحًا بيديه هاتفًا: «ترسلني إلىٰ جزيرة؟ لا يُمكنك أن تفعل ذلك، إنَّني لم أخطئ، الآخرون هم السبب، أقسم لك إنَّ الآخرين هم السبب».

وأشار بيده متهمًا إلىٰ هيلمهولتز والبدائي متضرعًا: «أرجوك! لا ترسلني إلىٰ أيسلندا، أعدك أن أفعل ما ينبغي عليَّ عمله، فقط أعطني فرصة أخرىٰ، أتوسل إليك أن تعطيني فرصة أخرىٰ».

وبدأت دموعه في التدفق وهو يستطرد منتحبًا: «أقول لك إنَّه خطؤهم. لا ترسلني إلىٰ أيسلندا، آوه ... أرجوك أيُّها المبجل أرجوك ...».

وفي نوبة من الخنوع والتذلل ارتمىٰ علىٰ ركبتيه جاثيًا أمام المراقب الذي حاول أن يستنهضه، لكن برنارد أصر علىٰ التمادي في هوانه وتصاغره، وتدفقت من فيه الكلمات بلا كلال، وفي النهاية اضطر المراقب أن يستدعي أمين سره الرابع آمرًا: «جئني بثلاثة رجال، واذهب بالسيد ماركس إلىٰ غرفة من غرف النوم، وأعطه جرعة جيدة من أبخرة سوما ودعه ينام».

ذهب أمين السر، ثم جاء مُحضِرًا ثلاثة توائم من الخدم

يتزيون بالأخضر، وحُمل برنارد صارخًا منتحبًا إلىٰ الخارج.

وعلق المراقب بعدما أغلق الباب: «وكأنَّما يُساق للذبح! فيما لو أنَّه يملك أقل قدر من الفهم لرأىٰ عقوبته منحة في الحقيقة، إنَّه سيرسل إلىٰ جزيرة ممَّا يعني أنه سيرسل إلىٰ مكان يمنحه فرصة التعرف علىٰ مجموعة مثيرة للاهتمام من الرجال والنساء لا توجد في أي مكان آخر في العالم. حيث سيجد كل الأشخاص الذين يملكون وعيًا وحسًّا فرديًّا متميزًا لسبب، أو لآخر يمنعهم من التواؤم مع المجتمع، كل الناس الذين لا ترضيهم التقليدية، الذين يملكون أفكارًا متميزة، باختصار كل شخص له أهمية ووجود مستقل، إنَّني أكاد أغبطك يا سيد واتسون».

فضحك هيلمهولتز: «إذن؛ لماذا لا تعيش في إحدىٰ الجزر؟».

أجابه المراقب: «لأنَّ هذا هو اختياري في النهاية، لقد أعطيت فرصة الاختيار بين إرسالي إلىٰ جزيرة والمضي في عملي مع العلم المحض، أو دخولي في مجلس المراقبين مع إمكانية حصولي مع الوقت علىٰ مكانة المراقب، وكان هذا هو خياري، وهجرت العلم».

وصمت هنيهة قبل أن يستأنف: «لكن في بعض الأحيان أندم علىٰ تركي للعلم، إنَّ السعادة سيد قاسٍ متطلب يصعب نيل رضاه، خاصة عندما يتعلَّق الأمر بسعادة الغير، وهو سيد أشد قسوة عندما لا يكون المرء مكيفًا علىٰ تقبله بغير سؤال أو تردد ولو علىٰ حساب الحقيقة».

تنهد وصمت مرة أخرىٰ، قبل أن يكمل بلهجة أكثر خفة: «حسنًا الواجب هو الواجب. ولا يستطيع المرء أن يركن إلىٰ ميوله ويتخذها مستشارًا وهاديًا، فأنا تهمني الحقيقة، وأنا أميل إلىٰ العلم، ولكن الحقيقة تهديد، والعلم خطرٌ علىٰ المجتمع، يتساوىٰ نفعه وضره، ومع أنَّه منحنا أكثر توازن مستقر في التاريخ، حتىٰ تبدو حضارة الصين بجانبه غير آمنة بالمقارنة، وحتىٰ المجتمعات البدائية الأمومية لم تكن أكثر استقرارًا ممَّا نحن عليه الآن، كل هذا بفضل العلم، كما أقول وأكرر؛ إلَّا أنَّ هذا لا يجعلنا نسمح للعلم بأن ينسخ أثره الطيب، لهذا السبب نحجم بحرص نطاق البحث العلمي؛ ولذلك: كدت أنفىٰ إلىٰ جزيرة، إنَّنا لا نسمح للعلم إلَّا بتناول ومعالجة المشاكل الآنية المباشرة العاجلة، أمَّا أي تساؤلات أخرىٰ فتكبت بمثابرة عظيمة، إنه لأمر عجيب».

وصمت لوهلة قبل أن يستأنف: «إنَّه لأمر عجيب أن تقرأ ما كتبه الناس في زمن المبجل فورد عن التقدم العلمي، لقد بدا وكأنَّهم تخيَّلُوا أن يترك لهم العنان لينطلقوا بلا حدود دون النظر للعواقب. لقد كانت المعرفة هي الخير الأعظم، والحقيقة هي القيمة العُليا؛ وما سوىٰ ذلك فهو تابع وفرع علىٰ الأصل.

لكن الأفكار بدأت تتغير آنذاك، وقد شارك المبجل فورد بنفسه بمجهود عظيم في تحويل الأهمية من قيم الحقيقة والجمال إلىٰ الراحة والسعادة، وقد كان هذا التحول مطلبًا من مطالب زيادة خطوط الإنتاج زيادة ضخمة؛ فإنَّ السعادة الكونية تُبقي عجلة

الإنتاج دائرة ومستقرة بينما لا تملك الحقيقة ولا الجمال ذلك. وبالطبع متىٰ اكتسبت الجماهير نفوذًا سياسيًا؛ فإنَّ السعادة هي ما يهم حقًّا، وليس الحقيقة أو الجمال، ورغم ذلك كان البحث العلمي بلا قيود ما زال مسموحًا به، وظلَّ الناس يتحدثون عن الحقيقة والجمال كما لو كانا هما القيمتين السائدتين، حتىٰ جاءت حرب السنوات التسع التي نجحت في تغيير أفكارهم وخطابهم، فما معنىٰ الحقيقة، أو الجمال، أو المعرفة عندما تتفجر قنابل الأنثراكس حولك في كل مكان؟

وكانت تلك هي بداية التحكم في مسار العلم بعد نهاية حرب السنوات التسع. كان لدىٰ الناس وقتها استعداد لتقبل التحكم حتىٰ في شهيتهم، كان لديهم الاستعداد لتقبل أي أمر في سبيل حياة هادئة، وقد مضينا في التحكم منذ ذاك الوقت حتىٰ الآن. ولم يكن هذا الأمر في صالح الحقيقة بالطبع، ولكنَّه كان بيئة صالحة للغاية للسعادة. وعلىٰ كل حال لا يوجد مكسب دون مقابل، إنَّ للسعادة تكلفتها ولا بُدَّ من دفعها، وأنت تدفع قيمتها يا سيد واتسون، تدفع لأنَّك شديد الاهتمام بالجمال، أمَّا أنا فكنت شديد الاهتمام بالحقيقة وقد دفعت الثمن بدوري.

ساد صمت قطعه البدائي قائلًا: «ولكنَّك لم تُنفَ إلىٰ جزيرة».

ابتسم المراقب ورد: «هكذا دفعت الثمن، باختياري أن أخدم السعادة . . . سعادة غيري لا سعادتي -ثم أضاف بعد سكوت-

وإنَّه لمن حسن الطالع وجود كل تلك الجزر في العالم، ولا أدري ما كنا فاعلين من غيرها، كنا سنضعكم جميعًا في غرف الإعدام حينها علىٰ ما أظن. وبالمناسبة يا سيد واتسون هل تفضل مناخًا استوائيًا؟ جزر الماركيز ربما؟ أو مجموعة جزر ساموا؟ أو ربما تفضل مناخًا أكثر إنعاشًا؟».

نهض هيلمهولتز من كرسيه ذي الوسادات الهوائية وأجاب: «أودُّ مناخًا سيئًا تمامًا، أعتقد أنَّ باستطاعة المرء الكتابة بشكل أفضل في مناخ سيء، مع الكثير من الرياح والعواصف، علىٰ سبيل المثال . . .».

أومأ المراقب برأسه مبديًا استحسانه: «تعجبني روحك يا سيد واتسون، تعجبني كثيرًا، بقدر ما أنكرها علىٰ المستوىٰ الرسمي». ثم ابتسم سائلًا: «ما رأيك بجزر فوكلاند؟».

أجاب هيلمهولتز: «نعم؛ أظنُّها مناسبة، والآن إنَّ أذنت لي أظنني سأذهب لأتفقد برنارد المسكين».

الفصل السابع عشر

قال البدائي عندما أصبحا وحدهما: «الفن والعلم - يبدو لي أنك دفعت ثمنًا باهظًا لسعادتك، ترىٰ أهناك شيء آخر؟».

أجاب المراقب: «هناك الدين بالطبع، كان هناك فيما مضىٰ كيان يُسمىٰ الرب قبل حرب السنوات التسع، ولكنَّني أنسىٰ، فأنا أظنُّك تعرف كل ما هنالك عن الرب».

تردد البدائي: «في الواقع . . .».

كان يريد أن يتحدَّث عن الوحدة، وعن الليل، وعن الهضبة بلونها الشاحب تحت ضوء القمر، عن الجرف والسقوط في الهاوية المليئة بالظلال، أراد أن يتحدث عن الموت. كان يود التحدث، لكنَّه لم يجد الكلمات، لم يجدها حتىٰ عند شكسبير.

في تلك الأثناء كان المراقب قد عبر الحجرة إلىٰ طرفها الآخر؛ ليفتح خزانة كبيرة تقع بين رفوف الكتب، وانفتح الباب الثقيل كاشفًا عن العمق المظلم داخله الذي فتش فيه المراقب قبل أن يخرج منه مجلدًا أسودًا سميكًا، **وقال:** «إنَّه موضوع لطالما أثار شغفي، إنَّك لم تقرأ هذا من قبل علىٰ سبيل المثال».

فتناوله البدائي ليقرأ عنوانه بصوت مسموع: «الكتاب

المقدس: بعهديه القديم والجديد».

ثم ناوله كتابًا آخر صغيرًا لا غلاف له «الاقتداء بالمسيح»[1].

«ولا هذا». وناوله كتابًا ثالثًا. «تنوعات الخبرة الدينية. لويليام جيمس».

وعاد مصطفىٰ موند إلىٰ مقعده قائلًا: «ولدي الكثير سواهم، مجموعة كاملة من الكتب القديمة الفاحشة في الخزانة. نعم الرب في الخزانة وفورد علىٰ رفوف المكتبة».

قالها ضاحكًا مشيرًا إلىٰ مكتبته برفوفها المصفوفة بالكتب وآلة القراءة بصناديقها المفتوحة المليئة عن آخرها، وصفوف الأسطوانات الموسيقية.

هنا سأله البدائي محنقًا: «ولكن إن كنت تعلم من هو الرب فلماذا لا تخبرهم؟ لماذا لا تعطيهم هذه الكتب عن الرب؟».

«لنفس السبب الذي لا نمنحهم من أجله عطيل؛ لأنَّها كتب قديمة؛ لأنَّها كتبت عن الرب منذ مئات السنين لا عن الرب الآن».

«الرب لا يتغير».

«لكن البشر يفعلون».

«وما الفارق الذي يُحدثه هذا؟».

رد مصطفىٰ موند: «يحدث الفارق كله».

---

(١) كتاب روحي نسكي كتبه الراهب الكاثوليكي توماس أكيمبيس في القرن الخامس عشر.

ثم نهض متوجهًا إلىٰ الخزينة مرة أخرىٰ: «كان هناك رجل يدعىٰ كاردينال نيومان»، **وأردف موضحًا**: «الكاردينال يعادل كبير المنشدين المجتمعيين».

فرد عليه جون مقتبسًا: «أنا باندولف الكاردينال من ميلان الجميلة»[1].

وأوضح قائلًا: «لقد قرأت عن الكاردينالات في أعمال شكسبير».

«نعم بالطبع؛ حسنًا كما كنت أقول، هناك رجل يدعىٰ كاردينال نيومان. آه ها هو الكتاب».

وسحب كتابًا من إحدىٰ الأرفف «وبينما أنا هنا فسآخذ هذا الكتاب أيضًا الذي ألفه فيلسوف -لو تعلم ما تعنيه الكلمة- يدعىٰ مين دو بيران».

فرد البدائي علىٰ الفور: «هو رجل يحلم بأشياء أقل من كل ما تحويه السماء والأرض»[2].

«بالفعل، وسوف أقرأ لك إحدىٰ الأشياء التي حلم بها بعد قليل، ولكن في تلك الأثناء دعني أسمعك ما قاله كبير المنشدين

---

(١) **«مسرحية الملك جون»**، لشكسبير.

(٢) **يُشير البدائي إلىٰ قول هاملت لهوراشيو**: «إنَّ السماء والأرض تسع فوق ما يحلم به؛ فلاسفتك». وهو قول ساخر، واستدل به بعض النقاد مع بعض الاقتباسات الأخرىٰ التي أتت علىٰ لسان جون علىٰ أنَّه لا يستوعب جيدًا بعض المعاني من وراء كلمات شكسبير.

المجتمعيين السابق». وفتح الكتاب علىٰ صفحة حفظ مكانها بقصاصة ورقية، وشرع في القراءة: «نحن لا نملك أنفسنا بأكثر ممَّا نملك ما بحوزتنا، إنَّنا لم نخلقها، كما أنَّنا لا نستطيع أن نهيمن عليها، فنحن لسنا سادة أنفسنا، بل ملك للرب، أليس مدعاةٌ للسعادة أن ننظر للأمر هكذا علىٰ حقيقته؟ وهل يجلب التفكير في أنَّنا ملك لأنفسنا أي سعادة أو راحة؟ قد يظن ذلك الشباب والمرفهون، هؤلاء قد يظنون أنَّه من العظيم أن ينالوا كلَّ شيء بطريقتهم وفق هواهم، أو هكذا يتخيَّلون، قد يحسبون أنَّه من الرائع ألَّا يعتمدوا علىٰ أحد، وألَّا يحتاجوا للتفكير فيما يجاوز نظرهم، دون مشقة التسليم المستمر والصلاة المستديمة والرجوع الدائم إلىٰ إرادة كيان آخر في كل شئونهم، ولكن بمرور الوقت سيكتشفون مثلهم مثل الآخرين أن طبيعة الإنسان لم تُخلق ليكون مستقلًا، وأنَّها حال غريبة عنه، قد تصلح لبعض الوقت، ولكنَّها لن تحملنا في النهاية إلىٰ بر الأمان».

توقف مصطفىٰ موند عن الكلام ليضع الكتاب الأول ويلتقط الكتاب الآخر مُقلِّبًا صفحاته: «خذ هذا علىٰ سبيل المثال».

وشرع يقرأ بصوته العميق: «يتقدَّم المرء في العمر، ويشعر بزحف المشيب يوهن قواه، ويشعر بما يصاحبه من الضعف والفتور وعدم الراحة، وبتلك الأعراض يتخيَّل نفسه مريضًا ليس به إلَّا المرض، مسكنًا مخاوفه بالتصبر بأنَّ تلك الحالة المقلقة تعود إلىٰ سبب محدد يأمل في التعافي منه كما يتعافىٰ المريض من علته،

لكن ما أعبثها من خيالات! إنَّ المرض هو الشيخوخة، وذاك مرض شنيع، يقولون: إنَّ الخوف من الموت، وما يتبعه هو ما يلجئ الناس إلىٰ الدين، كلما تقدَّموا في العمر، ولكن من تجربتي أيقنت أنَّه بجانب شعور الرعب، أو التخيلات الميتافيزيقية؛ فإنَّ الشعور الديني ينمو بداخلنا مع تقدمنا في العمر؛ لأنَّه مع هدأة العواطف واستقرار الأحاسيس وصعوبة استثارة الهوىٰ والنزوات يصبح العقل أكثر قدرة علىٰ إعمال الفكر دون مشاكل، ولا تشوش تسببه الصور والخيالات والرغبات والإلهاءات التي كان مستغرقًا فيها من قبل، وعندئذٍ يتجلَّىٰ له الرب كأنَّما يخرج عليه من وراء سحابة، فتشعر به روحه وتراه فتتزكىٰ وتتوجه إلىٰ مصدر كل ضياء، تتوجَّه إليه فطريًّا لا مندوحة لها عنه الآن، وقد بدأ يتلاشىٰ كل ما كان يعطىٰ الحيوية والسحر لعالم الأحاسيس تاركًا إيَّانا في خواء، الآن وقد أصبح الوجود المحسوس لا داعم له من الانطباعات الداخلية أو الخارجية شعرنا بحاجتنا للارتكان إلىٰ ثابت، إلىٰ كيان لا يتلاعب بنا ولا يغشنا، إلىٰ واقع راسخ، إلىٰ حقيقة مطلقة أزلية أبدية.

نعم؛ إنَّنا في النهاية نتجه إلىٰ الرب لا محالة، وتلك العاطفة الدينية شديدة النقاء في طبيعتها شافية ومبهجة للروح التي تذوق حلاوتها، حتىٰ إنَّها تعوضها عن كل فقْدٍ».

ثم أغلق مصطفىٰ موند الكتاب واتكأ علىٰ ظهر المقعد قائلًا:

«إنَّ إحدىٰ الأشياء العديدة في الأرض، وفي السماء التي لم يحلم بها أي من أولئك الفلاسفة هو هذا -وأشار بيده- نحن، هذا

العالم الجديد. إنَّك تستطيع الاستغناء عن الرب فقط في حال شبابك وثرائك، لكن هذا الاستغناء وتلك الاستقلالية لم تكن لتحملك آمنًا حتىٰ توصلك إلىٰ نهاية رحلتك. أمَّا الآن؛ فنحن ننال الشباب والرفاهية حتىٰ النهاية، فما الذي يتبع ذلك؟ الذي يتبع ذلك هو أنَّه يصبح جليًّا أنَّنا نستطيع الاستغناء عن الرب.

إنَّ العاطفة الدينية تعوضنا عن كل فقْدٍ وخسارة، ولكن نحن ليست لدينا خسائر لنحاول تعويضها؛ فالشعور الديني هنا شيء زائد غير ضروري، فلماذا نتكبد مشقة السعي وراء بديل للرغبات الفتية بينما هي حية وحاضرة؟ ولماذا نبحث عن بديل للإلهاءات القديمة بينما يمكننا أن نمضي إلىٰ اللحظة الأخيرة مستمتعين بكل الحماقات القديمة حتىٰ آخر رمق؟ وما حاجتنا إلىٰ السكون عندما تستمر عقولنا وأجسادنا في الاستمتاع بالنشاط والحركة؟ وما يلجئنا إلىٰ المواساة ولدينا سوما؟ وما حاجتنا إلىٰ شيء ثابت راسخ ونحن لدينا النظام الاجتماعي؟».

«إذن؛ أنت تعتقد أنَّه لا يوجد إله؟».

«كلا، بل يغلب علىٰ ظني أنَّ هناك إلهًا».

«إذن؛ لماذا . . .؟».

قاطعه مصطفىٰ موند: «ولكنَّه يتجلَّىٰ بطرق متنوعة لكل شخص، ففي عصور ما قبل الحداثة تمظهر في الكيان الموصوف في تلك الكتب، أمَّا الآن . . .».

سأله البدائي: «وكيف يتمظهر الآن؟».

«في شكل الغائب؛ كأنَّه لم يكن هناك منذ البداية».

«إنَّما هذا خطؤك».

«دعنا نقول إنَّه خطأ التحضر، إنَّ الرب لا يتناسب مع الماكينات والتطبيب العلمي والسعادة الكونية، وفي النهاية عليك أن تقوم بالاختيار بينهما، وقد اختارت حضارتنا الميكنة والطب والسعادة؛ ولذلك: أضطر للإبقاء علىٰ هذه الكتب مخبوءة داخل خزانة، إنَّها بذاءات، ولسوف يصدم الناس إذا . . .».

فقاطعه البدائي: «لكن أليس من الطبيعي الشعور بأن هناك إله؟».

فقال المراقب متهكمًا: «ويمكنك كذلك أن تسأل ألَّا يكون من الطبيعي أن يغلق الفرد سحاب سرواله؟».

واستطرد: «لقد ذكرتني بشخصية قديمة، رجل يدعىٰ برادلي كان يعرِّف الفلسفة بأنَّها محاولة لإيجاد منطق خاطئ لما يعرفه الناس بالفطرة. كما لو كان الإنسان يعتقد أي شيء بالفطرة! إنَّ الفرد يؤمن لأنَّه كُيِّف علىٰ الإيمان، والفلسفة هي البحث عن أسباب باطلة لِمَا يؤمن به المرء نتيجة أسباب خاطئة أيضًا. فالناس يؤمنون بالرب؛ لأنَّهم كيِّفُوا علىٰ الإيمان به.

فقال البدائي: «ومع ذلك فمن الطبيعي الإيمان بالرب عندما تكون وحدك، وحيدًا في الليل تتفكر في الموت . . .».

«ولكن الناس لا يُتركون وحدهم أبدًا هذه الأيام. نحن جعلناهم يكرهون الوحدة، كما أنَّنا ننظم حياتهم بشكل يكاد يجعل من المستحيل أن يصلوا إلىٰ ذلك الحال».

أومأ البدائي برأسه متجهمًا، وتذكر معاناته في المالبيز؛ لأنَّهم جنبوه مشاركتهم أنشطتهم الاجتماعية في المستعمرة، ومعاناته في لندن المتحضرة؛ لأنَّه لم يستطع التهرب من أنشطتهم الاجتماعية، ولم يحصل علىٰ شيء من العزلة والهدوء.

ثم سأله البدائي أخيرًا: «هل تذكر ذلك الجزء من «الملك لير»؟».

«إنَّ الآلهة عادلة، وهي تصنع من آثامنا الممتعة وسائل ابتلائنا؛ فإنَّ المكان المظلم المرعب الذي جلبك منه قد كلفه عينيه»[1].

هل تذكر كيف أجابه إدموند وهو جريح علىٰ شفا الموت؟

«لقد أصبت الحق، وقد دارت العجلة دورتها، وهأنذا، فما ظنُّك؟ هل يبدو أنَّ هناك إله يدبر ويعاقب ويثيب؟».

وتسائل المراقب بدوره: «حسنًا وهل هناك مثل هذا الموجود؟ أنت الآن يمكنك أن تتمتع بأي عدد من الآثام والملذات مع الإناث منزوعي المبايض دون أن تتعرض لخطر انتزاع عينيك بواسطة عشيقة ابنك».

---

(١) يتحدث إلىٰ إدموند الابن غير الشرعي لجلوستر في «مسرحية الملك لير»، حيث كانت عقوبة جلوستر العاجلة فقد بصره.

لقد دارت العجلة دورتها وهأنذا.

«ولكن أين يمكن أن تجد إدموند هذه الأيام؟ إنَّك ستجده جالسًا علىٰ مقعد هوائي وثير يحيط بذراعه خصر فتاةٍ ما بينما يمتص عصارة علكة من علكات الهرمون الجنسي، وهو يشاهد فيلمًا من الأفلام الحسية. إنَّ الآلهة عادلة بلا شكٍّ، لكن أولئك الذين ينظمون المجتمع هم من يملون القوانين في النهاية؛ فالعناية السماوية تأخذ تلقينها من الإنسان».

سأله البدائي: «أواثق أنت؟ أواثق أن عقوبة هذا الإدموند علىٰ ذلك المقعد الهوائي الوثير أقل شدة من عقوبة إدموند الذي جُرح ونزف حتىٰ الموت؟ إنَّ الآلهة عادلة، أفلم تستخدم رذائله الممتعة كوسيلة لإهانته والحط منه؟».

«الحط منه عن أي مكانة؟ إنَّه كامل كمواطن سعيد مستهلك للسلع وعامل مجتهد. لكن بالطبع لو اخترت معيارًا آخر سوىٰ معاييرنا فيُمكنك أن تقول إنَّه حُط من مكانته بالفعل. لكن عليك الاستقرار علىٰ مجموعة واحدة من الفرضيات المسلم بها، فأنت لا يمكنك أن تلعب الجولف الكهرومغناطيسي بقواعد لعبة الطرد المركزي للجرو الطنان».

قال البدائي: «لكن القيمة لا تكمن في مشيئة شخص، وإنَّما تكمن قيمته في التقدير والمكانة التي يحملها؛ لذا: فهو يحمل قيمته في نفسه كما تتجلىٰ مكانته في عين من يقدره»[1].

---

(١) «مسرحية ترويلوس وكريسيدا»، شكسبير.

اعترض مصطفىٰ موند: «هيا! هيا! إنَّك تحمل الأمر ما لا يحتمل».

«لو أنَّكم تركتم أنفسكم تفكرون في الرب؛ فلن تسمحوا لها بالانحطاط في المتع المرذولة، بل كنتم ستجدون أسبابًا للتحمل والصبر علىٰ المكاره، ومواجهة الخطوب بشجاعة، وهذا هو ما رأيته من الهنود».

قال مصطفىٰ موند: «نعم؛ أنا متيقِّن أنَّك رأيت هذا، ولكنَّنا لسنا هنودًا، وليس ثمة حاجة للرجل المتحضر في تحمل أيه مكدرات حقيقية. أمَّا عن المبادرة والمبادأة -نستعيذ بفورد من ذلك- فإنَّ ذلك سوف يربك النظام الاجتماعي بأسره إذا ما أخذ الرجال زمام المبادأة وشرعوا يتصرفون من عند أنفسهم».

«ماذا عن إنكار الذات إذن؟ لو أنكم تؤمنون بإله لوجدتم سببًا لإنكار الذات».

«ولكن الحضارة الصناعية لا تقوم لها قائمة إلَّا بالقضاء علىٰ إنكار الذات، وبالانغماس في الملذات إلىٰ أقصىٰ الدرجات المسموح بها دون التعرض لأخطار صحية، أو اقتصادية؛ وإلَّا: توقفت العجلات عن الدوران».

قال البدائي: «لكنَّكم كنتم ستجدون وقتها سببًا للعفة». واحمر وجهه قليلًا وهو ينطق الكلمة الأخيرة.

«لكن العفة تعني وجود العاطفة، تعني: الإنهاك العصبي،

والعاطفة والإنهاك العصبي يعنيان عدم الاستقرار، وعدم الاستقرار يعني نهاية الحضارة. فأنت لا تحصل علىٰ حضارة ممتدة دون وجود العديد من الرذائل الممتعة».

«ولكن الرب هو سبب كل نبل وجمال وبطولة، فلو كان لديكم إله . . .».

قاطعه مصطفىٰ موند: «يا صديقي العزيز الشاب إنَّ الحضارة لا حاجة لها إلىٰ النبل أو البطولة. إنَّ تلك الأشياء ما هي إلَّا أعراض للقصور السياسي، أمَّا في مجتمع منظم تنظيمًا جيدًا كمجتمعنا فلا تتاح لأي أحد فرصة أن يكون بطلًا نبيلًا، فذاك يتطلَّب ظروفًا غير مستقرة تمامًا قبل ظهور الفرصة، حيث الحروب والولاءات المنقسمة، والإغواءات التي يجب مقاومتها، والأحباب الذين تجاهد من أجل الفوز بهم أو حمايتهم، في تلك الحال يكون للنبل والبطولة معنىٰ، ولكن لا توجد حروب هذه الأيام، كما تُبذل أقصىٰ المساعي لمنع تعلقك بأحد أكثر ممَّا يجب، كما لا توجد ولاءات منقسمة؛ فأنت تمَّ تكييفك كليًّا بحيث لا تملك إلَّا أنْ تسلك السلوك الذي ينبغي عليك فعله، وما ينبغي عليك فعله يكون في العموم شيء لطيف، كما ترك العنان للكثير من البواعث والنزوات الطبيعية فلم تعد أيٌّ منها إغواءً ينبغي مجاهدته، وإذا حدث في مرة من المرات بسبب سوء الطالع أي مكروه فهناك دائمًا السوما جاهزة لتأخذك في عطلة بعيدًا عن الوقائع المزعجة، والسوما موجودة كذلك كي تسكن غضبك، وتصالحك علىٰ

أعدائك، ولتجعلك صبورًا حليمًا متجلدًا.

في الماضي لم تكن تطيق هذا إلَّا بجهد جهيد ومشقة بالغة وبعد سنوات من المران الأخلاقي، أمَّا الآن فما عليك إلَّا ابتلاع قرصين أو ثلاثة أقراص زنة نصف جرام من السوما لتنتهي متاعبك. وهكذا في وسع أي شخص أن يكون فاضلًا، وهكذا يمكنك أن تحمل نصف ضعفك البشري معك في قنينة، لقد تحققت المسيحية دون دموعها وعذاباتها في سوما».

«لكن الدموع ضرورة، ألَّا تذكر ما قاله عطيل؟ «لو أنَّ بعد كل عاصفة يأتي مثل هذا الهدوء؛ إذن: فلتزأر الرياح حتىٰ توقظ الموتىٰ»[1].

وهناك قصة كان يرويها لنا أحد المسنين الهنود عن فتاة متساكي، التي كان علىٰ من يخطبون ودها من الفتيان أن يقوموا بعزق حديقتها لنهار كامل، وقد يبدو الأمر سهلًا ميسورًا؛ لولا الذباب والبعوض، وكانت تلك الحشرات الطائرة مسحورة، فلم يتحمل معظم الشباب اللسعات واللدغات، لكن الشاب الذي استطاع التحمل فاز بالفتاة».

قال المراقب: «جميل، لكن في البلاد المتحضرة يمكنك أن تحصل علىٰ الفتيات دون عزق، وبغير أن يلدغك الذباب والبعوض، فقد تخلصنا من كل ذلك منذ قرون».

---

(١) «مسرحية عطيل»، لشكسبير.

أومأ البدائي برأسه مقطبًا: «تخلصتم من ذلك! نعم؛ هذا ديدنكم، التخلص من كل ما يكدركم بدلًا من تعلم كيفية التعايش معه. لكن أيهما أفضل للعقل أن يعاني من مخاذف وأسهم الحظ الغاشم، أم يسل السلاح في مواجهة بحر من المتاعب وبمواجهتها يقضي عليها؟[١]، ولكنَّكم لا تفعلون أيًّا منهما؛ فلا أنتم تقاسون ولا أنتم تواجهون، أنتم فقط تمحون المخاذف والأسهم، وهذا سهل ميسور».

وسكت فجأة متذكرًا والدته في غرفتها في الطابق السابع والثلاثين، حيث طفت ليندا في بحر من الأنوار الطروبة واللمسات العطرية المداعبة ثم طفت خارج الزمان والمكان، خارج سجن ذكرياتها وعاداتها، خارج جسدها العجوز المنتفخ، أما توماكين المدير السابق لمركز التفريخ والتكييف؛ فلا يزال في عطلة، عطلة من الخزي والألم، في عالم لا يستطيع فيه سماع تلك الكلمات ولا تلك الضحكات الساخرة المستهزئة، أو يرىٰ ذلك الوجه البشع، أو يشعر بتلك الذراعين المترهلتين الرطبتين حول عنقه، في عالم جميل . . .».

واستطرد البدائي: «ما تحتاجونه حقًّا هو شيء يجلب الدموع علىٰ سبيل التغيير، فلا شيء هنا يكلف المرء ما فيه الكفاية».

وقد اعترض هنري فوستر عندما أخبره البدائي بهذا قائلًا:

---

(١) «مسرحية هامليت»، شكسبير.

«لقد تكلف مركز التكييف الجديد اثني عشر مليونًا ونصف من الدولارات، لا ينقصون سنتًا واحدًا».

وسأل مصطفىٰ موند ناظرًا إليه: «أن تُعرِّض ما هو فانٍ وغير يقيني لضربات القدر والموت والمخاطرة، حتىٰ لو في سبيل أتفه الأشياء كقشرة بيض ألَا ترىٰ شيئًا ذا قيمة في هذه الصورة؟»[1].

واستطرد في تساؤلاته: «بصرف النظر عن الرب -رغم أنه بالطبع سببًا لذلك- أليس هناك ما يستحق النظر في تجربة المخاطرة؟».

فأجابه المراقب: «بل هناك الكثير ممَّا يستحق النظر في هذه الفكرة، فعلىٰ الرجال والنساء أن تستثار غددهم الكظرية من وقت لآخر».

استفهمه البدائي: «ماذا؟!».

«إنَّها إحدىٰ شروط الوضع الصحي الأمثل، ولهذا جعلنا معالجة ب. ا. ع. إجباريًّا».

«ب. ا. ع. ؟».

«بديل الانفعالات العنيفة. ويمنح بصفة منتظمة مرة شهريًا، حيث نغرق الجسم كله بالأدرينالين، وهو المعادل الفسيولوجي الكامل للخوف والغضب، بكل التأثير المنشط الناتج عن قتل ديدمونة والموت علىٰ يد عطيل لكن دون أي متاعب أو مضايقات».

---

(١) «مسرحية هامليت»، شكسبير.

«ولكنني أحب هذه المتاعب».

«أمَّا نحن فلا؛ بل نحب أن نقوم بالأشياء في يسر وراحة».

«ولكنَّني لا أريد الراحة. أنا أريد الرب، أريد الشعر، أريد خطرًا حقيقيًّا، أريد الحرية، أريد الصلاح، أريد الذنب».

فقال مصطفىٰ موند: «الحقيقة أنَّك تطلب الحق في الشقاء».

فرد البدائي متحديًا: «حسنًا إذن، إنَّني أطالب بحقي في أن أكون شقيًّا».

«دون ذكر الحق في التقدم في السن، والإصابة بالقبح والعجْز، والحق في الإصابة بالزهري والسرطان، والحق في قلة الطعام، والحق في الحقارة، والحق في العيش في قلق دائم ممَّا قد يحمله الغد، والحق في العدوىٰ بالتيفود، والحق في مكابدة كل أنواع الآلام غير المحتملة من كل نوع».

خيم صمت طويل، قبل أن يقول البدائي أخيرًا: «أنا أطالب بالحق فيهم جميعًا».

فهز مصطفىٰ موند كتفيه وقال: «علىٰ الرحب والسعة».

الفصل الثامن عشر

كان الباب مواربًا، فدلفوا.

- جون!

وصل إليهم صوتٌ مزعجٌ مميزٌ من الحمام.

فصاح هيلمهولتز: «أثمة خطب؟».

لم تأتهِ إجابة، وتكرر الصوت المزعج مرتين أعقبه صمت، قبل أن يفتح باب الحمام ليخرج منه البدائي وهو شديد الشحوب.

وهتف هيلمهولتز مهتمًا: «إنَّك تبدو مريضًا يا جون!».

وسأل برنارد: «هل أكلت شيئًا أمرضك؟».

فأومأ البدائي موافقًا: «لقد أكلتُ الحضارة!».

- «ماذا؟!».

«وقد سممتني»، لقد تلوثتُ، ثم .... أتبعت ذلك بازدراد شروري.

«نعم؛ ولكن ما هو بالضبط ذاك الذي ... أعني: لقد كنت لتوك ...».

قال البدائي: «أمَّا الآن؛ فقد تطهرت، فقد شربت شيئًا من

الخردل والماء الدافئ».

حملق فيه الآخران مندهشين، وسأل برنارد: «أتعني: أنَّك كنت تفعل ذلك عن عمد؟!».

«هكذا يطهر الهنود أنفسهم». ثم جلس وتنهَّد ماسحًا بكفه علىٰ جبينه، وقال: «سأخلد للراحة لعدة دقائق؛ فإنِّي أشعر بالتعب».

قال هليمهولتز: «هذا لا يُثير دهشتي». ثم بعد هنيهة صمت استطرد: «جئنا نودعك». وأضاف بلهجة مغايرة: «إنَّنا سننطلق غدًا باكرًا».

وقال برنارد، وقد اكتسب محياه تعبيرًا جديدًا من التسليم العازم: «نعم؛ سننطلق غدًا».

ثم مال في مقعده إلىٰ الأمام ووضع يده علىٰ ركبة البدائي قائلًا: «وبهذه المناسبة يا جون أود أن أعرب لك عن بالغ أسفي عن كل ما حدث بالأمس». واحمر وجهه. «كم أشعر بالخجل . . .».

حاول الاستمرار رغم تهدج صوته، لكن قاطعه البدائي بأن التقط يده وضغط عليها بمودة.

واستطرد برنارد بعد صمت قصير: «كان هيلمهولتز رائعًا معي، ولولاه لـ . . .».

فقاطعه هيلمهولتز معترضًا في أريحية: «هيا! دعك من هذا».

وساد الصمت بينهم، ورغم حزنهم، أو ربما بسببه -فقد كان

حزنهم ملمحًا من ملامح حبهم لبعضهم البعض- كان الشبان الثلاثة سعداء.

وقطع البدائي الصمت أخيرًا: «لقد ذهبت لرؤية المراقب هذا الصباح».

- «ولِمَ؟».

«لأسأله إن كان بمقدوري الذهاب إلىٰ الجزر معكما».

فسأله هيلمهولتز متلهفًا: «وبِمَ أجابك؟!».

فهز البدائي رأسه وأجاب: «لَمْ يرضَ بذلك».

- «ولِمَ لا ؟!».

«قال: إنَّه يريد أن يمضي بالتجربة إلىٰ نهايتها، ولكن لتحل عليَّ اللعنة!».

وأضاف البدائي وقد أصابته ثورة مفاجئة: «لتحل عليَّ اللعنة لو قبلت بالاستمرار كفأر تجارب، ليس في سبيل كل مراقبي العالم، سوف أذهب غدًا أنا الآخر».

فسأل الآخران معًا: «لكن إلىٰ أين؟».

هز البدائي كتفيه: «إلىٰ أي مكان، لا يهمني، ما دمت سأتمكن من البقاء وحيدًا».

من جيلدفورد تتبع الممر الجوي السفلي أحادي الاتجاه وادي واي إلىٰ جدلمينج، ثم عبر ميلفورد وويتلي حتىٰ وصل إلىٰ هاسلمير، ثم أكمل طريقه حتىٰ وصل إلىٰ بيترزفيلد منطلقًا منها إلىٰ

بورتسموث. ويكاد يوازيه عَبَرَ الممر الجوي العلوي أحادي الاتجاه فوق وربليسدن، وتونجام، وبوتنهام، وإلستيد، وجرايشوت. كانت هناك نقاط بين هوجز باك وهيند هيد لم يبتعد فيها الممريان الجويان بأكثر من ستة أو سبعة كيلومترات. كانت المسافة أقصر من أن يعبرها طيار مستهتر ليلًا، خاصةً إذا تناول جرعة زائدة من سوما، وقد كانت هناك بعض الحوادث الخطيرة نتج علىٰ إثرها قرار بإزاحة الممر العلوي عدة كيلومترات نحو الغرب ما بين جرايشوت وتونجام، حيث توجد أربع منارات ضوئية جوية غير مطروقة كانت ترشد طريق بورتسموث - لندن القديم. فكانت السماء فوقهم صامتة مقفرة، بينما امتلأت سماء سيلبورن وبوردون وفرنهام بأزير المروحيات الهادرة دون توقف.

اختار البدائي لخلوته المنارة القديمة علىٰ قمة التل الواقع بين بوتنهام وإلستيد. وقد شُيد المبنىٰ من الخرسانة المسلحة وظلَّت حاله ممتازة، بل ربما كان مريحًا أكثر ممَّا يجب، هكذا فكر البدائي عندما استكشف المكان للمرة الأولىٰ، وربما كان مرفهًا متمدنًا أكثر ممَّا يتوافق وذوقه، لكنَّه صالح ضميره بوعده تعويض هذه الرفاهية بالمزيد من الانضباط الذاتي وأخذ نفسه بالحزم والتطهير الكامل التام.

كانت ليلته الأولىٰ في خلوته مسهدة عن عمد، فقضىٰ ساعات الليل علىٰ ركبتيه داعيًا مبتهلًا للسماء التي تضرع إليها كلوديوس المذنب أن تمنحه العفو حينًا، ولأوناويلونا في لغة الزوني حينًا

آخر، وللمسيح وبوكونج وللصقر ملاكه الحارس من الحيوانات، ومن حين لآخر كان يفرد ذراعيه كالمصلوب تاركًا إياهما لدقائق حتىٰ يتزايد الألم؛ ليغدو عذابًا لا يُطاق، ويظل يصلبهما بإرادته بينما يردد عبر أسنانه المطبقة والعرق يتحدر علىٰ وجهه: «اغفر لي! طهِّرني! أعنِّي علىٰ الصلاح!». المرة تلو الأخرىٰ حتىٰ يصبح علىٰ شفا الإغماء من الألم.

وعندما أتىٰ الصباح شعر أنَّه اكتسب الحق في سكنىٰ المنارة؛ رغم أنَّ معظم النوافذ كانت لا تزال تحمل زجاجًا، ورغم أنَّ المنظر من الرصيف كان خلَّابًا. وقد كاد السبب الذي اختار من أجله المنارة في المقام الأول يجعله يرغب في تركها إلىٰ مكان آخر علىٰ الفور؛ ذلك لأنَّه قرر العيش هناك لجمال المنظر، ولكن من موقعه الممتاز ذاك بدا له وكأنَّه ينظر إلىٰ تجسد كائن سماوي، ومن يكون هو ليدلَّل كل يوم وكل ساعة بالتمتع بمثل هذا المنظر البديع؟! من يكون ليعيش في الوجود المنظور للرب؟! إنَّ جل ما يستحقه هو العيش في حظيرة خنازير قذرة، أو حفرة مظلمة في الأرض.

صعد إلىٰ سُدة البرج وعضلاته لا زالت متيبسة من معاناة آلام الليلة الماضية، وربما لذلك السبب عينه كان يشعر بالطمأنينة، وتطلع إلىٰ الأفق يشهد شروق الشمس علىٰ العالم الذي استعاد الحق في سكناه، كان يحد المنظر التلال الجيرية الطويلة لهوجز باك في الشمال، والذي يبرز من وراء شرقه الأقصىٰ ناطحات

السحاب السبع التي تكون جيلد فورد، وبمرآهم عبس البدائي، ولكنَّه سيتصالح مع وجودها بمرور الوقت؛ وذلك لأنَّها حين يهل المساء تتلألأ بأضواء مبهجة تكوِّن مجموعات نجمية ذات أشكال هندسية بديعة، أو توجه كشافاتها القوية بأصابعها الزاهرة بمهابة إلىٰ حجب السماء الغائرة، في إشارة لم يعد يتلقاها في بريطانيا كلها الآن سوىٰ البدائي.

وفي الوادي الذي يفصل هوجز باك عن التل الرملي الذي تقبع عليه المنارة توجد بوتنهام، وهي قرية صغيرة متواضعة علىٰ ارتفاع تسعة طوابق، تحتوي علىٰ صومعة غلال، ومزرعة دواجن، ومصنع صغير لإنتاج (فيتامين د). ومن الناحية الأخرىٰ للمنارة جهة الغرب تتحدر الأرض في منحدرات طويلة من نبات الخلنج لتنتهي إلىٰ سلسلة من البرك.

ووراء ذلك، وفوق الغابة القاطعة للطريق لاح البرج التابع لإلستيد والمكون من أربعة عشر طابقًا، وفي جو إنجلترا الضبابي بدت هيند هيد وسيلبورن خافتتين تجذبان الأعين لجمالهما الرومانسي الهادئ البعيد المغلف باللون الأزرق، ولم يكن البعد القاصي وحده هو الذي جذب البدائي لمنارته، فقد كانت الطبيعة المحيطة بها في نفس سحر ما يراه بعيدًا في الأفق، كالغابة وحقول الخلنج الممتدة قربه، وشجيرات الرَتَم الشائكة بزهورها الصفراء، وآجام التنوب الاسكتلندي، والبركات المتلألئة بأشجار البتولا المتدلية فوقها وزنابق الماء وأحواض الإذخر، كان كل ذلك

جميلًا، بل ومذهلًا لعين اعتادت علىٰ جدب الصحراء الأمريكية، ثم هناك العزلة! حيث تمر أيام كاملة لا يرىٰ فيها إنسان.

ورغم أنَّ المنارة لا تبعد إلَّا ربع الساعة طيران عن برج تشارينج (T)؛ إلَّا أنَّ تلال الماليبز لم تكن أكثر عزلة من براري سوري[1]. فالحشود التي تغادر لندن يوميًّا تفعل ذلك فقط لتلعب الجولف الكهرومغناطيسي أو التنس، وبوتنهام لا تملك أي وصلات، وأقرب ملاعب للعبة تنس ريمان توجد في جيلد فورد، أمَّا هنا؛ فلا يوجد ما يجذب إلَّا الزهور والمناظر الطبيعية، ولمَّا لم يكن هناك سبب جيد لزيارة المكان ندر قاصدوه.

وهكذا في أيامه الأولىٰ في المنفىٰ عاش البدائي وحيدًا دون إزعاج.

أمَّا عن المال الذي تلقَّاه جون فور وصوله لمصروفاته الشخصية؛ فقد أنفق معظمها علىٰ أجهزته، فقبل مغادرته لندن كان قد ابتاع أربعة حرامات من الصوف والفسكوز وأحبالًا وخيوطًا ومسامير وصمغًا وعدة أدوات وثقابًا (رغم أنَّه ينوي بعد حين أن يصنع حفرة نار)، وبعض الآنية والقدور ودزينتين من حزم البذور وعشرة كيلوجرامات من دقيق الحنطة، وهو ما أصر عليه: «لا . . . لا أريد نشاء ولا قطنًا صناعيًّا، ولا بدائل من مخلفات الدقيق، رغم أنَّها أكثر تغذية».

---

(١) مقاطعة بالجنوب الشرقي في إنجلترا.

إلَّا أنَّه لم يستطع مقاومة إغراء بدائل الكعك بالغدة، واللحم البقري المعالجين بالفيتامين عندما عرضهم عليه البائع، ولكنَّه وبَّخ نفسه بشدة وهو ينظر إلىٰ تلك المعلبات الآن بسبب إسرافه. ما أقبحها من أشياء حضارية! وقد عقد العزم علىٰ ألَّا يقربها ولو مات جوعًا، **وفكر ناقمًا**: «سوف يلقنهم هذا درسًا».

وهو الدرس الذي سيلقَّنه هو أيضًا بطبيعة الحال.

وعدَّ نقوده، علىٰ أمل أن يكون المتبقي كافيًا حتىٰ انقضاء الشتاء، وإلىٰ أن يحين الربيع القادم، فتبدأ حديقته في إثمار ما يكفي لإنهاء اعتماده علىٰ العالم الخارجي. وحتىٰ ذلك الحين؛ فالمجال متسع لقليل من اللهو والصيد، فقد رأىٰ الكثير من الأرانب، وهناك طيور مائية عند البرك. وهكذا جلس علىٰ الفور ليصنع قوسًا وسهامًا.

كانت هناك أشجار دردار قرب المنارة، ولصنع نصال السهام كانت هناك أيكة مليئة بشتلات جميلة مستقيمة من شجيرات البندق، بدأ عمله بقطع دردارة صغيرة، اقتطع منها ساقًا ليس به فروع يبلغ الست بوصات طولًا، وجزَّ لحاءه، ثم أخذ يقشر الخشب الأبيض طبقة بعد الأخرىٰ، كما علَّمه ميتسيما المسن، حتىٰ حصل علىٰ عصا تضاهيه طولًا، صلبة في منتصفها السميك، ومرنة وسريعة التوثب عند طرفيها الرشيقين.

منحه هذا العمل متعة بالغة بعد كل تلك الأسابيع من الكسل في لندن بلا عمل يقوم به، فإذا أراد شيئًا ما عليه إلَّا أنْ يضغط

زرًا، أو يدير مقبضًا؛ **لذا**: شعر بسعادة حقيقية في القيام بعمل يتطلب مهارةً وصبرًا.

كان قد انتهىٰ من بري العصا علىٰ شكلها المرغوب عندما أدرك مندهشًا أنَّه يغني! بدا له وكأنَّه تعثَّر في نفسه، وكأنَّه ينظر إليها من الخارج، وقد ضبط نفسه متلبِّسًا بجرم فاضح، فاحمر وجهه شاعرًا بالإثم. فإنَّه لم يأتِ إلىٰ هذا المكان للغناء والاستمتاع بوقته، ولكنَّه أتىٰ ليفر من مزيد من التلوث بدنس الحياة المتحضرة، أتىٰ ليتطهَّر ويكون صالحًا؛ ليُكفِّر عمَّا مضىٰ.

وأدرك للوعته أنَّه نسي في غمرة استغراقه في بري قوسه ما أقسم علىٰ تذكره أبد الدهر؛ ألا وهي: (ليندا المسكينة!)، وسوء معاملته القاتلة لها، وأولئك التوائم الكريهة المحتشدين كالقمل حول لغز موتها، وقد أهانوا بوجودهم ليس فقط حزنه وندمه، بل أهانوا الآلهة نفسها. وقد أقسم علىٰ التذكر، وأقسم علىٰ التكفير ما حيا. وها هو ذا عاكف علىٰ قوسه/ عصاته سعيدًا يُغنِّي!

فدلف إلىٰ الداخل؛ ليفتح صندوق الخردل، ويضع بعض الماء؛ ليغلي علىٰ النار.

بعد نصف الساعة تصادف أن عبر فوق المكان ثلاثة توائم من **(مجموعات بوكانوفيسكي)** في بوتنهام ينتمون لسلالة (دلتا سالب) يعملون في الفلاحة في طريقهم إلىٰ إلستيد، وعند وصولهم إلىٰ قمة الجبل راعهم منظر شاب يقف خارج المنارة المهجورة عاري الجذع يضرب نفسه بسوط ذي نهايات معقودة، علَّم علىٰ ظهره

بخطوط أفقية قِرمزية اللون، ومن كل ندبة من الندوب جرت خيوط رفيعة من الدماء. توقف سائق المقطورة علىٰ جانب الطريق وأخذ يتابع فاغر الفم مع رفيقيه ذلك المشهد العجيب، وشرعوا يعدون الضربات: واحد، اثنان، ثلاثة ...، بعد السوط الثامن قطع الشاب عقابه الذاتي؛ ليهرع إلىٰ حافة الغابة ويتقيأ بعنف، وعندما انتهىٰ تناول السوط وواصل جلد نفسه، تسعة، عشرة، إحدىٰ عشر، اثني عشر مرة ....

همس السائق: «فوردا!». وهو ما وافقه عليه رفيقاه، «يا فوردنا!».

ومرت ثلاثة أيام قبل أن يأتي المراسلون كحدآت تنقض علىٰ جثة.

كان القوس جاهزًا بعد أن جف، واشتد بعد تعريضه لنار هادئة، وشُغل البدائي بسهامه، فبرىٰ وجفف ثلاثين عصا بندقية طعمت بمسامير حادة دقها بحرص، وكان قد أغار ذات ليلة علىٰ مزرعة الدواجن في بوتنهام، وأصبح يملك ريشًا كافيًا لإمداد ترسانة كاملة، كان يعمل علىٰ تزيين نصاله بالريش عندما وجده طليعة المراسلين، الذي تسلل من ورائه دون ضجيج، يعينه علىٰ ذلك حذاؤه الهوائي.

وقال: «صباح الخير يا سيد سافدج، إنَّني ممثل الراديو علىٰ مدار الساعة».

هب البدائي علىٰ قدميه مجفلًا كأنَّما لدغه ثعبان ناثرًا النشاب

والريش وإناء الصمغ وفرشاته حوله في كل صوب.

فبادره المراسل نادمًا: «أستميحك عذرًا، لم أقصد . . .».

ثم لمس حافة قبعته الألمونيوم التي تحمل لاقطًا وناقلًا لاسلكيًا، وقال: «عفوًا إن لم أخلع القبعة فهي ثقيلة شيئًا ما، وكما كنت أقول: فإنني ممثل للراديو . . .».

قاطعه البدائي متجهمًا: «ما الذي تبغيه؟».

فأجابه المراسل بأكثر ابتساماته تملقًا: «بالطبع سيهتم قراؤنا كثيرًا بسماع بضع كلمات منك يا سيد سافدج».

كان يتحدث وقد أمال رأسه إلىٰ أحد الجانبين وتحوَّلت ابتسامته إلىٰ ما يشبه الغنج، وبسرعة وبحركات طقوسية محفوظة حل سلكين يتصلان ببطارية محمولة شدت حول وسطه، وأوصلهم في آنٍ واحد بجانبي قبعته المصنوعة من الألومنيوم، ثم لمس زنبرك في قمتها لينتصب هوائي، ولمس زنبركًا آخر في قمة الحافة ليقفز مكبرٌ للصوت كعفريت العلبة معلقًا في الهواء يهتز علىٰ بعد ست بوصات من أنفه، ثم سحب زوجًا من المستقبلات إلىٰ أذنيه، وضغط مفتاحًا كهربيًا في جانب القبعة الأيسر فصدر أزيزٌ خفيفٌ كطنين الدبابير، وأدار مقبضًا علىٰ اليمين فقاطع الأزيز صفيرٌ وشوشرة إلكترونية من السماعة أعقبها سعال وصياح مباغت، فقال لمكبر الصوت: «مرحبًا . . . مرحبًا!».

ودق جرس في قبعته فجأة. «أهذا أنت يا إدزل؟ بريمو ميلون

يحدثك. نعم؛ قد وصلت إليه، سوف يتناول السيد سافدج مكبر الصوت الآن ليقول كلمة، ألن تفعل يا سيد سافدج؟». ورفع ناظريه إلىٰ البدائي بإحدىٰ ابتساماته المتألقة.

«فقط أخبر قُرَّاءنا ما الذي جاء بك إلىٰ هنا؟ ما الذي جعلك تترك لندن (انتظر يا إدزل) علىٰ حين غرة؟ وأخبرهم بالطبع قصة هذا السوط».

جفل البدائي! «كيف عرفوا عن السوط؟!».

«نحن كلنا نتحرق شوقًا لسماع قصة السوط، ثم ربما تذكر شيئًا عن الحضارة، أنت تعلم هذا النوع من الأشياء، (كيف أرىٰ الفتاة المتحضرة)، أو ما شابه. فقط في كلمات قليلة، قليلة جدًّا . . .».

أطاعه البدائي منفذًا طلبه بحَرْفية تدعو للقلق، فتفوه بخمس كلمات ولم يزد، وهي نفس الكلمات التي أسمعها برنارد عن كبير منشدي كانتربري بلغة الزوني، ثم قبض علىٰ كتف المراسل ليديره بعنف (كان المراسل مرتديًا واقيًا محكمًا)، ثم ركله ركلة عاتية حملت قوة تسديد بطل من أبطال لعبة (الكرة من القدم إلىٰ الفم).

وبعد مرور ثماني دقائق كانت هناك طبعة جديدة من **(الراديو علىٰ مدار الساعة)** معروضة للبيع في شوارع لندن، **عنوان صفحتها الأولىٰ: «مراسل الراديو علىٰ مدار الساعة يتلقىٰ ركلة في عصعصه من البدائي الغامض»**. و**«الإثارة في مقاطعة سوري»**.

وعلق المراسل عندما قرأ الكلمات عقب عودته: «الإثارة

حتىٰ في لندن». ويالها من إثارة مؤلمة! فكر في ذلك وهو يجلس ببطء وحذر ليتناول غداءه.

لم يرتدع المراسلون بما أصاب عصعص زميلهم من ركلة تحذيرية، فذهب أربعة آخرون ممثلين لصحف نيويورك تايمز وتواصل الأبعاد الأربعة بفرانكفورت وساينس مونيتور الفوردية ودلتا ميرور إلىٰ المنارة بعد ظهر ذلك اليوم ولاقوا جميعًا استقبالًا عنيفًا متزايدًا في عنفه.

ووقف مراسل ساينس مونيتور الفوردية علىٰ مسافة آمنة وهو لا يزال يمسد مؤخرته هاتفًا: «مغفل ... جاهل! لِمَ لا تتناول السوما؟».

فهز البدائي قبضته صائحًا: «ابتعد من هنا!».

تراجع الآخر عدة خطوات قبل أن يلتفت إليه مجددًا: «إنَّ الشر يغدو وهمًا إذا تناولت جرامين».

رد عليه البدائي بلغة الزوني لكن لهجته كانت متهكمة مهددة.

«ما الألم إلَّا وهم».

رد البدائي: «أحقًّا؟». ثم التقط قضيبًا غليظًا وتقدم نحو المراسل، فهرع الأخير متراجعًا نحو مروحيته.

بعد ذلك تُرك البدائي وشأنه لوهلة يحيا في سلام. وأتت بعض المروحيات تحوم حول البرج مستطلعة، فقذف أقربها بسهم اخترق الأرضية الألمونيوم لكابينة القيادة؛ وصدرت صيحة عالية،

وتأرجحت الآلة في الهواء، واندفعت بأقصىٰ سرعتها. بعد ذلك حافظ الآخرون علىٰ وجود مسافة آمنة، وتجاهل البدائي طنينهم المزعج، وفي خياله تمثل نفسه كأحد خطاب فتاة متساكي، يقف ثابتًا ذو عزيمة بين الحشرات المجنحة، واستمر البدائي في حرث حديقته الجديدة، وبعد فترة بَدَا وكأنَّ الحشرات قد أصابها الملل فطارت بعيدًا؛ حتىٰ تخلو السماء فوقه لعدة ساعات متصلة فيسود صمت تام لولا زقزقة العصافير.

كان الطقس حارًّا يخنق الأنفاس، والسماء ترعد، وكان قد قضىٰ نهاره كله في الحرث، فجلس يرتاح قليلًا متمددًا علىٰ الأرض، وفجأة تجسدت ذكرىٰ لينينا كواقع أمامه، متجردة ملموسة وهي تهمس: «محبوبي!» و«طوقني بذراعيك». تجسدت أمامه معطرة في حذائها وجواربها فقط. الفاجرة المتهتكة! ولكن أواه! آهٍ من ذراعيها حول عنقه وارتفاع نهديها وشفتيها! الخلود علىٰ شفاهنا وفي أعيننا. لينينا ... ولكن كلا، كلا، كلا، كلا! وهبَّ واقفًا وهو نصف عارٍ يركض خارج المنزل.

كانت هناك أجمة من شجيرات العرعر شهباء الأوراق علىٰ حافة حقل الخلنج ألقىٰ بنفسه عليها يعانق حفنة من الرماح الخضراء الحادة التي تحمل آلاف الأشواك التي وخزته بدلًا من الجسد البض الذي يرغبه. وحاول أن يفكر في ليندا المسكينة متقطعة الأنفاس تتصبب عرقًا بكفيها المقبوضتين وعينيها الممتلئتين رعبًا أبكم، ليندا المسكينة التي أقسم علىٰ تذكرها أبدًا، ولكنَّها

ذكرىٰ لينينا التي تطارده، لينينا التي أقسم علىٰ نسيانها، وحتىٰ مع وخز وطعن أشواك العرعر مازال لحمه الواجف الجفل واعيًا لوجودها الذي لا مهرب منه، «محبوبي، محبوبي . . . إذا كنت ترغبني بدورك لِمَ لَمْ . . .».

كان السوط مُعلَّقًا علىٰ مسمار بجانب الباب، في متناول اليد متىٰ وصل مراسلون جُدُد، فركض البدائي عائدًا إلىٰ المنزل في حالة جنونية، واختطفه مطوحًا إيَّاه في الهواء لتجلد الحبال المعقودة لحمه.

كان يصيح عند كل جلدة: «بغي! بغي!»، وكأنَّما هي التي تتلقىٰ هذا العذاب (وهو ما كان يرجوه بحرارة محمومة دون وعي) لينينا البيضاء الدافئة العطرة الفاجرة، «بغي!».

ثم في صوت يائس: «آهٍ يا ليندا سامحيني . . . سامحيني . . . يا إلهي! إنَّني فاسد خبيث. إنني . . . كلا . . . كلا، أنتِ البغي، أنتِ البغي!».

ومن مخبئهِ المعد بعناية في الغابة علىٰ بُعد ثلاثمائة مترٍ راقب داروين بونابرت المصور الفوتوجرافي الأول، نجم مؤسسة الأفلام الحسية المشهد كاملًا، وقد كوفئ علىٰ صبره ومهارته. كان قد مرت عليه ثلاثة أيام كاملة وهو جالس داخل جذع شجرة بلوط غير حقيقية، ثلاث ليالٍ يزحف فيها علىٰ بطنه عبر الخلنج، ويخبئ مكبرات الصوت في شجيرات الرتم، ويدفن أسلاكًا في الرمال الرمادية الناعمة، اثنان وسبعون ساعة مرت عليه في مشقة شديدة،

أمَّا الآن؛ فقد حانت لحظته، بل أعظم لحظاته منذ فيلمه الحسي المجسم، فيلم الإثارة الشهير عن حفلة زواج الغوريللا. (هكذا خطر علىٰ باله وهو يتحرك بين معداته).

وهتف في نفسه: «مدهش ... مدهش!». عندما شرع البدائي في أدائه المذهل، وتابع الجسم المتحرك للبدائي بحرص مثبتًا عدسة الكاميرا المُقرَّبة عليه، قرَّب العدسة أكثر؛ ليحصل علىٰ صورة واضحة للملامح الملتوية المعذبة.

«رائع!».

ثم انتقل إلىٰ التصوير البطيء لنصف دقيقة، مُمنِّيًا نفسه بتأثير هزلي رائع تظهره تلك السرعة، وتسمَّع في تلك الأثناء إلىٰ الضربات والأنين والهذيان الجامح الذي سجله مسجل الصوت علىٰ طرف فيلمه، وجرب تأثير شيء من التضخيم للصوت (نعم؛ هذا أفضل بالتأكيد)، وأسعده سماع غناء قُبَّرة في لحظة سكون بين الأنات، وتمنَّىٰ لو التفت البدائي ليلتقط لقطة مقربة للدماء علىٰ ظهره وإذا بالرفيق المتعاون يدير ظهره علىٰ الفور (يا للحظ الحسن!)؛ ليتمكَّن بونابرت من التقاط صورة رائعة مقربة.

وقال لنفسه عندما انتهىٰ كل شيء: «حسنًا كان هذا عظيمًا، عظيمًا حقًا». ومسح وجهه. سوف يكون فيلمًا رائعًا عندما يضعون له المؤثرات الخاصة بالأفلام الحسية في الاستوديو. وفكَّر داروين بونابرت أنَّه سيقارب في جودته فيلم الحياة العاطفية لحوت العنبر. وأنَّ هذه بحق فورد لشهادة تنبئ بالكثير عن تميز هذا الفيلم.

وبعد مرور اثنا عشر يومًا عُرض فيلم (بدائي سوري)؛ ليشاهد ويسمع ويحس في كل دور عرض الدرجة الأولىٰ في أوروبا الغربية.

وكان تأثير فيلم داروين بونابرت عاجلًا وهائلًا، وانتهت عزلة جون الريفية في ظهيرة اليوم الذي تلىٰ ليلة العرض بوصول سرب هائل من المروحيات علىٰ حين غرة.

كان يحرث أرض حديقته بينما يُقلِّب في عقله أفكاره التي كانت تتمحور حول الموت، وأخذ يعزق الأرض بمجرفته . . . إنَّ كل أيامنا الماضية هي دليل الحمقىٰ إلىٰ تراب القبر[١]، حين اخترق دوي رعد هادر الكلمات الدائرة في ذهنه. رفع حفنة أخرىٰ من التربة بمجرفته . . . «لماذا ماتت ليندا؟ ولماذا تُرِكت ليتدهور حالها تدريجيًا لتغدو أقل من إنسان قبل أن . . .». سرت القشعريرة في جسده. (تحسن تقبيل الجيفة)[٢].

ضغط بقدمه علىٰ المجرفة وطعن بعنف في الأرض الصلبة . . . ما نحن للآلهة إلَّا كالذباب للصبية العابثين، يتخذوننا محلًا للَّهو والعبث[٣].

وطرق سمعه هدير الرعد مجددًا؛ كلمات أعلنت عن نفسها كحقائق، حقائق أصدق من الحقيقة ذاتها. ومع ذلك فجلوستر نفسه

(١) «مسرحية ماكبث»، شكسبير.

(٢) «مسرحية هامليت»، شكسبير.

(٣) «مسرحية الملك لير»، شكسبير.

قد دعاهم الآلهة اللطيفة أبدًا. إلىٰ جانب أن أفضل الراحة في النوم، ومع ذلك؛ فإنَّنا نخشىٰ الموت كما لا نخشىٰ شيئًا آخر، ولكنَّه لا يزيد عن كونه نومًا، نومًا يتيح لنا الحلم(١).

اصطدمت مجرفته بصخرة، فانحنىٰ ليلتقطها. تُرىٰ بِمَ قد يحلم في نوم الموت؟ ...

تحول الطنين فوق رأسه إلىٰ هدير صاخب، وعلىٰ حين بغتة علاه ظل، واحتجبت الشمس عنه، فرفع رأسه إلىٰ أعلىٰ مجفلًا تاركًا عزقه وتنقيبه في أفكاره، وتطلع في حيرة مبهور البصر من شدة الضوء، وعقله لا زال سارحًا في خيالات ذلك العالم الآخر الأصدق من الحقيقة، مستغرقًا في المعاني اللَّا متناهية للموت والذات الإلهية، تطلع ليرىٰ فوقه سرب الماكينات المحلقة كالجراد، وقد تعلقت علىٰ أهبة الاستعداد، وبدأت في الهبوط حوله في حقل الخلنج، ومن باطن هذه الجنادب العملاقة خطا رجال يرتدون الفسكوز الأبيض، ونساء في سراويل قصيرة من المخمل وقمصان بلا أكمام (كان الجو حارًا آنذاك)، وفي عدة دقائق تجمع العشرات منهم في دائرة متسعة حول المنارة، يحملقون ويضحكون ويضغطون زناد كاميراتهم، ويلقون بالفول السوداني، وعلك الهرمون الجنسي، وقطع طعام معجونة بإفرازات غدية (كأنَّما يلقونها لقرد).

---

(١) مزج جون هنا بين عدة اقتباسات لشكسبير من مسرحيات عدة، كـ«الصاع بالصاع»، و«هاملت»، و«الملك لير»، و«ماكبث».

كانت أعدادهم تتزايد علىٰ مدار الوقت، وسيل المرور لا ينقطع من هوجز باك، وكالكابوس تكاثرت العشرات إلىٰ مئات.

وتراجع البدائي متحريًا ملجأً، واتخذ وضعية حيوان متحفز للخطر، فآوىٰ بظهره إلىٰ حائط المنارة متنقلًا بعينيه بين وجه وآخر في رعب صامت، كرجل فارقه رشده.

أخرجه من ذهوله ارتطام علبة علك بخده، فأخرجته صدمة الألم من ذهوله إلىٰ الواقع ومعه اجتاحته نوبة غضب عاتية.

فصرخ: «اغربوا بعيدًا».

فانطلقت عاصفة من الضحك والتصفيق؛ لقد تحدث القرد!

«مرحىٰ! مرحىٰ بالبدائي الماهر!».

وسمع وسط الضجيج صيحات: «السوط، السوط!».

ردًّا علىٰ الصيحات التقط حزمة الحبال المعقودة من مكانها علىٰ المسمار وراء الباب، ولوَّح بها أمام معذبيه.

فانطلق تصفيقٌ وصياحٌ تهكميٌّ.

فتقدم نحوهم مهددًا، فصرخت امرأة مرتعبة، وتخلخلت الصفوف المقابلة لمصدر التهديد مباشرة، ثم عاودوا الاصطفاف مجددًا وثبتوا بصلابة، استمد هؤلاء السياح شجاعة لم يتوقعها البدائي من وعيهم بكونهم جزء من كيان ضخم متغلب، فبهت وتوقف متلفتًا حوله.

وهتف بغضبِ شابَهُ حزن: «لِمَ لا تدعوني وشأني؟!».

وعرض عليه رجل في الصف الأول كان سيبدأ به البدائي لو اختار الهجوم: «هل لك في بعض اللوز المملح بالماغنيسيوم؟». ومدَّ له يده ببعضها وهو يبتسم ابتسامة استرضاء قلقة.

«لسوف تساعدك أملاح الماغنيسيوم علىٰ البقاء شابًا».

تجاهل البدائي عرضه، وسأل متلفتًا بين الوجوه المبتسمة بادية النواجذ: «ماذا تبغون مني؟! ماذا تبغون مني؟!».

فأجابته مئات الأصوات بشكل مربك: «السوط! فلتؤدِّ حركة السوط، دعنا نشاهد حركة السوط».

ثم في صوت واحد بلحن ثقيل بطيء: «نريد السوط ... نريد السوط!».

صاح بها جمعٌ في أخر الصف، وسرعان ما التقطها الآخرون، وتكررت الجملة في الجموع يرددونها كالببغاوات المرة تلو المرة في إيقاع متزايد، وبعد الترداد السابع أو الثامن لم يعد هناك هتاف سواها.

كانوا يصيحون جميعًا معًا، وربما استمروا لساعات وساعات ثملين بالضجة الجماعية، وحس التكفير المنظوم، لولا أن قوطع الهتاف بعد الترداد الخامس والعشرين بغتةً، فقد وصلت مروحية من هوجز باك وتعلَّقت فوق الحشود، ثم هبطت علىٰ بُعد ياردات من البدائي في المساحة المفتوحة بين صفوف المتفرجين والمنارة، وابتلع هدير المروحة صياح الحشد للحظة؛ ثم استقرت المروحية

وأغلقت المحركات؛ ليعود الهتاف مرة أخرىٰ بنفس الإصرار المرتفع الرتيب.

انفتح باب المروحية وخطا منه أوَّلًا شابٌّ أشقر وردي البشرة، ثم في سروال قصير من المخمل الأخضر وقميص أبيض وقبعة ركوب تبعته امرأة شابة.

جفل البدائي متراجعًا وشحب عند رؤيته للفتاة، التي وقفت تنظر له وتبتسم ابتسامة مترددة متوسلة تكاد تكون متذللة، ومرَّت الثواني، وتحركت شفتاها، كانت تقول شيئًا لكن صوتها ذاب في زحام الهتاف المتكرر للمتفرجين.

«نريد السوط . . . نريد السوط!».

ضغطت المرأة الشابة بكلتا كفيها علىٰ جانبها الأيسر، وعلىٰ وجهها الجميل كوجه دمية بلونه القرنفلي المتألق ظهر تعبير غريب متضارب من التوق والألم، وبدت عيناها الزرقاوان آخذتان في الاتساع وازدادت لمعتهما، حتىٰ سالت دمعتان علىٰ خديها علىٰ حين غرة، وتحدثت مرة أخرىٰ بصوت غير مسموع، ثم بلفتة سريعة تحمل شعورًا جيَّاشًا مدت ذراعيها نحو البدائي وخطت نحوه.

«نريد السوط . . . نريد . . .».

وفجأة نالوا ما يريدون.

«بغي!». اندفع إليها البدائي كالمجنون. «سُرْعُوبة!»[1].

---

(١) سُرْعوب: ابْن عِرْس.

وكالمجنون نزل عليها جلدًا بالسوط.

التفتت هلعة تحاول الفرار، فتعثرت وسقطت بين نبات الخلنج، وصرخت منادية: «هنري، هنري!».

لكن رفيقها المتورد البشرة كان قد ولّىٰ فرارًا ليختبئ وراء المروحية نائيًا بنفسه عن الخطر.

وتفرق الصف بصيحة من الانفعال الجذل، وكان هناك تدافع للتجمع حول مركز الجذب المغناطيسي، فقد كان الألم هولًا فاتنًا آسرًا.

واستمر البدائي في الضرب المحموم وقد أصابه مس: «احرق أيها الفجور، احرق»[(١)].

فالتفّوا متلهفين يتزاحمون ويتدافعون كالخنازير حول حوض العلف.

وصرف البدائي علىٰ أسنانه: «ذاك اللحم!»، ثم أدار السوط علىٰ ظهره يلسعه، «اقتله، اقتله!».

منجذبين نحو سحر الهول الذي يولده الألم، ومدفوعين من داخلهم بعادة التعاون، والرغبة في الإجماع والتكفير، تلك الأشياء التي غرسها فيهم تكييفهم بشكل لا يمكن محوه بدأوا يقلدون حركاته المحمومة، فشرعوا يضربون بعضهم البعض كما يجلد البدائي جسده المتمرد، أو ذلك الجسد البض المجسد لكل ما هو

---

(١) «مسرحية ترويلوس وكريسيدا»، شكسبير.

شائن شرير المتلوي بين نبات الخلنج تحت قدميه.

وتابع البدائي صياحه: «اقتله ... اقتله ... اقتله ...!».

ثم بدأ أحدهم في الغناء فجأة: «حفل العربدة»، وفي لحظة التقط الجميع المقطع، وبدأوا في الغناء والرقص، حفل العربدة الدورة تلو الدورة؛ ضاربين بعضهم بعضًا، برتم موسيقي ثنائي. طقس العربدة ...

كان الوقت قد جاوز منتصف الليل عندما أقلعت آخر مروحية. ورقد البدائي نائمًا بين نبات الخلنج مخدر الإحساس بسبب السوما والإرهاق الناتج عن الحمىٰ الحسية طويلة الأمد. وعندما استيقظ كانت الشمس في كبد السماء، فرقد للحظة يطرف بعينيه ويضيقهما عابسًا إزاء الضوء محتارًا غير فاهم قبل أن يتذكر بغتةً كل شيء.

فغطىٰ عينيه براحته متمتمًا: «آهٍ يا إلهي ... يا إلهي!».

في ذلك المساء بدا سرب المروحيات الآتي من هوجز باك كسحابة داكنة تبلغ العشرة كيلومترات طولًا، فقد ظهرت عربدة طقس التكفير البارحة في كل الجرائد بكل تفاصيلها.

وهتف طليعة القادمين فور هبوطهم من مروحيتهم ينادون علىٰ البدائي: «سافدج! يا سيد سافدج!».

وما من مُجيبٍ.

كانت بوابة المنارة مواربة، فدفعوها ليدلفوا إلىٰ غبش، وعبر مدخل مقنطر علىٰ الطرف الآخر من الغرفة كان يمكنهم أن يروا أسفل الدرج الذي يقود إلىٰ الطوابق العُليا، وتحت قمة قوس المدخل مباشرة تدلت قدمان.

«سيد سافدج!».

ببُطءٍ شديد تحوَّلت القدمان كذراعي بوصلة متمهلتين جهة اليمين، فالشمال، فالشمالي الشرقي، فالشرق، فالجنوب الشرقي، فالجنوب، فالجنوب الغربي، ثم توقفتا، لتعاودا الرحلة العكسية المتمهلة بعد عدة ثوان نحو اليسار، إلىٰ الجنوب، فالجنوب الغربي، فالجنوب الشرقي، فالشرق . . .

عالم الأدب
للترجمة والنشر

عالم جديد شجاع

الدوس هكسلي من أعظم الكتاب الإنجليز، وأحد أهم الأصوات الأدبية والفلسفية في القرن العشرين كما جاء في مجلة شيكاغو تريبيون.

تعد هذه الرواية واحدة من أعظم (١٠٠) رواية عالمية، وتعتبر تحفة فنية كلاسيكية ومن أقوى مؤلفات ألدوس هكسلي، تتميز بالخيال التأملي الذي مازال يحدث الحماس والرعب في نفوس القراء لأجيال عديدة.

«عالم جديد شجاع» رواية مبنية على فكرة «الدستوبيا» وهو المجتمع الفاسد، غير الفاضل، على نسق فكرة جورج أورويل «١٩٨٤».

تتميز هذه الرواية بإعمال الخيال والفكر والتأمل، وتشبع جانب المتعة كذلك لدى القراء. الرواية تستكشف السلبيات في مجتمعات تبدو ناجحة في الظاهر، والكل يبدو راضيا بما يتاح له من ملذات ومتع جسدية ومادية ظاهرة، ولكن في الحقيقة هذا الاستقرار الملحوظ في هذا المجتمع يتطلب تضحية بالحرية بمعناها الحقيقي، حتى حرية الفكر، كذلك يتطلب درجة عالية من تحمل المسؤولية من أفراد ذلك المجتمع.

عالم الأدب
للترجمة والنشر

الثمن: ١٤ دولارا
أو ما يعادلها

ISBN 978-977-6539-10-5

9 789776 539105

info@aalamaladab.com